الإمارات
THE EMIRATES

مراود

مجلة متنوعة تعنى بالتراث الثقافي

العدد 49 – ديسمبر 2022، السنة السادسة

ملف العدد

الأسواق التراثية.. رحلة في العراقة والتاريخ

«الشارقة للتراث» يشارك في «المكسيك الدولي للكتاب»

وفد المركز الوطني للمؤهلات يزور «الشارقة للتراث»

«الشارقة للتراث» يحتفي بعيد الاتحاد الـ 51

MARAWED Issue, 49, (DES 2022), The Sixth year

العدد 49 – ديسمبر 2022 السنة السادسة

MARAWED

Magazine Concerned With The Cultural Heritage

صدر حديثاً

إدارة المحتوى والنشر
Content and Publishing Department
unesco
Centre
Under the auspices
of UNESCO
معهد الشارقة للتراث
SHARJAH INSTITUTE
FOR HERITAGE

مُرَاوِد

سياسة النشر

تعنى مجلة «مراود» بالتراث الثقافي الإماراتي بالدرجة الأولى، ثم العربي والعالمي، وتسعى من خلال أبوابها إلى الاضطلاع بتلك الغاية، والتركيز على موضوعات تراثية تتّسم بالجدة والموضوعية والتنوّع والشمول، ومقاربة التراث، بحثاً وتوثيقاً ودراسةً وتدقيقاً، كما تعمل المجلة على تتبّع تجليات التراث الثقافي في الأعمال الإبداعية الإماراتية والعربية من خلال الاحتفاء والتوظيف والاستحضار لمختلف عناصره ورموزه.

وتركّز المجلة على الموضوعات الثقافية والتراثية والإعلامية التي تلامس مختلف جوانب التراث الثقافي من مهن وحرف وألعاب وحكايات وأزياء وزينة وحلي وفنون وموسيقى.. وكل ما يتّصل بفروع التراث الثقافي وعناصره، محلياً وعربياً وعالمياً.

يشترط في المواد المقدّمة للنشر:

- الجِدّة والأصالة، وألا يكون سبق نشرها أو مقدّمة للنشر لدى مجلات أخرى.
- الموضوعية في الطرح والمصداقية في التناول.
- سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب.
- التوثيق العلمي وعزوُ كل قول إلى قائله.
- ألا تتضمن المواد ما ينافي المبادئ الأخلاقية والمقدسات الدينية أو يخدش الحياء، أو ينافي الذوق العام.
- ترفق مع المواد صور عالية الدقة والجودة.
- يراعى في ترتيب المواد المقدّمة للنشر الجانب الفني والموضوعي وفق رؤية هيئة تحرير المجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف في صياغة المواد، متى كان ذلك ضرورياً، لتتماشى مع سياسة النشر، ومع الطرح الإعلامي المناسب للقارئ.
- إدارة التحرير غير ملزمة بشرح أسباب رفض نشر المواد ولا إرجاعها.
- المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، وإنما عن رأي كتّابها.
- تستقبل المواد والمشاركات على بريد المجلة الإلكتروني: **marawed@sih.gov.ae**

للتواصل مع إدارة التحرير:

0097165014898

marawed@sih.gov.ae

الافتتاحية

د. عبدالعزيز المسلّم

رئيس معهد الشارقة للتراث

رئيس التحرير

أسواقنا الشعبية ذاكرة حيّة

تعدّ الشارقة مركزاً تجارياً حيوياً، لعب دوراً محورياً في التاريخ الاقتصادي للإمارة، من خلال التبادل التجاري بين الشارقة والمدن والمراكز القديمة، التي كانت تستقطب التجار والباعة من كل حدب وصوب، ما جعل أسواق الشارقة تعجّ بالبضائع والسلع من مختلف الأنواع والأشكال، وظهرت أسواق قديمة في قلب الشارقة، كانت مدار العملية التجارية والاقتصادية، منها: سوق العرصة، سوق الشناصية، سوق التمر، سوق صقر...

وقد عملنا في معهد الشارقة للتراث، بتوجيهات سامية من صاحب السموّ الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، حفظه الله، على ترميم هذه الأسواق وصيانتها وإحيائها؛ لتلعب دورها من جديد، وتعود إليها الحياة.

ومما لا شك فيه، فإن الأهمية التاريخية والتراثية لتلك الأسواق جعلتها لاحقاً وجهات رائدة لاستقطاب الزوّار والسيّاح من كل مكان، فعادت حيّة نشطة، يؤمّها كلّ الناس من مختلف الفئات والثقافات، وهذا ما جعلنا نفرد لها مساحة في هذا العدد من مجلة «مراود»؛ لإبراز دورها ومكانتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، بوصفها أماكن تجتمع فيها العامة، ويتم فيها تبادل البضائع والسلع، وتلتقي فيها ثقافات الشعوب وحضارات الأمم.

كما سيجد القارئ في هذا استعراضاً ضافياً لمختلف الأنشطة التجارية والاقتصادية، وأماكنها ومراكزها، ما يسهم في بلورة تصور شامل ومتكامل عما كانت عليه الحياة في الماضي.

وفي العدد مقالات متنوّعة، ودراسات رصينة، تستكشف معالم التراث الثقافي العربي والإماراتي، وترتحل بالقارئ إلى عوالم جديدة، وآفاق واسعة، تمزج بين المعنى والمبنى، وترصد حركة التراث الثقافي في أماكن ومواقع متنوّعة.

az.almusallam@gmail.com

المحتويات

العدد 49 – ديسمبر 2022

مُراود

الغلاف

12
ملف العدد

الأسواق التراثية..
رحلة في العراقة والتاريخ

10
برامج وفعاليات

«الشارقة للتراث» يشارك في «معرض المكسيك الدولي للكتاب»

موسيقا الشعوب

78
مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ من القرن الثاني حتى الحادي عشر الهجريّ

دراسة

84
خليفة بن شخبوط شاعر القرن التاسع عشر

خواطر

86
دار التقدم..
صفحة من تاريخ الاستشراق الروسي

قراءة أدبية

90
«أسير البرتغاليين» رواية تكرس الوعي بالتاريخ وبالأزمنة

تنبيهات

94
مكحلة
شداد بن عاد

سوالف الهامور

«الحَب ينقض على بذره»

100

التراث الشعبي العربي

98
النكتة.. عبقرية الأداء والتلقي

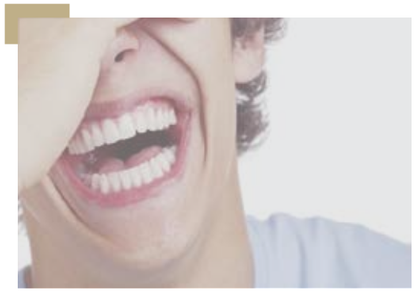

العمارة التراثية

العمارة الرومانية
الجزء الثاني

102

مقاربات

120
من التراث: وسائط الإنذار الاستباقي عند المسلمين

حرف تراثية

112
الغوص للؤلؤ وأمثاله الشعبية

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

رئيس التحرير
د. عبد العزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

مستشار التحرير
د. ماجد بوشليبي
كاتب وخبير ثقافي

مدير التحرير
د. منّى بونعامة
مدير إدارة المحتوى والنشر

هيئة التحرير
أ. علي العبدان
أ. عتيج القبيسي
أ. عائشة الشامسي
أ. سارة إبراهيم

سكرتير التحرير
أحمد الشناوي

التصميم والإخراج الفني
منير حمود

التدقيق اللغوي
بسام الفحل

التصوير
قسم الإعلام

الآراء الواردة في المقالات، والتحقيقات، والمقابلات، تُعبر عن رأي أصحابها ومواقفهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي وتوجه المجلة، ويتحمل أصحابها المسؤولية الأدبية أمام الرأي العام، والقانونية أمام الجهات المختصة.

800TURATH
+971 6 5092666
marawed_sih
www.sih.gov.ae

ISBN 978-9948-37-768-9

أماكن تراثية
128
المولوية المصرية.. تراث متجدد بين الماضي والحاضر

آفاق
غفة نخي
124

126
قصص من التراث
الحكايات الشعبية.. قصص تحمل القيم والعِبر

قصص من التراث
كبرياء الملكة «أولغا»
134

نافذة
144
جياوتسي الصينية

138
حرف تقليدية
ابتكارات تدمج الحرف التقليدية في الحياة العصرية

«الشارقة للتراث» يشارك في «المكسيك الدولي للكتاب»

يشارك معهد الشارقة للتراث، ضمن جناح الشارقة ضيف شرف الدورة الـ36 من «معرض المكسيك الدولي للكتاب»، وذلك خلال الفترة من 26 نوفمبر حتى 4 ديسمبر 2022.

وقال سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، درج المعهد على المشاركة الفاعلة في المحافل الدولية التي تحلّ الشارقة فيها ضيف شرف، احتفاءً بدورها الثقافي والتنويري الرائد، وتمثّل مشاركتنا ضمن جناح الشارقة مع المؤسسات الثقافية والإعلامية في معرض المكسيك الدولي للكتاب، تأكيداً على أهمية حرصنا الدائم على إيصال رسالة الشارقة الثقافية والحضارية إلى شعوب العالم، تجسيداً لشعار الشارقة وتوجهاتها الثقافية برعاية صاحب السموّ الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم الشارقة، حفظه الله ورعاه

انطلاق «معرض الشارقة للطوابع 12» بمشاركة خليجية

افتتح سعادة د.عبد العزيز المسلم، رئيس معهد الشارقة للتراث النسخة ال12 من «معرض الشارقة للطوابع 2022»، الذي تنظمه جمعية الإمارات لهواة الطوابع، بالتعاون مع مركز ميغا مول للتسوق، بحضور خليفة بن محمد بن أحمد القاسمي، وسعادة محمد المر، رئيس مجلس إدارة مكتبة محمد بن راشد آل مكتوم، وعبد الله خوري، رئيس جمعية الهواة لجمع الطوابع، وعلي عبد الرحمن، مدير المعرض، إلى جانب عدد من المشاركين في المعرض من دول مجلس التعاون الخليجي والدول العربية والأجنبية؛ وذلك على هامش الاحتفال بالعام الـ51 للاتحاد.

وفد المركز الوطني للمؤهلات يزور «الشارقة للتراث»

استقبل سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، والأستاذة بدرية الحوسني، المديرة الأكاديمية، والهيئة التدريسية، وعدد من مديري الإدارات، وفداً من المركز الوطني للمؤهلات، التابع لوزارة التربية والتعليم، وذلك بهدف اعتماد المؤهلات المهنية المطروحة بالمعهد.

كما تم عقد اجتماع خاص بمتابعة الجودة التعليمية للمؤهلات مع منتسبي الإدارة الأكاديمية، وانتهت الزيارة بجولة في مرافق المعهد، والتعرف إلى الهيئة التدريسية، والاطلاع على آلية التعليم والتسجيل الطلابي.

«الشارقة للتراث» يحتفي بعيد الاتحاد الـ51

نظّم معهد الشارقة للتراث يوماً حافلاً بمناسبة اليوم الوطني الحادي والخمسين لاتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة، تأكيداً على هذه الذكرى الخالدة في تاريخ الوطن وذاكرة المواطنين، والتي تجسد معنى التلاحم الفريد بين القيادة والشعب، وأثر التقاء الإرادات الصادقة في تحقيق التقدم والريادة لأجل الإنسان وخدمته، وضمان أمنه وسلامته، بحضور مديري الإدارات والموظفين وعائلاتهم، ونخبة من كبار الشخصيات والضيوف المدعوين إلى فعاليات هذا اليوم البهيج.

وتوزعت الاحتفالات التي نظمت في مقر معهد الشارقة للتراث، على المسرح وبهو المعهد والساحة الخارجية له، من خلال باقة رائعة وشائقة من الفقرات المتنوعة، شملت الأهازيج والمسابقات والعروض، حيث قدمت فرقة «علي العشر»، مجموعة من الأهازيج التراثية الممزوجة بألحان عبرت عن حب الوطن، وعطاءات الرعيل الأول الممزوجة بكل قطرة عرق تفصدت بها الجباه، وكل نقطة دم انسابت ذوداً عن الحياض.

ملف العدد

الأسواق التراثية..

رحلة في العراقة والتاريخ

الأسـواق روح المـدن وذاكرتهـا، فهـي أكـثر الأماكـن ارتباطـاً بالنـاس وحياتهـم اليوميـة، إذ احتلـت الأسـواق القديمـة حيـزاً كبيـراً في ذاكـرة المعاصريـن لتلـك الفـترة في الإمـارات، فطقوسـها لم تتغـير عـن الوقـت الراهـن، مـن ناحيـة الإقبـال والازدحـام، مـع الفـارق في نوعيـة المنتجـات المعروضـة، فالهـواء مشـبع بروائـح الزعفـران والبخـور والفواكـه الاسـتوائية المجففـة، ومتطلبـات البيـت الأساسـية، وكانـت الأسـواق في مناطـق الإمـارات عـلى اتسـاعها تتشـكل مـن مبـانٍ حجريـة، ودكاكيـن مـن جريـد النخيـل، وخيـام مؤقتـة، تشـمل كلّ مـا لـذّ وطـاب، مـا سـهل أمـور الحيـاة عـلى السـكّان، وللسـوق القديـم في مجتمـع الإمـارات، تأثـير في الفكـر اليومـي لـرواده، مـروراً بتفاصيـل العـادات والسـلوك والأفـكار والأعـراف، وصـولاً إلى كونـه جـزءاً حيويـاً مـن المكـون الإعلامـي، باعتبـاره إحـدى أبـرز منصـات الحـوار الأولى في بدايـات نشـأة المجتمـع المحـلي. وفي ذلـك الوقـت كانـت الأسـواق التجاريـة الإماراتيـة، تقـع في الأغلـب قـرب شـاطئ البحـر؛ لارتباطهـا بالموانـئ وعمليـات توريـد البضائـع وتوزيعهـا، كـما كانـت مقـرّاً للقـاءات الاجتماعيـة، ومـرآة لحيويـة المجتمـع.

الأسواق القديمة..
ذاكرة تنبض بالتراث

فهد علي المعمري
باحث - الإمارات

كانت الأسواق، ولاتزال، هي المحطة الاقتصادية الأولى لكل دولة، والوجهة الرئيسة لكل زائر ومقيم على أرضها، لما تتمتع به هذه الأسواق التراثية من تمازج بين الحضارات، وتنوعٍ في الثقافات، ويقصدها خليط من البشر من مختلف الجنسيات؛ لذا كانت الأسواق التراثية تمثل نمواً وازدهاراً اقتصادياً وثقافياً ومجتمعياً.

بدأت الأسواق الشعبية في دبي تشق طريقها في العقد الأخير من القرن التاسع عشر على ضفتي خور دبي، الذي شهد ميلاد التجارة، ونشأة الأسواق المختلفة في بضائعها ومنتجاتها، لتوفر كل ما يطلبه المجتمع في ذلك الوقت، ولتكون منطقتا بر ديرة وبر دبي مقراً للعديد من الأسواق الشعبية التي شيّدت، ولايزال أكثرها قائماً إلى هذا اليوم.

وشكلت دبي منذ بدايات العقود الأولى من القرن العشرين مركزاً تجارياً في منطقة الخليج العربي، ونظراً لوقوع منطقي بر ديرة وبر دبي على ضفتي خور دبي الذي يشكل ميناءً طبيعياً، وكان يعج بالسفن والبضائع من شتّى بلدان العالم، أضحت دبي هي المركز التجاري خلال منتصف القرن العشرين، وازدهرت أسواقها التي تتمتع بالبضائع الكثيرة والمتنوعة، وذات الجودة العالية، ولم يكد العقد السادس من القرن المنصرم يأتي حتى أصبحت دبي بأسواقها الشعبية قبلة التجار من كل أنحاء العالم.

ويقول الأستاذ علي محمد راشد، في كتابه «الأسواق الشعبية القديمة في الإمارات»، في معرض حديثه عن الأسواق الشعبية في دبي: منذ نشأتها كانت أسواق دبي تعج بالبضائع القادمة من كل أنحاء العالم في القرن الماضي، بسبب نشاط تجّارها الملحوظ في ذاك الوقت، وإلى اليوم، ولقد وصف السوق في ذلك الوقت بأنه منطقة تجارية تعج بالنشاط والحيوية، ويقع في منطقة ديرة، ويتكون من 350 محلاً تجارياً، وبذلك عدّ أكبر سوق في المنطقة، ويصل بين هذه المحال ممرات مسقوفة، حيث يجلس التجار مع بضائعهم.

وإذا ما تكلمنا عن الأسواق الشعبية في دبي، الواقعة في منطقتي: بر ديرة، التي تعد الأكبر والأوسع في دبي، مقارنة بأسواق بر دبي، ولنبدأ الحديث بأسواق بر دبي، وأول هذه الأسواق هو السوق الكبير، وهو أقدم الأسواق في دبي، وتم بناء السوق الكبير على مراحل مختلفة، وعند اكتماله أصبح عدد الأسواق الواقعة فيه خمسون محلاً تجارياً، وعلى جانبيه الشرقي والغربي بوابات تفتح في الصباح، وتغلق في المساء، وبجانب السوق الكبير كانت هناك محال تجارية أخرى، هي:

- الفرضة.
- سوق الحرير.
- سوق اللؤلؤ.
- سوق الملابس.
- سوق الساباط.
- سوق الذهب.
- سوق السمك.
- سوق الأطعمة.

أما الحديث عن أسواق بر ديرة، فهو كثير ومتشعب، نظراً لكثرة الأسواق الواقعة في هذه المنطقة، وأول هذه الأسواق هو السوق الكبير الذي تم بناؤه سنة 1850، ويقع مباشرة على الميناء؛ لذا اكتسب أهمية كبيرة

بفضل موقعه، ويضم العديد من الأسواق المتخصصة، مثل:

- سوق البهارات والتوابل.
- سوق المناظر.
- سوق الملابس.
- سوق التمر.
- سوق العطارين.
- سوق الحبال والدعون.
- سوق المعدن.
- سوق الذهب.
- سوق المطارح.
- سوق السمك.

وفي منطقة بر ديرة يقع سوق آخر، هو سوق مرشد، وهذا السوق من الأسواق التي كانت ولاتزال إلى هذا اليوم تشهد إقبالاً كبيراً من الناس، لاسيّما السائحون، حيث تقع العديد من المباني التاريخية والأثرية في تلك المنطقة، ويضم العديد من الأسواق، مثل:

- سوق المواشي.
- سوق الفحم.
- سوق السمك.
- سوق المضاربة.
- سوق الأطعمة والمكسرات.
- سوق القهوة.
- سوق البشوت.

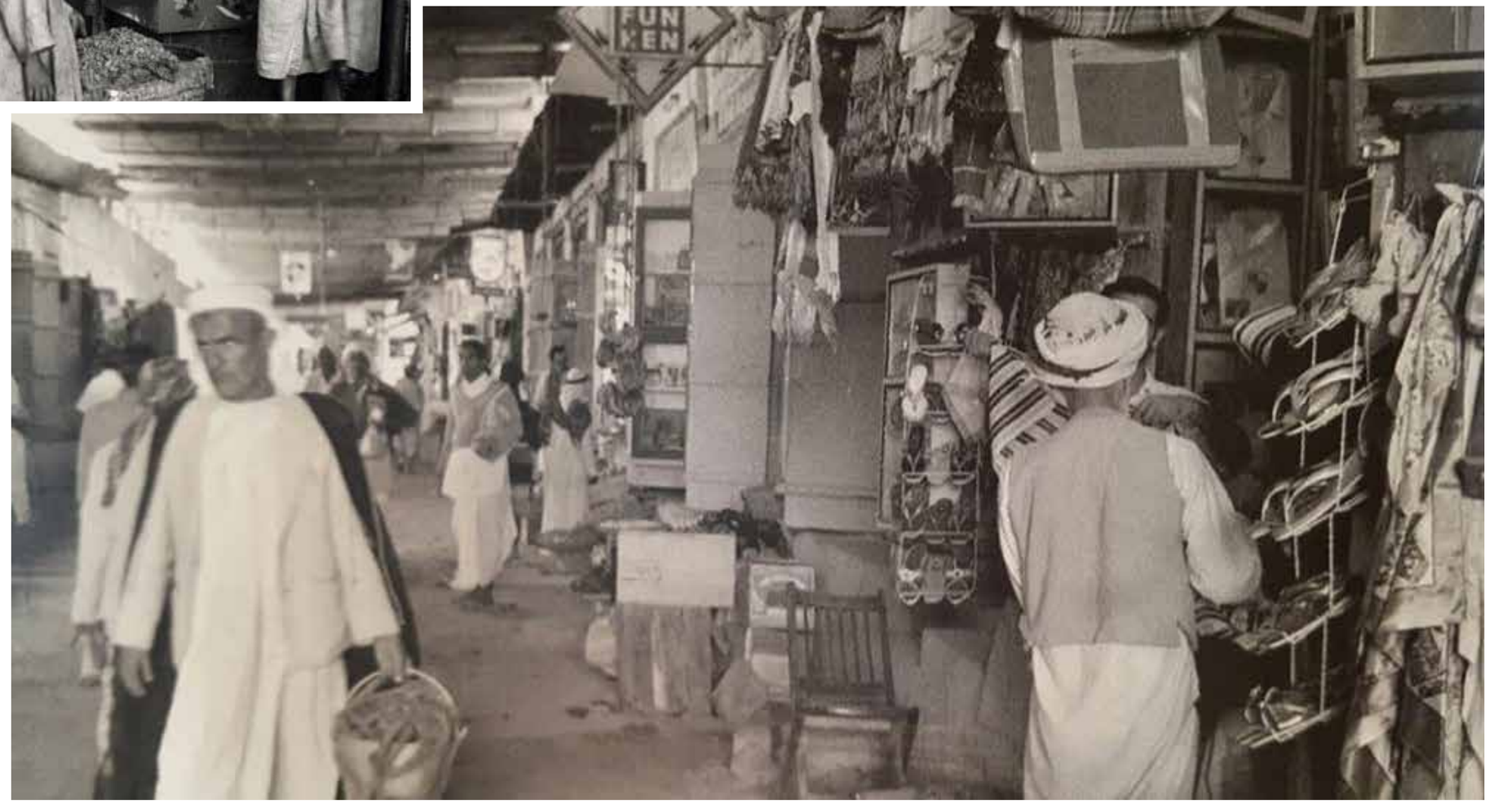

بعد هذا التطواف مع أسواق دبي الشعبية، التي كانت في وقتها تمثل أسواقاً حرة ومتنوعة، تواكب ذلك الزمن ببضاعته ومنتجاته، بذلك المبنى والتصميم الهندسي العمراني الذي كان يمثل الهندسة العمرانية في ذلك الزمن، من الأسقف والأخشاب والحديد والحجارة المرجانية، وتصاميم الأبواب والنوافذ، والممرات، وما تحويه هذه الأسواق من مرافق خدمية، مثل المساجد بتصاميمها المعمارية السائدة في ذلك الوقت. كل ذلك جعل هذه الأسواق حتى هذا اليوم، تؤدي أكثر من غرض في الوقت ذاته، فاليوم أصبحت هذه الأسواق تمثل خصوصية في ذاتها، فهي تُعدُّ أسواقاً تراثية يقصدها السياح للسياحة والمتعة والتبضّع بالمنتجات التراثية.

وبعد أن أصبحت الأسواق الشعبية أسواقاً تراثية، أخذت منحىً آخر، كونها سوقاً تجارياً للبيع والشراء، فأصبحت أسواقاً شاهدة على ذلك الزمن الجميل، فهي تحاكيه في البناء والسلع والديكور، فأصبحت بذلك مزارات للجميع، حيث تكتظ أروقة تلك الأسواق بالزائرين على مختلف أطيافهم وأجناسهم، فمنهم من يريد التبضّع، ومنهم من يرد المشي بين ردهات هذه الأسواق التراثية والاستمتاع، وآخرون يزورون هذه الأسواق بهدف الاستمتاع بمشاهدة التراث العريق، والبضائع الشعبية والتراثية.

ويرجع تاريخ أسواق دبي القديمة إلى نحو عام 1850، حيث أقيم أقدم سوق تجاري بدبي وقتذاك، هو السوق الكبير أمام خور دبي، ويكتمل المشهد العريق بالسفن الخشبية «العبارة» والسفن الكبيرة التي تحولت حالياً لمطاعم من فئة الخمس نجوم، ويتميز السوق الكبير بدبي بتوافقه معمارياً مع المنازل المحيطة به، في مشهد تراثي موحد مازال عالقاً في ذاكرة أهل الإمارات والوافدين إليها، ويتميز السوق أيضاً بدكاكين صغيرة متراصة جنباً إلى جنب، يطل منها الباعة، ومعظم هذه الأسواق القديمة في دبي، بما فيها السوق الكبير، مغطاة بالأخشاب المزخرفة، وبجذوع النخيل المشدودة بالحبال، وتغطى بالحُصر المتينة في الشتاء، تجنباً لهطول الأمطار على البضائع، وكان كبار السن يتخذون هذه الأسواق للترويح لتجارتهم، وتُخصص لهم أماكن بالسوق للجلوس فيها، تعرف حالياً بالمقاهي الشعبية التراثية، التي كانت تشهد إبرام الصفقات والمعاملات التجارية.

بهذه المعطيات وهذه الذاكرة التي تعود بنا إلى أكثر من قرن ونصف القرن من الزمن، تبقى الأسواق التراثية في دبي تاريخاً تجارياً، كان ولايزال مستمراً إلى يومنا هذا، ومع نمو وتطور الأسواق بشكلها العالمي اللافت للنظر؛ والذي يحتوي على آلاف المحال التجارية، من كل مكان في العالم، ويستقطب كل يوم ما يربو على عشرات الآلاف من مرتادي هذه الأسواق، إلّا أن الأسواق التراثية لاتزال تشكل جزءاً مهماً من اقتصاد دبي، وشاهدة على نموها التجاري من خلال أسواقها التراثية التي لاتزال تعايش الواقع بكل تفاصيله، ولكن بعين الماضي الجميل، فالبيع والشراء والزوار والأسواق التراثية والسلع التراثية لاتزال صامدة أمام مكر الليالي والأيام.

وهي بهذا الصمود تسجل أرقاماً تنافسية في عالم الاقتصاد والتجارة، من خلال قراءات كثيرة منها عدد المعاملات اليومية، والمبالغ التي تدخل في صناديق الباعة كل يوم، وأعداد زائري هذه الأسواق، ناهيك عن اللغات المستعملة في جنبات هذه الأسواق، والعملات الورقية المتنوعة، وكأنك تعيش في مركز العالم، حيث تتعدد اللغات والعملات والبضائع والأجناس.

ومن الأسواق التراثية في دبي، الذي تم إنشاؤه في نهاية العقد السابع من القرن الماضي، سوق نايف الذي يعد واحداً من أسواق دبي الشعبية، وهو سوق كبير يتمتع كغيره من أسواق دبي التراثية بتعدد الثقافات، ويقع السوق في منطقة ديرة، ويضم أكثر من 100 محل، ويطرح هذا السوق منتجات متنوعة للزوار والسياح مثل الهواتف، والأحذية، والعباءات التراثية والعصرية، والجلابيات، والملابس الجاهزة، والأقمشة، والشنط، والبضائع الجلدية، والإلكترونيات والهدايا التذكارية وجميع مستلزمات الحياة بأقل الأسعار وبجودة عالية، حيث يعج هذا السوق بحركة يومية دائبة، تأبى أن تتوقف إلا في ساعة متأخرة من الليل طوال أيام الأسبوع.

واكتسب سوق نايف الذي شكل في الماضي المركز الاقتصادي لمدينة دبي، العديد من الأسماء منها، «سوق الصنادق»، حيث كان في السابق عبارة عن أكشاك خشبية، تمت إعادة إنشائه عام 2010 من قبل بلدية دبي، ولكن يبقى اسم «سوق نايف»، هو الأكثر شهرة، وسمي به نسبة إلى «قلعة نايف» الموجودة في المنطقة ذاتها، والتي تعد من المعالم الأثرية البارزة في مدينة دبي.

كذلك لابد لزائر دبي أن يخصص وقتاً لزيارة سوق السبخة، وهو أحد أقدم الأسواق وأكثرها شعبية، حيث يقع سوق «السبخة» بين منطقتي مرشد والرقة، ويكتظ بالزوار الباحثين عن أفضل العروض على الأقمشة والإلكترونيات، والأنظمة الصوتية، ومعدات التصوير الضوئي، وغيرها من المنتجات المتنوعة بأسعار منافسة جداً، وفي أجواء تنقلك إلى الزمن الماضي الجميل.

ومن الأسواق التراثية التي تشكل علامة اقتصادية في دبي، والشاهدة على تحولات المدينة، سوق مينا بازار، حيث تنتعش حركة المارة والسياح على شارع تتزاحم فيه المحال التجارية، وتنتعش معها تجارة الملابس والإكسسوارات، والمجوهرات ذات التصاميم الهندية، في منطقة مفتوحة تتيح للمتسوقين التجول في دكاكينها ودهاليزها الواقعة على ضفاف خور دبي.

وما يميز هذا السوق من بين الأسواق الشعبية القديمة في دبي، موقعه الجغرافي وسط منطقة حيوية في دبي، ووقوعه على مقربة من أسواق شعبية عدة أخرى، ما يجعل الوصول إليه سهلاً، حيث يستقطب زبائن من المواطنين والمقيمين والسياح الأوروبيين، ويعرض مختلف أنواع الأقمشة وبألوان وتصاميم مختلفة، والإكسسوارات التابعة لها بأسعار مناسبة، والمستوردة من الهند والصين ودول أخرى، وترجع تسمية هذا السوق الى الجالية الهندية، حيث يجسد صورة من أقدم صور التواصل التجاري بين دبي والهند.

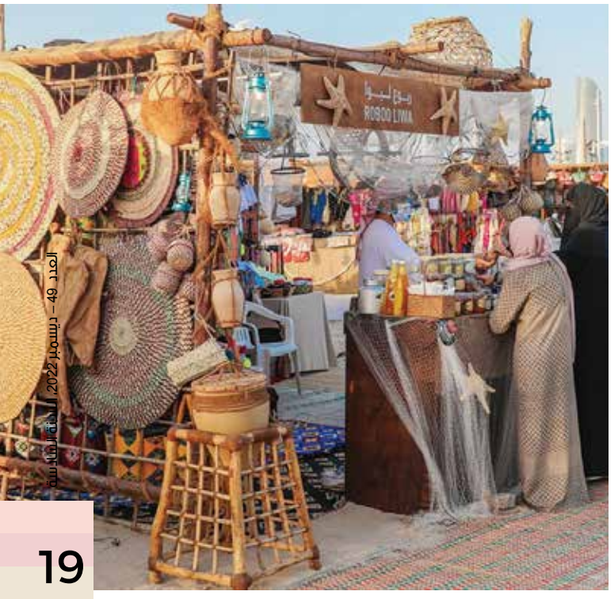

سوق كلباء القديم...

عبق الماضي وأريج الذكريات

نورة خلفان الكندي
مسؤول الدراسات والبحوث
معهد الشارقة للتراث - فرع كلباء

تقع مدينة كلباء في الجانب الشرقي لإمارة الشارقة، في السهل الساحلي الشرقي من حدود دولة الإمارات العربية المتحدة المطلة على خليج عُمان، وتبلغ مساحتها نحو 50 كيلومتراً مربعاً تقريباً، وتحتل موقعاً مهماً على طريق التجارة البحرية للأقطار المحاذية للمحيط الهندي، وتشكل مدخلاً طبيعياً يؤدي إلى الخليج العربي عن طريق مضيق هرمز، وتمتد مدينة كلباء على هذا الشريط الساحلي من الجنوب إلى الشمال، وهي تُعد من المدن التاريخية القديمة في ساحل الشميلية.

وتأتي أهمية كلباء من أهمية موقعها الجغرافي على الساحل، وبالقرب من جبال الحجر الغربي، الأمر الذي جعل منها مركزاً تجارياً حيوياً، كما في قربها من مضيق هرمز. ولأهمية موقعها المتميز وتاريخها القديم، فقد ورد اسم كلباء في التقارير والوثائق الهولندية والبرتغالية والبريطانية، بالإضافة إلى الكتابات المحلية التي عرَّفت بالمدينة وموقعها الجغرافي، وأهميتها التجارية.

التجارة في الساحل الشرقي:

ترتبط موانئ الإمارات خاصة، وموانئ الخليج العربي عامة، بعلاقات تجارية فيما بينها وبين موانئ المحيط الهندي في بحر العرب والسواحل وموانئ الهند الغربية. وكانت التجارة الإقليمية تعتمد في بعض مكوناتها على سلع يتم إنتاجها في المنطقة، وقد شكلت تلك السلع، لاسيما الغليون والتمر والليمون، وكذا الجمال والماعز والأغنام والأسماك ومنتجاتها دوراً بارزاً في نمو الأسواق المحلية والنشاط التجاري لموانئ الإمارات خاصة، وموانئ الخليج وبحر العرب والمحيط الهندي عامة.

وقد لعبت أسوق الساحل الشرقي دوراً رئيساً في تصدير السلع التي ينتجها مزارعو وبدو جبال الحجر الغربي، وخاصة تصدير الغليون والليمون والماعز والأغنام، وكذلك الأسماك المجففة والمملحة إلى موانئ دول الخليج في البحرين والكويت والبصرة، وموانئ السواحل وساحل الهند الغربي، كما كانت الإمارات تستورد العديد من السلع المتنوعة من البصرة وساحل فارس والموانئ الغربية للهند وموانئ شرق إفريقيا (السواحل)، وأهمها السلع الغذائية كالأرز والبهارات والملابس والأخشاب والجندل والباسجيل والحبال وغيرها من السلع الضرورية والاستهلاكية.

وتشتهر جبال الحجر في الفجيرة وكلباء بزراعة وتجارة الغليون، وقد اشترك أهل المنطقة الشرقية في أغلب مناطقها في زراعة الغليون بكميات تجارية كبيرة، وكان يصل مردودها السنوي للمزرعة الواحدة إلى نحو عشرة آلاف روبية، وقد تزيد أو تقل قليلاً، وفي هذا الإنتاج الزراعي المثمر كانت مزارع المناطق الجبلية (الحير) تتميز بجودة الإنتاج، والتي تقاس عادة بدرجة ارتفاع وانخفاض «حرارة الغليون»، حسب تقدير و«كيف» المدخنين؛ لذلك فإن تفوق حرارة غليون الحير كان سر رواجه التجاري وتصديره للخارج بكميات أكبر من كميات إنتاج المناطق الأخرى، وتصدر أغلب كميات المحصول إلى البحرين ودول الخليج العربي، وكانت كلباء الميناء الرئيس في المنطقة الشرقية التي يصدر من خلالها محصول الغليون والحمضيات.

سوق كلباء القديم:

تمثل منطقة المسيال قلب المدينة، ففيها يقع بيت الحاكم على شاطئ بحر العرب من الشرق، ومن جهة الغرب يقع السوق التجاري القديم، ممتداً من الجامع الكبير جامع الشيخ سعيد بن حمد القاسمي، رحمه الله، ومن الجهة الثانية تطل القلعة التاريخية (الحصن). وقد نشأ سوق كلباء في قلب المدينة، كما هو شأن مختلف أسواق المدن العربية، وبالقرب من بيت الحاكم، وكذلك بالقرب من الجامع الرئيس للمدينة، ولأن هذا السوق القديم قد اختفت معالمه مع مرور الزمن، فقد رجعنا إلى الذاكرة الجمعية لكبار السن، الذين قدموا لنا صورة عن السوق من ذاكرة ما تبقى من الناس الذين عاصروه، وصالوا وجالوا فيه، فالسوق القديم لمدينة كلباء مر بأكثر من مرحلة في تطوره، فالمرحلة الأولى له كانت عند الفرضة، مقابل بيت الشيخ سعيد بن حمد القاسمي، ومن الجهة الغربية الجنوبية كان الباعة الذين يأتون بالبضائع يبسطونها بجانب المنزل، وآخرون انتقلوا إلى المساحة الواقعة ما بين الجامع والقلعة، وتتوزع محاله على جانبين متقابلين، ويتكون من مستودعات صغيرة ودكاكين أكثر اتساعاً.

مُلاك الدكاكين وأصحابها:

ذكر الدكتور محمد محمد الصاحي ملخصاً لطبيعة سوق كلباء، ووثق أسماء ملاك الدكاكين التجارية في كتابه «تاريخ كلباء»، الجزء الأول، على النحو الآتي:

أسماء مُلاك الدكانين وأصحابها الذين مارسوا النشاط التجاري في مدينة كلباء من خلال السوق القديم

- جاسم محمد البيرق
- محمد أمين عبدالله الأنصاري
- عبدالله بن أحمد الأنصاري
- رضا محمد البيرق
- محمد عبدالله فكري
- يعقوب محمد البيرق
- مبارك علي بن حسين اللوغاني
- عبدالرحمن عبدالله الأنصاري
- حسين بن أحمد بوصيم
- محمد رفيع المنصوري
- يوسف إبراهيم بلم
- حسين بن حسين البيرق
- عبدالرحيم كفو
- إبراهيم حسين بن علي الخياط
- قمبر عبدالله قمبر
- أيوب عبدالله الزرعوني
- إسماعيل عبدالله بوصيم
- الملا محمد شريف
- كرم بن سيف (القراشي)
- مستودع لحفظ المواد الغذائية للسيد عبدالله بن أحمد الأنصاري

مواد بناء السوق:

وكانت المحال التجارية تشيد من الطين والجص، وسقوف بعض محاله من الجندل، وأبوابها من الخشب، وتأخُذ شكلاً مستطيلاً، بدايته من أول القلعة، وينتهي مع بداية جامع الشيخ سعيد بن حمد القاسمي.

السلع المتداولة:

تُشكل الأسواق القديمة عادةً تاريخ الأمكنة وذاكرتها الاقتصادية والاجتماعية بشكل عام، وتختلف الأسواق من حيث أهميتها ومكانتها وموقعها، لقد تعددت الأسواق في الإمارات قديماً من حيث النشاط التجاري على المستوى المحلي والإقليمي، وحجم المبادلات بينها وبين الأسواق خاصة الدول المجاورة، ومن أهمها الهند وإفريقيا ودول الخليج العربي، سواء المواد الغذائية والأقمشة والمواد الأساسية في البناء وأدواتها والوقود كالبترول والديزل والكيروسين (الكاز) والفحم، والمنسوجات بشتى أنواعها، والتمور والتوابل وغيرها من متطلبات المعيشة الضرورية آنذاك.

لهذا نجد حركة النشاط التجاري في سوق كلباء القديم لم تختلف عن بقية الأسواق من حيث الاستيراد والتصدير، فقد اعتمد على الأسواق المحلية اعتماداً كلياً، خاصة على أسواق الشارقة ودبي بشكل أساسي ورئيس، والنشاط التجاري فيه محدود، لكنه يؤدي احتياجات المدينة الأساسية من المواد الغذائية مثل (الرز والطحين والسكر والقهوة والبر والشعير والسمن والمعلبات الأخرى)، والأقمشة ومواد البناء والمحروقات كالبترول والديزل والكاز والتمور والتوابل وغيرها من الضروريات.

وسائل النقل والمواصلات:

مع بداية نشأة السوق القديم، وفي ظل الظروف الصعبة، وعدم توافر وسائل النقل والمواصلات المتعارف عليها حديثاً، كان النقل والتنقل بين الإمارات في غاية المشقة، وسبباً في ضعف الدورة التجارية وتبادل السلع، ما سبب ارتفاع الأسعار وعدم سهولة توفير كثير من السلع التي تَفسد لطول المسافة ووعورة الطرق، ونقلها على وسائل بطيئة مثل الجمال والمراكب الشراعية وغيرها، إضافة إلى ظروف المناخ

الصحراوي والطرق الجبلية، ما شكل عوائق في حركة التجارة وتبادل السلع والبضائع وغيرها من الحاجات، ومع منتصف الستينيات توافرت وسائل النقل، وكانت محصورة في السيارات ذات الدفع الرباعي كاللاندروفر والبيت فورد، كما يطلق عليها أهالي الإمارات وسكانها (العريبي)، جاءت وسائل النقل هذه مع بداية وجود الشركات الأجنبية التي تعمل في حقول البترول والإنشاء والتشييد، وبهذا بدأت حركة التجارة ونقل البضائع والسلع في ازدياد وبشكل ملحوظ.

العملات التي تم تداولها في سوق كلباء القديم:

الروبية الهندية: تم تداول العملة الهندية في البيع والشراء منذ عام 1951 للميلاد، وبكل الفئات المعدنية والورقية، وذلك بسبب العلاقة التجارية الوطيدة مع الهند، لأقدميتها وحجم التجارة الكبير وتعدد منتجاتها وقوتها الاقتصادية.

الريال السعودي: لم يتم تداول الريال السعودي إلا في فترة قصيرة جداً، لم تتجاوز الأربعة أشهر بدءاً من يونيو عام 1966 بدلاً من الروبية الهندية حتى شهر سبتمبر من العام نفسه (1966).

إصدار ريال قطر ودبي: تم تداول ريال قطر ودبي منذ عام 1966 حتى عام 1973 للميلاد، ومن ثم تم سحبه من الأسواق لقيام الدولة، وإصدار العملة الإماراتية (الدرهم).

المرافق التي خدمت السوق القديم وتعد من الشواهد التاريخية:

قلعة كلباء:

محطة البترول: إن شركة (بي بي) العالمية، وهي إحدى أكبر شركات النفط والغاز في العالم، وتعود علاقة الشركة بالإمارات إلى الثلاثينيات من القرن الماضي، عندما أنشأت شركة خطوط (بي بي) الجوية محطةً لإعادة التزود بالوقود في إمارة الشارقة، لخدمة الطائرات المائية أثناء طيرانها من المملكة المتحدة مروراً بإمارة الشارقة، ومن ثم إلى الهند، وقد كُلف عبدالله بن أحمد الأنصاري، وشريكه محمد عبدالله فكري، نقل وتوفير الوقود (البترول والديزل) من الشارقة إلى كلباء، فكانت أول محطة لشركة (بي بي) في مدينة كلباء، وكان يُطلق عليها شيشة البترول، وسبب التسمية جاءت لأن المضخة في أعلاها إناءان زجاجيان سعة الواحد منهما غالون، وكان يتم شحن البراميل من الشارقة عبر السفن، ويتم إنزالها على شاطئ البحر.

وتوفر الشركة من مقرها الرئيس سيارة مُجهزة بالفنيين وأدوات وقطع غيار، كلما اقتضت الحاجة لعمل الصيانة الدورية خلال السنة.

المقاهي: وبما أن المنطقة يرتادونها كثير من الناس، سواء من المسافرين عبر المدينة أو أولئك الذين يتوافدون من القرى المجاورة ليتبضعوا ويشتروا حاجاتهم المتعددة من المواد الغذائية أو الملابس والأقمشة وغيرها من جهة، ومن جهة أُخرى أصحاب المنتوجات المحلية يقومون بتوريدها وبيعها بالسوق، مثل التمور والحطب والفحم والسمن والعسل والليمون المجفف والغليون. كل أولئِك بحاجة إلى استراحات خلال فتح محال السوق منذ الصباح حتى أذان الظهر، وإعادة فتح المحال عصراً حتى قُبيل الغروب، لهذا نشأت المقاهي لتقديم الوجبات الخفيفة والمشروبات الساخنة والمرطبات التي تم توريدها في منتصف الستينيات.

من المقاهي البارزة مقهى محمد يعقوب البيرق وحارب جمعة الصواية ومقهى إبراهيم عرب، أقدم المقاهي هو مقهى ومطعم تاج محل لصاحبه (جاه جاه) وهو من الجنسية الهندية.

الصيدلية: تتكون الصيدلية من مبنى بسيط، وتقع جنوب القلعة (الحصن)، ويعمل بها صيدلي واحد يقوم بمعاينة المرضى، والأدوية التي كانت تقدم لا تتجاوز الحبوب وحقن البنسلين، وتضميد الجروح وما شابه ذلك في الستينيات، ومع بداية السبعينيات اختلفت الحال، وبدأت الخدمات الطبية فأنشئت العيادات، ومن ثم المستشفيات.

البريد: في الستينيات لم تكن وسائل النقل السريعة متوافرة، وكانت الاتصالات مختصرة على الرسائل البريدية فقط، وكانت الخدمة بسيطة، وفي مدينة كلباء كان هناك صندوق بريد يحمل رقم 6، مثبت على جدار عمارة عبدالله بن أحمد الأنصاري، وبالتنسيق مع بريد الشارقة يتم توفير الطوابع البريدية، ومن ثم تجمع الرسائل الصادرة من مدينة كلباء وترسل إلى الشارقة، والعكس صحيح.

شارع المسيال: وبشكل عام شارع المسيال ترجع تسميته في لسان العرب من سال الماء سيلاً، وهو مجرى يحيط به من الشرق بيت الشيخ سعيد بن حمد القاسمي، رحمه الله، ومن جهة الغرب السوق القديم وقلعة كلباء (الحصن)، لينتهي جريانه جنوباً عند نهاية مصب وادي وسام عند شاطئ البحر، وتعتبر منطقة المسيال هي قلب مدينة كلباء.

الأسواق التجارية وأثرها في النشاط الاقتصادي

«دكان حارب» ذاكرة المكان الاقتصادي في الذيد

د. سالم زايد الطنيجي
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

يعدّ حارب بن مسعود الطنيجي، رحمه الله، أول من بدأ في افتتاح دكان (محل تجاري) في مدينة الذيد، وكان ذلك في الأربعينيات، وتحديداً في عام 1945، أدى هذا المحل دوراً اقتصادياً، وخدمةً لأهالي الذيد في القرن الماضي، وظل قائماً حتى وقتنا الحاضر، ومن هنا نلاحظ أن هذا المحل بلغ عمره 77 عاماً منذ تأسيسه. حارب بن مسعود شخصيتنا في هذا المقال، هو من أبناء الذيد، وينتمي إلى قبيلة طنيج، حيث كان، رحمه الله، رجلاً أميّاً، لكنه كان متسامحاً وصبوراً، وقدّم العون والتساهل والصبر مع أبناء المنطقة، كونه متفرداً في هذا النشاط التجاري، وقد ساعدته الظروف والبيئة المحلية على اكتساب الشهرة، فعرفه القاصي والداني في الذيد وفي المناطق المجاورة.

حارب بن مسعود أميّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان يقوم بربط عقدة في خيط عندما لا يتم الدفع له، والعقدة الواحدة لها دلالة، والعقدتان أيضاً يبدو أنهما المبلغ «× 2»، وهذه العلامات لا يعرفها ألا هو، كان يتحلى بالصبر الجميل، ويقدر ظروف الناس في عدم الدفع النقدي، إيماناً منه بالحالة المعيشية التي يمر بها سائر الناس، من شظف العيش، والأحوال العسيرة، ومن هنا جاء التساهل معهم؛ أي أنه يبيع لهم بالدين، وكما يقول البدو إنه يصبر عليهم لحين توافر المبلغ؛ أي أن البيع يعتمد كلياً على الدين، ما زاد ارتباط الأهالي به، كونه يبيع البضائع الأساسية التي يحتاجها الأهالي.

كان أهل الذيد في القرن الماضي في حلٍّ وترحال، يستقرون صيفاً فيها للمقيظ، لرعاية أملاكهم من النخيل، وفي الشتاء يخرجون منها باتجاه الشمال، وإلى المناطق التي تكثر فيها المراعي لحلالهم، واعتاد البدو المطراش، وهي رحلة من الذيد باتجاه الشارقة، لبيع بعض المواد الموجودة في بيئتهم، مثل الفحم (الصخام)، والذبائح، و(الثمام)، والحطب، وهذا النشاط بمجمله يتطلب جهداً كبيراً، وفي المقابل، يحصل صاحبه على مبالغ قليلة ورمزية كفيلة ببقائه على قيد الحياة، والعيش بعزة وكرامة، فالظروف متشابهة بين الجميع، والأحوال الاقتصادية متدنية، ولكنهم كانوا ذا بأس شديد، وعزيمة عالية، ولا يركنون للراحة والنوم، وما يحصلون عليه من مبالغ يصرفونه على المواد الغذائية، مثل الرز (العيش)، والقهوة والسكر والملح والطحين.

حارب بن مسعود كان يؤمّن لهم المواد الغذائية، والأعشاب الطبية، وكذلك ثمار القرط، التي تجمع من شجرة القرط، والتي تستخدم في دباغة الجلود.

قوافل البدو

كانت منطقة الذيد ممراً للقوافل القادمة من جهة الشرق، وكذلك من الشمال والجنوب، وكان دكان حارب هو المكان الذي يستريحون عنده، وينامون ليلاً بالقرب منه؛ لذلك تحضر بعض القوافل القادمة من الشارقة المواد الغذائية التي طلبها منهم حارب؛ لكي يبيعها في محله، ومن هنا أدّى دكان حارب دوراً اقتصادياً كبيراً في ذلك المكان والزمان، كونه الجهة الوحيدة التي تتوافر فيها المواد الغذائية، وكذلك لأسلوب التعامل الذي تميز به حارب بن مسعود الطنيجي في عملية بيع المواد الغذائية وشرائها ، هذا المحل التراثي أدى دوراً استثنائياً من ناحية الفكرة، كون هذا النشاط لا يوجد في المنطقة، أو كونه محلاً تجارياً بسيطاً بدائياً مشهوراً، حيث حفر لاسمه تاريخاً مشهوراً في هذه المنطقة، وسجلاً فريداً في النشاط التجاري، ورغم البساطة وقلة البضائع، إلا أنه يعد اسماً ذائع الصيت في الذاكرة الاقتصادية في منطقة الذيد، التي أصبحت

اليوم تعج بآلاف الرخص التجارية، لكثير من الأنشطة والبضائع المتنوعة.

دكان حارب عزّز النشاط التجاري، حيث وضع الأساس له، كونه أحد الرواد في هذا النشاط التجاري، ونلاحظ في هذا الزمن المعاصر أن الكثير من الأنشطة الاقتصادية تظهر لفترة زمنية معينة، وسرعان ما تختفي، ولكن دكان حارب أصبح اليوم معلماً تراثياً اقتصادياً، حيث إنه لم يتوقف نشاطه حتى وقتنا الحاضر، ولايزال يؤدي الرسالة التجارية التي اختارها صاحبه حارب بن مسعود منذ القرن الماضي، ويوجد المحل الآن في السوق التراثي بالقرب من حصن الذيد، وبالاسم نفسه، وبشهادة التاريخ، وعين الزمان، والخصوصية التي ميزته في وقتنا الحاضر، هي استمراره في بيع المواد الغذائية، ولاحظتُ شخصياً أن بعض البضائع لا يمكن الحصول عليها من المحال الموجودة في الذيد، ولكن دكان حارب توفر هذه البضائع وبأسعار زهيدة.

عندما نأتي دكان حارب نعود إلى الماضي الجميل، زمن الأصالة والذكريات الجميلة، حيث كنّا نذهب مع الآباء، رحمهم الله جميعاً، إلى هذا الدكان الذي تتوافر فيه حاجات العيش في ذلك الزمن الجميل.

ختاماً، أدّى هذا المحل ذائع الصيت دوراً محورياً في بدايات النشاط الاقتصادي في الذيد في القرن الماضي، فكان المحل الذي لا يُرد المشتري منه خائباً، لعدم الدفع، بل كان عوناً وسنداً لكل من يمر بضائقة، حيث وفر المواد الغذائية من دون دفع نقدي لهذه البضاعة، وعليه يستحق حارب الطنيجي، رحمه الله، الثناء والريادة والتميز، كونه الوحيد الذي جاء بفكرة هذا النشاط الاقتصادي، في زمن يفتقد مثل هذا النشاط، دكان حارب علامة تجارية عرفها أهالي المنطقة الوسطى، وما ساعد على انتشارها المعاملة الطيبة، والصبر على أصحاب الديون مهما تراكمت عليهم، رحم الله حارب بن مسعود الطنيجي، الرجل الإنسان الذي قدّم لأهالي المنطقة معروفاً لن ينساه الزمن على مر التاريخ.

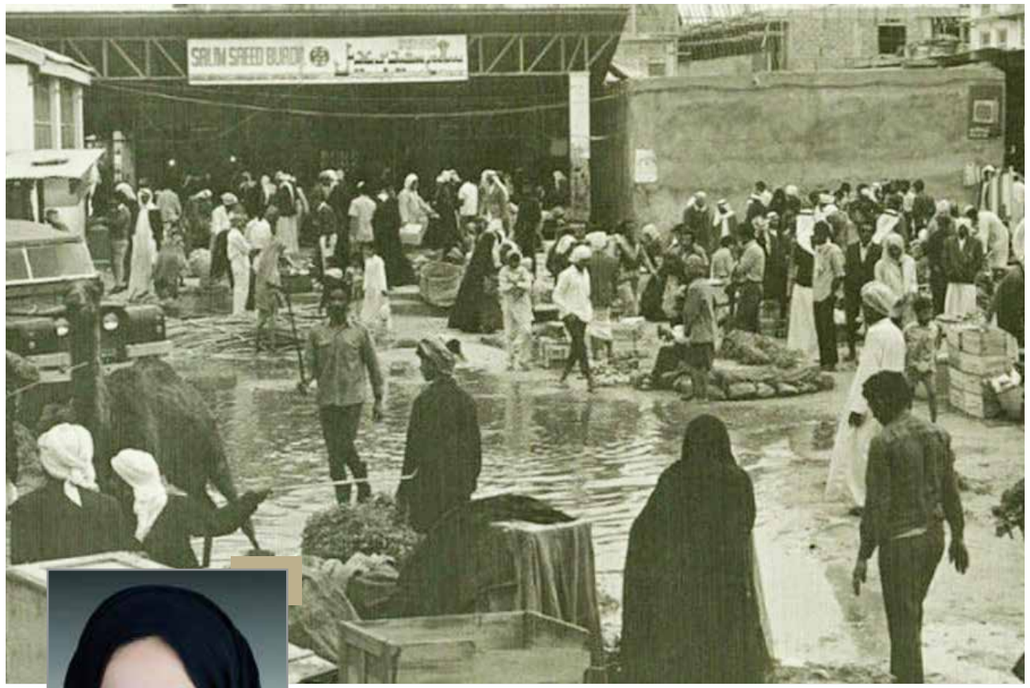

الأسواق التراثية عراقة في الصناعات وذاكرة تنبض بالتراث

فاطمة سلطان المزروعي
رئيس قسم الأرشيف الوطني

لقد امتهن الإنسان التجارة قديماً، ولقد اعتبرت من أقدم المهن التي عرفها ومارسها عبر التاريخ، وكانت الأسواق التاريخية ساحة تبوح بعبق الماضي، وذاكرة مكان تعج بكثير من العادات والتقاليد والثقافة، فقد كان الناس يقصدون الأسواق لشراء حاجاتهم الأساسية، وفيها يلتقي أبناء المجتمع على اختلافهم.

لقد كانت الأسواق قديماً موجودة في الهواء الطلق، إذ يعرضون بضائعهم للمشترين حتى ينفد ما لديهم من البضائع، أو حتى آخر النهار، ثم يغادرون الساحة إلى بيوتهم، وكانت هذه الأسواق قريبة من البحر، ولم تكن الأسواق على النحو الذي عرفناه اليوم، كانت متراصة في مكان يعرفه الناس بميدان الساعة على كورنيش أبوظبي.

قديماً أطلق الناس على كل سوق حسبما كان يُباع فيه، مثل سوق السمك، وسوق القماش والأثواب ولوازمها وغيرها..

كما عرفت أبوظبي قديماً شخصية الحواي، وهو صاحب أحد دكاكين السوق، لكنه كان يعمل على تطوير تجارته من خلال تجواله ببضائعه المتنوعة، من قماش وأثواب نسائية ورجالية في الفرجان، ونظراً لوجود تلك الأسواق وقربها من البحر، كان من الطبيعي أن يتم استثمار هذا التكوين الجغرافي، من خلال ميناء صغير كانت تباع فيه القهوة والأقمشة والزعتر والأدوية الشعبية والبهارات وغيرها، بأثمان أقل قليلاً مما هي عليه في الأسواق الرئيسة، ومن أشهر تلك الأسواق الذي كان مركزاً للبدو، حيث كان سعر الخروف قبل عشرات السنين لا يتجاوز الـ30 روبية هندية، وكان هذا السوق يزدهر قبيل حلول عيد الأضحى بأسبوع واحد، فقد شكلت الأعياد موسماً تقليدياً لبيع المواشي، كما كان البدو يسيطرون أيضاً على سوق الصخام (الفحم)، أما سوق السمك، فكان مسرحاً للتعامل اليومي بين الناس في ظل توافر أنواع عديد من الأسماك الطازجة، وبأثمان زهيدة، ومن أكثر ما كان يلفت الأنظار في هذه الأسواق ذات الدكاكين الصغيرة المتراصة والمبنية من الحصى والجص وسعف النخيل، حركتها الدائبة، فالإبل تنقل المنتجات إلى السوق، والنساء والرجال يبيعونها، إلى جانب الدوار الذي يبيع العطور التقليدية وأدوات الزينة التي كان يضعها في صندوقه الخشبي الذي يحمله على ظهره، وقد كان هذا المشهد مرتبطاً بحركة السفن الصغيرة التي كانت ترسو مقابل تلك الأسواق، لعرض أنواع مختلفة من المواد وبيعها، كالسكر والأرز والدقيق، وقد وفرت السلطات حراسة لتلك الأسواق.

وفي نهاية الستينيات، بُني سوق أبوظبي القديم الذي كان موجوداً إلى جانب مسجد الشيخ خليفة، وكان هذا السوق أحد أهم أسواق المدينة، فقد كان ذا واجهة تراثية، ونوافذ وممرات مسقوفة، وساحات صغيرة، وكان السوق مؤلفاً من طابقين، فيهما متاجر الخضراوات واللحوم والفاكهة، وعلى مقربة منه مكان يعرف باسم سوق الهنود الشعبي، الذي كانت متاجره صغيرة، وفيه كانت تعرض الأقمشة والبهارات والذهب والحناء والجلديات والعباءات النسائية، وفي شارع النصر وسط العاصمة، يوجد سوق التحف، حيث توجد المحال التي تباع فيها التحف المصنوعة من الفضة والنحاس والمناديس (الصناديق)، والسجاد والمفارش، وكذلك الحلي والآلات الموسيقية والخناجر والسيوف.

قبل الأربعينيات في القرن الماضي لم يكن في العين أو المدن التابعة لإمارة أبوظبي أسواق، وكان الجميع يعتمد في شرائه على أسواق البريمي، فكانت أقدم الأسواق التاريخية التي عرفت في تاريخ الامارات في مدينة العين، وكانت أولى تلك المحاولات لفتح سوق في مدينة العين في الأربعينيات، إضافة إلى سوق آخر في قرية القطارة، وكان الناس قبل ذلك يعرضون بضاعتهم تحت شجرة كبيرة معمرة في إحدى الساحات، وكانت تعرف بقرطة غزول، وفي الأربعينيات

تم تشييد ثمانية حوانيت، إضافة إلى عدد قليل منها في منطقة القطارة، وكان يطلق عليها سوق الكركم، ولكن هذه الحوانيت لم تكن تفي بالغرض الذي بنيت من أجله، ما جعل سكان العين يعتمدون في شراء حاجاتهم على الأسواق المجاورة، ولكن ما بناه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، عام 1957 هو الذي يمكن أن نطلق عليه اسم سوق، ويشير بكماستر في عام 1958 إلى أن افتتاح السوق الجديد بالعين في صيف 1958 كان الحدث الأكثر أهمية، ويقول إن الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، موّل المشروع بالكامل، ومع أنه كلف أكثر من 100 ألف روبية، إلا أنه لم يتقاض أي إيجار من الدكاكين التي يصل عددها إلى خمسة وعشرين دكاناً في السوق الذي بني في صفين متقابلين على شكل شارع مغطى، لا يسمح بمرور السيارة، ولم تقتصر جهود الشيخ زايد، رحمه الله، في توسعة التجارة بالعين على بناء سوق تجارية هناك فقط، وإنما إلى أهمية توسيع نطاق العمل التجاري، وجذب تجار وزبائن من المناطق الأخرى، ولذلك قام أيضاً بتوسعة سوق القطارة، ويرجع تاريخه إلى ثلاثينيات القرن الماضي، ذكرى خاصة لسكان مدينة العين، حيث كان يمثل لهم ملاذاً من عناء التوجه إلى مدينة البريمي المجاورة لشراء حاجاتهم، فكان مصدراً لتأمين حاجاتهم من المواد الغذائية كالأرز والطحين والسكر والتمر والبهارات والصابون والألبسة بأنواعها، وغير ذلك من المستلزمات التي كان يجلبها التجار من دبي وأبوظبي، وهذا السوق كان محط اهتمام ورعاية المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، حيث كان يتفقده عادة ضمن جولاته على الواحات، وكان يطلق على سوق القطارة القديم اسم «كركم»، والمنطقة تعرف بحارة الرقعة، وكان سوق القطارة القديم بمثابة سوق يخدم منطقة القطارة والجيمي.

وكانت العملات المستخدمة في هذا السوق عبارة عن الروبية الهندية التي تعرف بـ«أم بانيان» و«الريال الفرنسي» و«البيزة» و«البرغش»، وهي بيزة سلطان عمان برغش بن سعيد ونصف درهم نحاس، و«محمدية»، وكانت تساوى بيزات عمانية، و«القروني» ويساوي أربعاً وعشرين بيزة عمانية، ومن ثم جاء الريال السعودي، وكانت الروبية أحياناً تصل قيمة صرفها ومبادلتها إلى أقل من الريال الفرنسي، وكان الريال الفرنسي في الأغلب يساوي روبيتين ونصف الروبية، حيث إن هذا ثمن وقيمة وزن الفضة التي فيها. ولم يكن هناك نشاط في العين يمكن أن يعتد به كمصدر رزق، سوى تلك التجارة البسيطة التي يمارسها أبناء العين، وهي تجارة قوامها بيع اللومي «الليمون» والصخام والهمبا (المانجو) والثمر وشراء الحبوب والقماش والطحين.

وقد كان السوق القديم في العين المركز الوحيد لهذه التجارة البسيطة، حيث يذهب التجار من أبناء العين في رحلة شاقة إلى دبي أو أبوظبي، وتستغرق الرحلة من خمسة إلى سبعة أيام، يسقط خلالها بعض الرجال أو الركاب صرعى في الطريق، إما بفعل حرارة الشمس ولهيبها، أو بسبب قطاع الطرق الذين كانوا ينتشرون في المنطقة، بسبب غياب الأمن، وحدّة الفقر وشظف الحياة، ولكن عندما تولى الشيخ زايد، رحمه الله، مقاليد الحكم في إمارة أبوظبي عام 1966، تغيرت هذه الصورة، وشملت مظلة الأمن الجميع.

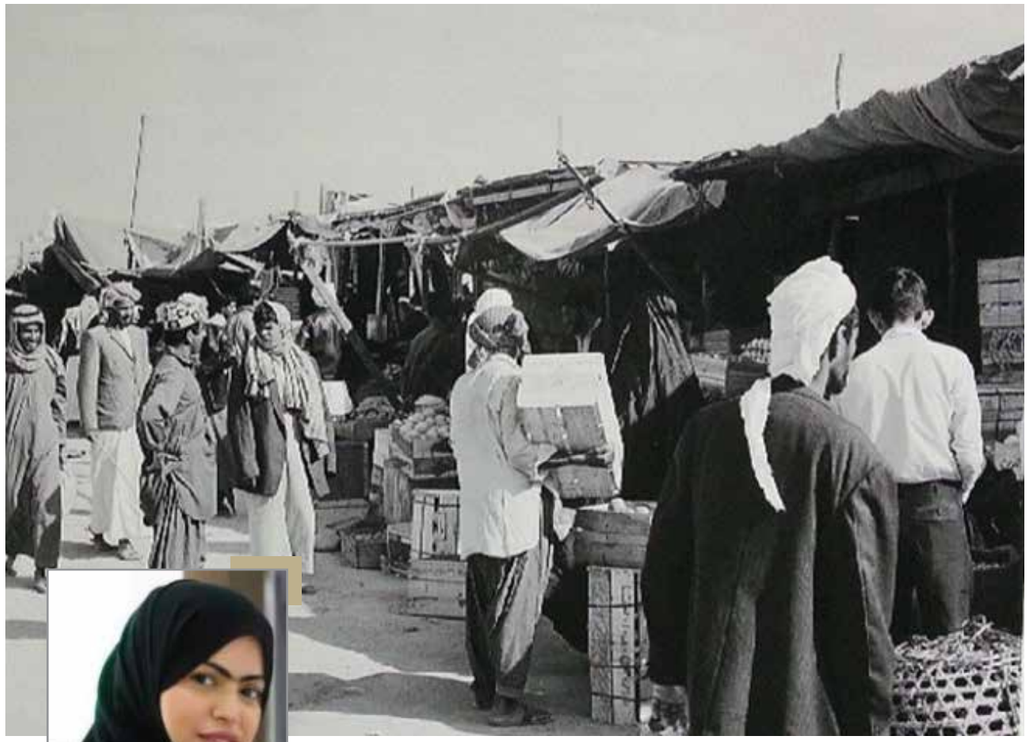

مريم سلطان المزروعي
كاتبة - الإمارات

سوق أبوظبي..
حكايات تسردها أفواه الرواة

إن الأسواق تعدّ من أهم المرافق الحيوية في الدول والمدن، فهي أماكن يتجمع فيها الناس لشراء حوائجهم وقضاء أوقات طيبة وجميلة، وللتسامر خلال وجودهم ما بين المحال والدكاكين والمقاهي التي توجد في الأسواق، فالتجارة من أقدم المهن التي مارسها الإنسان، وهي تلبي حاجته المعيشية الضرورية، التي تقوم على نظام المقايضة، وتبادل السلع بين الناس، كما عرفت منطقة الخليج التجارة منذ القدم، وقد اكتشفت في العديد من المدن القديم، كما كانت هناك طرق محددة ومعروفة للقوافل التجارية، يعرفونها ويميزونها في هذه الصحراء المترامية الأطراف، لم تكن هناك أسواق ثابتة، أو فيها دكاكين.

كانت حياتهم بسيطة وللطبيعة جمال أخّاذ، يتعلمون بأنفسهم أو بمراقبة آبائهم في مهنة أو حرفة أو مهارة، يترزقون منها وبالتالي مهنة أو حرفة متوارثة وكل واحد منهم يبيع ما لديه في الأسواق. أسواق مدينة أبوظبي من الأسواق القديمة التي تمتاز بالبساطة والاعتماد الكلي في البناء على الدعون وجذوع النخيل.

من بين الروايات الشفهية التي سُردت في سلسلة كتاب «ذاكرتهم تاريخنا»، ما ذكرته الوالدة رفيعة محمد الخميري، في الجزء الثالث من السلسلة: «كان سوق أبوظبي عبارة عن مجموعة من الدكاكين المبنية من الجص والحصى، ولم نكن نعرف الطابوق، والباعة كانوا يضعون بضائعهم أمامهم، أو تكون مغطاة باليوانين، وكان الباعة وأصحاب الدكاكين من جنسيات مختلفة يبيعون الحلوى كالملبس ويسمونه (بيض الصفصوف)، وهو العصفور صغير الحجم أبيض اللون، وكان يبيعه لنا بائعٌ اسمه أسد، وكنا نناديه: (أسوده)، و(فولي) و(حاجيه)، وكان يبيع لنا الحلوى و(المنفوشة)، وكان في السوق محل للحدادة صاحبه اسمه حسين الحداد، ونسميه (حسون) الحداد، وحسون الريم كان يبيع الكاز (الكيروسين) والدهن الذي كانوا يسمونه (باسَتّيه)، وكنا نشتريه ونضعه في أكياس، ولم يكن يباع بالوزن، وإنما بكيس، أو نصفه، وهكذا، ولا ننسى النساء اللواتي كن يبعن السمك في فريجنا، منهن: هداية بنت عيد السويدي، وكان الناس يسمونها: راعية البطين، وعوشة خادم المهيري، زوجة محمد العريفي المرر، وآمنة بنت غابش الشامسي، وهداية بنت عبيد الخميري، ونساء من منطقة البطين كن يبعن السمك بالمشجاج أو المشكاك الذي يكون به أسماك متنوعة، مثل: الهامور، وبنت النوخذة وغيرهما، وكان المشجاج للأسماك الصغيرة الحجم، التي تسمّى (البق) من أنواع السمك من فصيلة الهامور، أما الأسماك الكبيرة فيتم صيدها بالحداق (الصيد بالصنارة (الميدار)، وهو حديدة معقّفة في طرف خيط».

بينما لوالد محمد علي النايلي الشامسي، في الجزء 3 من سلسلة كتاب «ذاكرتهم تاريخنا»: «كانت أسواق العين بسيطة، وكانت دكاكينها مغطاة بالدعون من

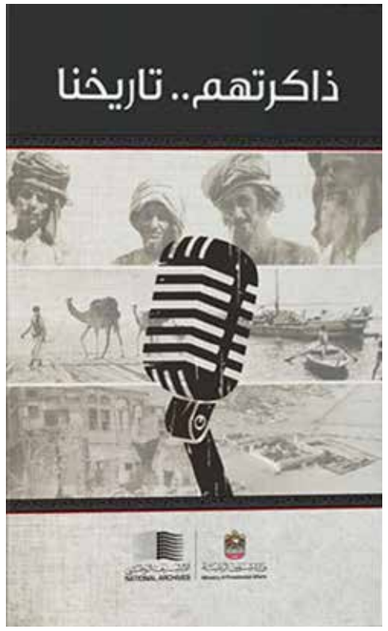

الأعلى، كما أن سوق العين القديم مكانه عند سوق السمك الذي كان وسط العين، وشرق سوق الذهب، في حي قبيلة النواصر في الماضي؛ إذ كانت بيوت النواصر هناك، نصف بيوتهم كانت من النخيل، والنصف الآخر كان خارج النخيل، في الماضي لم تكن خارج مدينة العين؛ فأغلب أهل العين كانوا يسكنون داخل المدينة، وكانت بيوت الكويتات شمال الحصن التراثي القديم، كانت بيوتاً قديمة من جريد النخل، وبعدها صحراء وكان ذلك أتوقع سنة 1958 و1959م». ويذكر الشيخ حمد سلطان محمد الدرمكي، في الجزء 2 من السلسلة: «الأسواق كان لها مكان محدد، بُنيت في مناطق معينة، كسوق القطارة القديم، أسسه الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان – رحمه الله – في بداية الثلاثينيات، وكان مبنياً من سعف النخيل وجذوعه، وكانت تصنع فيه الصناعات المحلية المختلفة التي تلبي حاجة أهالي المنطقة؛ ولذا كان الشيخ زايد – طيّب الله ثراه - شديد الاهتمام به، ولفظ الإرث الثقافي وديمومته بناءً على طبيعته التراثية؛ لذلك رُمّمَ السوق، وأجريت له بعض التعديلات البسيطة، وأيضاً سوق العين القديم، أذكر روائحه الجميلة المحملة بالتوابل، وكان يتوافر فيه كل

شيء من الصناعات التقليدية والأدوات الخاصة بتربية الإبل، وتدريب الصقور والاعتناء بها، وكنا نجد في السوق الحرفيين الذين يعتزون بحرفهم المحلية التي يصنعونها، فيكونون في قمة السعادة والاستمتاع، ونرى الابتسامة على وجوههم، وكانت هناك صناعة الخناجر، التي يحتاجون إليها بمفردهم، وبالاستفادة من الطبيعة، ولكن للأسف أُزيل هذا السوق ولم يبق منه شيء». بينما ذكرت الوالدة فاطمة علي سلطان الهاملي، في الجزء 2 من السلسلة: «كانت هناك محال من عرشان على البحر في أبوظبي، وكان عندنا تجار هنود (باثْبان)، وكانوا يحضرون من الهند الكاز في مراكب إلى دبي، والأرز والثياب مثل صالحني (ثوب من قماش حريري)، وشيل الندوة، والوزرة (الإزار الذي يلفه الرجل حول وسطه)، وزجاجات زيت جوز الهند، وعطر بوطيرة، والمحلب، والزعفران والعنبر، والشودار، جميعها تأتينا من الهند، وأيضاً من البحرين والكويت، ولم تكن لدى الناس تجارة، بل كانوا يذهبون إلى الهند وإلى اليمن، ويأتون بالتجارة منها، وبعد ذلك أتتنا التجارة من البحرين ومن الكويت، كما ذهب بعضهم للعمل في قطر».

تقول والدتي أم علي المزروعي: «كنا نعيش بالقرب من قصر الحصن، وبعدما أسس المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان – طيّب الله ثراه - مدينة بارهوز، انتقلنا للعيش فيها، كانت أبوظبي عبارة عن عرشان وخيام، والذي يميزها قصر الحصن بضخامته وشموخه، والسوق القديم ليس بعيداً عنا، فكان يقع بين قصر الحصن ومدينة زايد حالياً، مصنوعاً من الخيام والعرش والظليل، وكانت الصناديق مملوءة بأغراض الباعة المنتشرة والواضحة من دون أن يأخذ أحد منها شيئاً، وكذلك النساء كن يعملن على بيع الأسماك ومعظمهنّ من قبيلة الرميثي، كن يبعن الحناء والدخون الذي يملأ به الجفير أمامهن، وفي الصباح الباكر كانت تستخرج الحاجات، وتُعرض أمام كل بائع. والرجال يبيعون الأسماك والأغنام، والجِمال وأعلاف الحيوانات من أشجار القرم (المنقروف) والصخام، ومحَالُّ غلوم وحاجي، كنا نشتري منها حاجات المنزل من مُؤن غذائية وغيرها، الأسواق في الماضي لم يكن لها مكان ثابت، وإنما فضاء واسع يتجمع فيه الباعة؛ حيث يختار كل بائع أو بائعة مكاناً على الأرض، يفترش المكان ويضع حصيرته وينقل أغراضه عليها، حيث يقبل الناس عليه ويبتاعون ما يحتاجونه من السرود والمهاف والحصير والمواد المستخدمة في صنع المنازل والغرف والعرشان، وفي أواخر الستينيات أذكر السوق جيداً، فقد كان خلف البنوك، والسكيك كانت ضيقة، والسوق بدا عليه بعض التطور، ولكن ليس مثل الأسواق الحالية، ومن بين المحال التي كانت موجودة محل عبدالله حسين خنجي، ومحمد رسول خوري، كما كانت هناك بضائع يتم جلبها من الهند وفارس والعراق وشرق إفريقيا، وبالأخص زنجبار والأحساء، وأسواق دبي، كالأرز والبهارات والهال والسكر والزعفران».

إن الأسواق الشعبية كانت لها نكهة خاصة، ومكاناً يرتاده الأصدقاء والأصحاب لمزاولة الألعاب، كلعبة الورقة والكيرم وإلقاء الشعر، والحديث عن أخبار الأهل والأصحاب والجيران، ولسماع القصص؛ لذلك يمكن القول إنها بمثابة محطة لقوافل التجارة القادمة عبر الصحراء بوساطة الجمال والإبل المحملة بالدهن والخشب والفحم، وأيضاً القادمة عن طريق البحار بوساطة السفن.

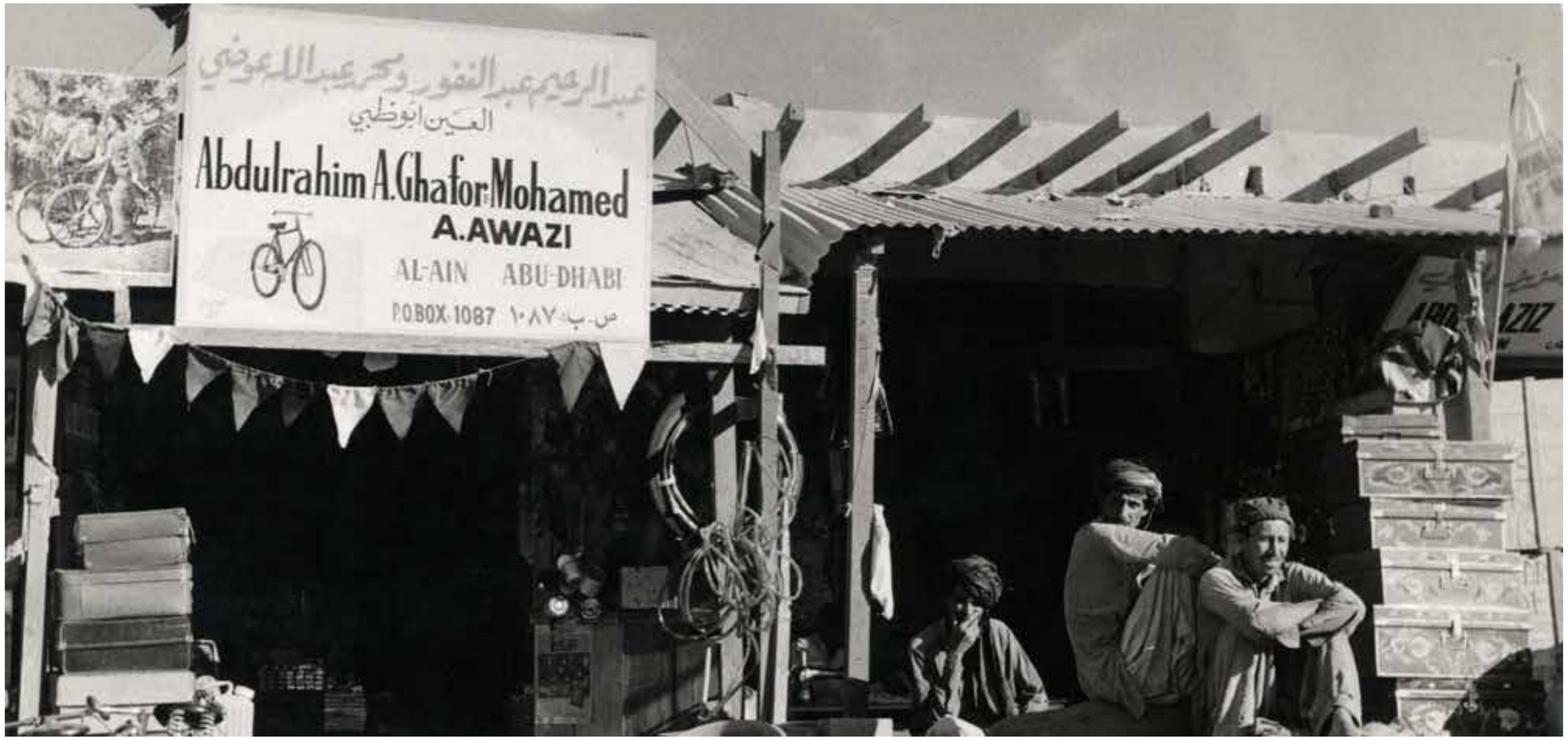

سوق العروصة بالشارقة

د. عادل الكسادي
مدير التعليم المستمر
معهد الشارقة للتراث

تجارة السلع ودورها في ازدهار الأسواق المحلية

ترتبط موانئ الإمارات خاصة، وموانئ الخليج العربي عامة، بعلاقات تجارية فيما بينها وبين موانئ المحيط الهندي في بحر العرب والسواحل وموانئ الهند الغربية. وكانت التجارة الإقليمية تعتمد في بعض مكوناتها على سلع ومحاصيل يتم إنتاجها في المنطقة، وقد شكلت تلك السلع وخاصة سلعة الغليون والتمر والليمون، وكذا الجمال والماعز والأغنام والأسماك ومنتجاته، والحطب والسخام... إلخ، دوراً بارزاً في نمو الأسواق المحلية والنشاط التجاري لموانئ الإمارات خاصة، وموانئ الخليج وبحر العرب والمحيط الهندي بعامة.

وكما لعبت أسواق موانئ ساحل الإمارات الشمالي والغربي دوراً في النشاط التجاري واستيراد السلع وتصديرها، فقد لعبت أسواق الساحل الشرقي أيضاً دوراً رئيساً في تصدير السلع التي ينتجها مزارعو الساحل الشرقي وبدو جبال الحجر الغربي، وخاصة تصدير سلع الغليون والليمون والماعز والأغنام، وكذلك الأسماك المجففة والمملحة إلى موانئ دول الخليج في البحرين والكويت والبصرة، وموانئ السواحل وساحل الهند الغربي، كما كانت الإمارات تستورد العديد من السلع المتنوعة من البصرة وساحل فارس والموانئ الغربية للهند وموانئ شرق إفريقيا (السواحل)، وأهمها السلع الغذائية كالأرز والبهارات والملابس والأخشاب والجندل والباسجيل والحبال وغيرها من السلع الضرورية والاستهلاكية.

كانت التجارة نشاطاً اقتصادياً مهماً لسكان الإمارات منذ عقود طويلة، على مستوى الموانئ الداخلية وبينها وبين موانئ وسواحل الخليج العربي، وقد تناول الرحالة والمستشارون الإنجليز النشاط التجاري التقليدي لأهل الإمارات. وذكر الرحالة بلجريف في زيارته للشارقة التي زارها في 16 فبراير عام 1863، الأهمية الاقتصادية التي كانت تحتلها المدينة، وعدّها من أهم مراكز النشاط التجاري في المنطقة، فيقول: «لقد صارت هذه المدينة بالنسبة لغربي عمان تماماً كما صارت لنجة خلال السنوات الأخيرة بالنسبة للساحل الفارسي المقابل؛ أي مركز تصدير واستيراد، ونقطة تلتقي عندها طرق التجارة البرية والبحرية العديدة، وتتفرق بعد ذلك في جميع الاتجاهات، ومن البدع إلى رأس مسندم، وإلى ما وراء ذلك الرأس، لا يوجد ميناء ذو أهمية كبرى أو سوق عام آخر أو مركز للتجارة».

ويتحدث بلجريف عن طبيعة النشاط الاقتصادي في الشارقة، فيقول: «إن كل مصنوعات غربي عمان تأتي إلى سوق الشارقة، سواء الصوف أو القطن أو المعادن، وهنا السوق الرئيس لبيع الجمال والحمير، هنا أيضاً سوق العبيد الرئيس في الجزء الداخلي من الخليج». ويضيف بلجريف «من خلال الشارقة بشكل أساسي تتلقى المناطق المجاورة سلع فارس والهند، حيث يتم إنزالها من السفن هنا وتوزيعها بعد ذلك على مناطق واسعة، ويعطي هذا التدفق التجاري المستمر للشارقة طابع نشاط وثراء لا يوجد في أي ميناء عربي آخر على الجانب الجنوبي».

وكان ميناء لنجة على الساحل الإيراني مركزاً تجارياً نشطاً، ولكن عندما أحس التجار بوادر الانتعاش التجاري على الساحل العربي، قدموا إلى دبي، وعرضوا رغبتهم في نقل تجارتهم إليها، وبتشجيع من حكام دبي

الأسواق الشعبية في الشارقة

سوق دبي في الخمسينيات من القرن الماضي.

استطاع التجار، وجلهم من منطقة (بستك)، أن يقيموا تجارة حقيقية وأسهموا بفاعلية في النهضة التجارية للأسواق على مستوى الإمارات كلها.

لقد سيطر الأجانب منذ عصر الغوص على التجارة الخارجية والداخلية، إلى جانب عدد من التجار المحليين، ويشكل التجار «البانيان» أو الهنود أهم الفئات التجارية، ويتوزعون على مختلف مدن الإمارات، ويقدر عددهم في بداية القرن العشرين بخمسين هندياً في دبي، وبين 15-20 في إمارة الشارقة، ويصلون في أبوظبي إلى 20 تاجراً، وهؤلاء يمارسون تجارة المواد الغذائية والأقمشة واللؤلؤ.

وتعدّ دبي من أكبر موانئ المنطقة، وهي ميناء استراتيجي فعّال منذ بدايات القرن العشرين، ولتنوع أسواقها كانت السفن والمراكب التجارية تصل إليها محملة بأنواع البضائع، كما تتمكن تلك السفن من شراء احتياجاتها من السوق المحلي. وكان التجار الإيرانيون يمثلون النسبة الكبرى من طبقة التجار، وكانوا يديرون تجارة الأقمشة والأطعمة وحوائج الناس الاستهلاكية في الأسواق. ويقسم ناصر بن عبد اللطيف السركال التجار الإيرانيين، بحسب مناطقهم ونشاطهم التجاري، إلى فئات عدة، هم: البستكية، واللارية، والعوضية، والكراشية.

وكان التجار (البستكية) هم المتضلعين في الاستيراد كتجار كبار، منهم: التاجر عبد القادر محمد عباس، والتاجر محمد فاروق، والتجار آل كاظم، وجميعهم كانوا يتعاملون في تجارة اللؤلؤ، حيث يشترونه من المواطنين، ويبيعونه في الهند أو أسواق خارجية أخرى، ويستوردون الأطعمة والأقمشة وما تحتاج إليه البلاد على مستوى الإمارات من مواد استهلاكية ضرورية ومواد كمالية.

و(العوضية) كانوا متخصصين في (الخرازي)؛ أي تجارة المواد المتنوعة (كالأمواس والمقصات والمرايا) وغيرها من الكماليات الأساسية اللازمة، وكانوا يبرزون بضائعهم على الشوارع في الأسواق.

أما (اللارية) فكانوا مستوردي الأطعمة وبائعيها، كما كانوا متخصصين أيضاً في تجارة (الزل)؛ أي السجاد والمفروشات الإيرانية.

و(الكراشية) هم أصحاب البقالات، وصناع الحلويات، وإلى جانب هؤلاء التجار كان هناك عدد من التجار الكويتيين وأبناء الزبير في العراق، وهؤلاء كانوا متخصصين في الاستيراد وبيع التمور والحبوب من العراق.

وتكونت في دبي فئة من التجار الكبار، وهم المستوردون للبضائع الاستهلاكية المتنوعة، ومنها البضائع الغذائية والملبوسات وغيرها من البضائع التي يحتاجها السوق المحلي، وتلبي احتياجات السفن العابرة القادمة إلى الميناء، ومن التجار المشهورين الذين برزوا على الساحة التجارية في النصف الأول من القرن العشرين، التجار الإيرانيون والهنود ومنهم: التاجر عبد القادر والتاجر فاروق والتاجر بوخش والتاجر محمد عبد الله عباس والتاجر البدري والتجار الهنود من أمثال جيتا وكنشام وولم وغيرهم وأغلبهم كانوا يعملون في بر دبي.

وكما كانت الشارقة ودبي مركزين تجاريين للتجارة التقليدية داخل الإمارات وخارجها في أواخر القرن التاسع عشر، والعقود الستة الأولى من القرن العشرين، فكذلك كانت إمارة عجمان، تحتل مكانة خاصة في التجارة الداخلية والخارجية لإمارات الساحل.

كانت تصل إلى عجمان سفن تجارية كبيرة من البصرة وكراتشي وإيران والبحرين والهند، وهي محملة بالتمور وأنواع أخرى من المواد الغذائية والأقمشة وغيرها، وبذلك كانت عجمان شبه مركز تجاري حر؛ لموقعها المتوسط بين دبي والإمارات الشمالية. وكان كثير من تجار تلك الإمارات يفدون إلى عجمان لشراء البضائع لمحالهم، واستمر الحال كذلك حتى الأربعينيات من هذا القرن.

كانت «العرصة» وهي المنطقة أو الساحة التي كانت تمتد أما مسجد «آل قرقاش» سوقاً تجارياً شعبياً مركزياً كبيراً، تشهد منذ الصباح الباكر زحمة جماهيرية تتعامل في البيع والشراء، وفيها كانت تصطف قوافل الجمال المحملة بالتمور والفحم والخضراوات وغيرها من منتجات المناطق الزراعية والصحراوية في الإمارات المجاورة وحتى عجمان.

وكان في عجمان سوق كبير للأقمشة والأغذية وتجارة اللؤلؤ، لكن المواطنين اقتصروا على تجارة «الجملة» إلى جانب تجارة اللؤلؤ، وتولى العجم وبعض التجار الهندوس تجارة «المفرق»، إذ اعتبر المواطنون البيع والشراء فيما عدا اللؤلؤ والجملة عيباً، ذلك أنهم كانوا قبائل شغلتهم الفروسية، وحين قدموا من البريمي وحفيت إلى عجمان وغيرها من المناطق الساحلية، ارتبطت حياتهم بالبحر.

تجارة التمور في موانئ ساحل الإمارات:

تعدّ تجارة التمور من الأنشطة التجارية المهمة في الإمارات، حيث كانت دبي تشتهر بسوق كبير لتجارة التمور، وإليها كانت تصل العديد من السفن ذات حمولة بين ألفين وألفين وخمسمئة طن، وعلى متنها كانت تأتي التمور من البصرة والقطيف وإيران، ليباع جزء كبير منها للاستهلاك المحلي في دبي والإمارات الشمالية، والجزء المتبقي لإعادة التصدير إلى الخارج.

وكان التمر أكثر الموارد الغذائية استهلاكاً في المنطقة، ويذكر الحاج بدر عبيد البدر الذي امتلك دكاناً لبيع التمور في سوق دبي لفترة ثماني سنوات بأن دبي كانت سوقاً مركزياً كبيراً لتجارة التمور، وأن خور دبي لم يخلُ يوماً من 4، 5، 6 أبوام محملة بالتمر من البصرة في العراق، وخاصة في فصلي الشتاء والربيع وحتى الصيف، وكانت البصرة تمد الخليج كله بالتمر، وكذلك كان شأنها مع الهند وإفريقيا.

كما كان التمر يصل كذلك من إيران والباطنة، ومنها كان يأتي التمر «المخلدي»، ومن البريمي وضنك كان يصل التمر «الفرض» و«الخنيزي»، ولكن ليس بكميات كبيرة، فالاعتماد الأساسي كان على التمر البصري.

وكانت تجارة التمور في منطقة الخليج ترتبط برحلات السفن الشراعية وبالموسم التجاري الذي يبدأ في الخريف (تشرين الأول/ أكتوبر)، ويأتي متزامناً مع موسم آخر هو موسم (الثمرة) أو نضج التمر في جنوب العراق. ويلعب التمر من حيث هو سلعة غذائية رئيسة دوراً مهماً في تجارة المنطقة. وكانت تتحدد أسعاره في (بورصة التمر) التي تعقد في بداية الموسم، إما في البصرة أو في أبي الخصيب.

وقد رصد المستشار البريطاني (لوريمر) في بداية القرن العشرين واقع النشاط التجاري للتمور في إمارات الساحل المتهادن، وضعف كميته؛ بسبب قلة الإنتاج وعدم كفايته للسكان، فيقول «لا تكاد تفي التمور القليلة المنتجة في عمان المتهادن بحجم الطلب الكبير عليها من الأهالي الكثيرين نوعاً ما، والذين يعملون بصيد اللؤلؤ. وفي خلال السنوات الست الواقعة ما بين عامي 1899-1900 ولغاية 1904-1905، كانت التمور وعصيرها تستورد بمعدل له قيمة سنوية تزيد على 20.000 جنيه إسترليني، وذلك من الموانئ الفارسية ومن العراق تحت الحكم التركي على الأكثر».

ويلعب الإنتاج المحلي للتمور دوراً مهماً في استهلاكه وتجارته محلياً وخارجياً، وقد حالت وسائل النقل من عمليات تصدير منتجات النخيل من الرطب الطازج في بداية موسم نضوج التمر، وعلى الرغم من ذلك، فإن كثيراً من المزارعين سعياً منهم لأسعار أفضل في أسواق المدن الساحلية، وخاصة مع بداية (البشرة)؛ أي نضوج الثمار كانوا يصدّرون جزءاً من منتجاتهم

إلى تلـك الأسـواق. فـكان مزارعـو رأس الخيمـة ورؤوس الجبـال والفجـيرة والمنطقـة الشرقيـة يصـدّرون جـزءاً مـن منتجاتهـم في جوالبيـت أو شـواحيف لتسـويقها إلى السـاحل، وتسـمى هـذه العمليـة (يـداد).

أمـا أهـالي (الحيـور)، وهـي القـرى الزراعيـة، فإنهـم ينقلـون الرطـب عـلى الحمـير والـركاب، وتحمـل عـادة في (وخائـف) وهـي (خصافـة) أو أكيـاس صغـيرة مصنوعـة مـن السـعف، وتحمـل الواحـدة منهـا بـين كيلوغرامين وخمسـة كيلوغرامـات، ويجمعـون الوخائـف تلـك في (اليـواني)؛ أي الأكيـاس بواقـع 20 إلى 30 وخيفـة في كل يونيـة.

أمـا أغلـب الكميـات المنتجـة مـن التمـور، وبعـد تجفيفهـا وتنقيتهـا وتصنيفهـا، يتـم نقلهـا إلى أسـواق التمـور المشـهورة في المـدن السـاحلية بوسـاطة القـوارب الشراعيـة أو عـلى ظهـور الحمـير والجـمال، وفي الأسـواق تخـزن في (بخاخـير)؛ أي مخـازن كبـيرة مخصصـة ليتـم تسـويقها عـلى المسـتهلكين المحليـين وعـلى سـفن الغـوص، أو للتصديـر إلى إفريقيـا والهنـد وأطـراف اليمـن.

ولا تقتـصر مصـادر تجـارة التمـور عـلى المنتجـات المحليـة فحسـب، بـل كانـت سـفناً ضخمـة تـتردد عـلى موانـئ الإمـارات وخاصـة دبي، تسـتورد لهـا التمـور مـن البـصرة والقطيـف، ومـن سـاحل الباطنـة في عـمان، وكذلـك مـن ميناو الإيرانية. وأشـهر أسـواق التمـور وأكبرهـا كانـت في دبي، كـما ذكرنـا سـابقاً، وأشـهر مسـتورد تمـور في البـلاد كان مرشـد العصيمـي، بينـما أكـثر مـن اشـتغل في تجـارة التمـور بـدبي مـن أهـالي نجـد أمثـال الشـيخ منصـور وابـن خشـيبان والهيـدان والشـنيفي والمشـعي، إلى جانـب عـدد مـن التجار المحليـين في دبي، ومـن أبرزهـم التاجـر سـالم بـن عـلي العويـس، بينـما لم تخـل أي إمـارة مـن سـوق كبـير للتمـور.

وقـد كانـت سـفن الغـوص تسـتهلك أكـبر الكميـات مـن التمـور إذا كانـت السـفينة الكبـيرة تسـتهلك في اليـوم مائـة كيلوغـرام عـلى الأقـل. ولم تكـن الكميـات التـي تحملهـا السـفن في بدايـة رحلتهـا تكفـي، بـل كانـوا يتـزودون عـادة أكـثر مـن مـرة مـن أبوظبـي أو دلمـا، كـما أن هنـاك العديـد من القـوارب الشراعيـة الكبـيرة التـي كانـت تنتقـل بـين الموانـئ، وبـين مغاصـات اللؤلـؤ، حيـث تنتشـر سـفن الغـوص، وتبيـع لهـا التمـور والميـاه والحطـب، فكانـت بمثابـة أسـواق متنقلـة.

وفي الشـتاء كانـت هنـاك قرابـة مائتـي سـفينة تحمـل التمـور مـن موانـئ الإمـارات للخـارج إلى جانـب السـفن التـي كانـت تـأتي مـن الهنـد وإيـران وتشـحن التمـور إليهـا.

وعـن أسـعار التمـر يذكـر بـدر بـن عبيـد البـدر بـأن الأسـعار لم تكـن مرتفعـة، إذ كانـت القلـة الواحـدة تبـاع بروبيـة أو روبيـة ونصـف الروبيـة، وهـي تحمـل 12 منـاً؛ أي 48 كيلوغرامـاً، ثـم صعـد السـعر ليصـل إلى خمـس وسـت روبيـات للقلـة الواحـدة.

وكانـت أكـبر الكميـات تبـاع لسـفن الغـوص، فالكبـيرة منهـا كانـت تحمـل في كل موسـم مـن 120 و150 أو 200 قلـة مـن التمـر، في حـين تحمـل السـفن الصغـيرة مـا بـين 30 و40 قلـة. وبعـد مغـادرة السـفن التجاريـة المحملـة بالتمـر تـأتي «التشاشـيل»، وهـي القـوارب الشراعيـة الصغـيرة المحملة بالتمـر مـن السـوق المحلـي، وتعـرض حمولتهـا للبيـع في الهـيرات، حيـث تتجمـع أسـاطيل سـفن الغـوص.

تجارة الغليون في ساحل الإمارات والخليج:

تعـد تجـارة الغليـون مـن أهـم أنمـاط التجـارة مـن الإمـارات إلى موانـئ الخليـج العـربي، وهـو مـن المحاصيـل النقديـة التـي يعتمـد عليـه سـكان المناطـق الداخليـة للإمـارات في حياتهـم المعيشـية في مناطـق المرتفعـات الجبليـة أو مـا يطلـق عليـه بـ(الحـير)؛ لأنـه يمثـل المصـدر الرئيـس للدخـل في تلـك المناطـق، ولذلـك كان يـزرع محصـول الغليـون في تلـك المناطـق بكميـات تجاريـة، بهـدف التصديـر الخارجـي.

ولذلـك نـرى أحـد أبنـاء المنيعـي في جبـال الحـير يتحـدث عـن أهميـة زراعـة الغليـون في حيـاة سـكان المناطـق الجبليـة، فكـما كان أهـل السـاحل معتمديـن في حياتهـم

مسطاح التمر وهو مكان تجفيف التمور قبل تعبئتها.

عـلى اسـتخراج اللؤلـؤ، فكذلـك زراعـة الغليـون بالنسـبة لهـم يسـاوي أهميـة صيـد اللؤلـؤ نفسـها، ويقـول «إنـه مثـلما كانـت عيشـة أهـل السـاحل معتمـدة عـلى الغـوص واللؤلـؤ، كنـا عايشـين عـلى (الغليـون)؛ أي التبـغ، وكان المـزارع الواحـد منـا يبيـع مـن 20-40 ألـف روبية في السـنة يـوم يونيـة العيـش بخمـس روبيـات، والغليـون مخلـف علينـا مـن سـاس وراس مـن أبوتنـا وجـدود جدودنـا».

وتتـم عمليـة تحضـير محصـول الغليـون للتصديـر باقتـلاع أشـجار الغليـون مـن الأحـواض الزراعيـة، ثـم تعليقهـا للتجفيـف التـام في عشـش واسـعة مخصصـة لهـا، والقيـام بعـد ذلـك وعـلى مـدى أيـام وأسـابيع متواصلـة بصفهـا وإعدادهـا في ربطـات كبـيرة. وفي هـذه الفـترة يكـون التجـار قـد توافـدوا عـلى المنطقـة بوسـاطة المراكـب الشراعيـة في السـابق، ثـم اللنجـات البخاريـة فيـما بعـد، والتـي ترسـو عـلى سـواحل صحـار العمانيـة أو كلبـاء، وهنـاك يسـتأجرون لهـم بيوتـاً يقيمـون فيهـا أسـابيع، يـترددون خلالهـا عـلى المزارعـين لتقييـم الكميـة وتصفيـة الحسـابات بـين الطرفـين مقارنـة بـين السـلفة الاسـتثمارية، وكميـة ونوعيـة الإنتـاج وسـعره.

ويحـدد الدهـماني عـدد المـزارع التـي تـزرع الغليـون في منطقـة المنيعـي بأنهـا تزيـد عـلى 400 مزرعـة» ، وجميعهـا تعمـل عـلى تصديـر محاصيلهـا إلى الأسـواق الخارجيـة في البحريـن والخليـج والهنـد.

كـما كان أهـالي مصفـوت يزرعـون الغليـون للبيـع والتصديـر، وكان المـزارع يقـترض قبـل بدايـة الموسـم مبالـغ مـن المـال تتفـاوت مـا بـين 5 و10 آلاف روبيـة مـن التجـار البحرينيـين الذيـن كانـوا يصلـون إلى هـذه القـرى، ومـن بعـض تجـار دبي، وتتكفـل تلـك المبالـغ بتوفـير مصروفـات الموسـم الزراعـي، وفي نهايـة الموسـم يعـود أولئـك التجـار، وتكـون المحاصيـل معـدة وجاهـزة للنقـل، فتبـدأ المسـاومات بـين الطرفـين لتقييـم الكميـات وبيعهـا للتاجـر الـذي سـبق أن اقـترض منـه المـزارع. وكثـيراً مـا يختـار التجـار النوعيـات الجيـدة مـن المحاصيـل، بينـما تـترك بقيـة النوعيـات، فيقـوم المزارعـون بنقلهـا وبيعهـا في دبي. أمـا التجـار القادمـون مـن البحريـن فكانـوا يسـتأجرون قوافـل مـن الجـمال لتقـوم بنقـل الغليـون إلى السـواحل مقابـل رسـوم يتفـق عليهـا.

أمـا محمـد خلفـان الكنـدي، فيتحـدث عـن زراعـة الغليـون وتجارتـه في مناطـق إمـارة الفجـيرة، ويشـير إلى أن أهـل الإمـارة قـد اشـتركوا في أغلـب مناطقهـا في زراعـة الغليـون بكميـات تجاريـة كبـيرة، كان يصـل مردودهـا السـنوي للمزرعـة الواحـدة إلى نحـو عشـرة آلاف روبيـة، وقـد تزيـد أو تقـل قليـلاً، وفي هـذا الإنتـاج الزراعـي المثمـر كانـت مـزارع المناطـق الجبليـة (الحـير) تتميـز بجـودة الإنتـاج، والتـي تقـاس عـادة بدرجـة ارتفـاع وانخفـاض «حـرارة الغليـون»، حسـب تقديـر «وكيـف» المدخنـين، لذلـك فـإن تفـوق حـرارة غليـون الحـير كان سـر رواجـه التجـاري وتصديـره للخـارج بكميـات أكـبر مـن كميـات إنتـاج المناطـق الأخـرى.

ويتحدث الكندي عن تجارة الغليون وأسواقها، فعندما تجف أوراق محصول الغليون يتم ترتيبها في ربطات وإعدادها بانتظار وصول مراكب ابن حمزة أو ابن يوسف أو عبد الله هاشم أو غيرهم من تجار البحرين الذين اعتادتهم المنطقة، يشترون إنتاج مزارعها من الغليون بالجملة، وبعد أن يتم الاتفاق بينهم وبين المزارعين تبدأ قوافل الجمال بالعمل على مدى أيام عدة متواصلة، مترددة بين شواطئ خليج عمان والمناطق الجبلية، حيث مخازن الغليون المجفف، وهي تنقل محصول السنة إلى تلك المراكب التي لم يكن يزيد عددها على اثنين أو ثلاثة في كل مرة».

كما كانت تباع محاصيل أغلب مزارع المنطقة الشرقية، وخاصة مناطق إمارة الفجيرة في أسواق كلبا وخورفكان أو أسواق المدن الساحلية كالشارقة ودبي.

تجارة السلع الغذائية والفواكه والحمضيات:

أما تجارة الأرز، فكان يقوم بها عدد من كبار تجار دبي، ومنهم محمد بن أحمد بن دلموك، الذي كان يملك مخازن كبيرة تخزن فيها كميات كبيرة من أكياس الأرز المستورد، وهذه الكميات الكبيرة تستورد لغرض توزيعها على سفن الغوص في مواسم الغوص.

ومن أنماط التجارة الداخلية بين بلدات وقرى وبوادي الإمارات تجارة (السخام) والتي كان يخصص لها سوق في كل إمارة، ففي دبي هناك سوق يطلق عليه (عرصة السخام)، وإلى هذا السوق يأتي رجال البادية بقوافل الجمال محملين بالسخام، وبكميات كبيرة إلى جانب منتجات مزارعهم من المانغو والليمون الأخضر.

وكان النشاط التجاري بين موانئ الإمارات يقوم على تجارة السلع الغذائية والزراعية كالتمور والحمضيات والفواكه كالليمون والمانغو والغليون والفندال والحطب والسخام والدعون. وتشتهر دبا كما غيرها من المناطق الزراعية بإنتاج كثير من تلك المنتجات الزراعية، وكان أغلب تلك المحاصيل تصدر للبيع، سواء في الأسواق المحلية بالإمارات أو الخارج.

وقد اشتهر سكان دبا بزراعة الليمون وتجفيفه للبيع والتصدير إلى البصرة وإيران، كما كان يزرع فيها الغليون (التبغ)، ويصدر إلى البحرين والكويت، كما كان يصدر كذلك (الفندال) إلى الشارقة ودبي. وتشتهر دبا في الماضي بإنتاج الحطب وتصديره إلى الأسواق المحلية والخارجية، وكان يوجد على ساحل دبا العديد من مخازن الحطب التي تشتريه السفن العابرة بهدف بيعه إلى أسواق المدن الساحلية بالإمارات.

واشتهرت منطقة دبا بمراعيها الخصبة واشتغال أبناء باديتها بتربية المواشي والتجارة بها، وكانت غالبية تلك الثروة الحيوانية تصدر إلى أسواق دبي والشارقة، وكان الشيخ حشر بن مانع أحد أكبر الزبائن المستوردين للمواشي من دبا إلى دبي. كما كانت دبا تشتهر كذلك بإنتاج العسل وبكميات كبيرة، وكان العسل أحد السلع التي تصدر إلى بقية مناطق الإمارات.

ويعد اللومي الحامض من المحاصيل الزراعية المهمة التي كانت تشتهر بزراعتها المنطقة الشرقية والفجيرة ومسافي وعسمة والسيجي والقرى الزراعية الأخرى المجاورة لها، ويتم تصديرها إلى الأسواق المحلية والخارجية بعد تجفيفها.

وكان المزارعون في الماضي يقومون بتجفيف أكثر الكميات المنتجة من اللومي وتخصيص لها «مساطيح» وهي عبارة عن سجاجيد من جريد النخل كتلك التي تستعمل لتجفيف التمور، ثم تعبأ في جواني وأكياس بانتظار السفن التجارية التي كانت تصل إلى موانئ المنطقة الشرقية؛ لتشحن تلك الكميات الكبيرة من اللومي المجفف وتحملها إلى بعض دول الخليج. كما كانت تشحن كميات منه بوساطة الجمال إلى الأسواق المحلية في دبي والشارقة ورأس الخيمة.

وتعد فاكهة «الهمبا» (المانغو) أحد أهم المحاصيل الزراعية المخصصة للتجارة والتصدير من مناطق زراعتها في المنطقة الشرقية إلى مدن المناطق الساحلية في الإمارات. ويتفق أغلب الرواة بأن منطقة مسافي اشتهرت منذ القدم وحتى زمن قريب، بأنها موطن الهمبا البلدي في الإمارات، وذلك لما تميزت به هذه القرية من تكاثر أشجار الهمبا الضخمة المعمرة بين أحضان مزارعها، ولجودة ثمار تلك الأشجار، وكثرة إنتاجها، بحيث كانت تشكل دخلاً أساسياً لمواطني القرية في موسم الصيف، إلى جانب البلح والتمور. وإلى جانب شهرة مسافي بإنتاج هذه الفاكهة، فكانت هناك كميات كبيرة من الهمبا المتداولة في أسواق الإمارات، والمنتجة في مزارع فلج العوهي ومزارع فلج القبائل الواقعة بمنطقة الباطنة العمانية القريبة.

أما تصدير المحصول إلى الأسواق، فكان يتم بوساطة قوافل من الجمال والحمير التي تنطلق صباح كل يوم محملة بآلاف الحبات، قاطعة رمال الصحراء والمرتفعات

والمنخفضات والسهول والوديان متجهة إلى أسواق سواحل رأس الخيمة وأم القيوين وعجمان والشارقة ودبي وحتى الفجيرة وخورفكان وغيرها، في رحلات تستغرق 4 أو 5 أيام أو أكثر. وعند الوصول فإن قوافل الجمال تمرح في ساحات الأسواق الشعبية (العرصة)، وهناك عادة ما يكون بانتظارها بعض «اليزافين»، وهم التجار الصغار الذين يقومون بشراء كميات المانغو بالجملة، ثم يتولون عملية بيعها بالمفرق، وإذا انعدم «اليزاف» فإن صاحب البضاعة يتولى بيعها بنفسه مفرقاً على أيام عدة.

كما كانت كميات كبيرة من منتجات أشجار الهمبا في فلج العوهي وفلج القبائل (الباطنة) تصل إلى أسواق دبي والشارقة في سفن شراعية تسمى (بدن)، أو على قوافل الجمال وتلقى رواجاً في السوق المحلية على الرغم من كثرة الإنتاج المحلي.

ولقد اشتهرت في دبي عمارة (الحباي) في منطقة السبخة بأنها عمارة الهمبا، إذ كانت عبارة عن مخازن لحفظ وتسويق الواردات من الهمبا من المزارع المحلية ومن الباطنة ومن ميناو.

وكانت السفن الشراعية الصغيرة تحمل من رأس الخيمة الحطب والقيد (هو حطب السمر أو الغاف والذي كان يستخدمه الأهالي للطبخ)، والأغنام والعسل والرطب والتمر والدعون وجذوع النخل ودهن البقر. وكانت سفن الساحل تحمل من دبي إلى رأس الخيمة الطحين والعيش والسكر والقهوة والدهن.

وحول التجارة البينية بين الإمارات وموانئ الخليج يقول حسين بن محمد الشعالي «كانت السفن تشحن الحطب والغليون والجاشع والعومة، وكذلك (العبرية)؛ أي الركاب من دبي باتجاه البحرين والقطيف، ومن هناك تأتي بالسلع الغذائية. ويذكر الشعالي أن سنوات الحرب العالمية الثانية

شهدت انعدام كثير من المواد الغذائية الأساسية كالأرز والشعير والقمح والأغنام، لكننا نأتي بها من الخارج، في حين كان السكر والشاي يوزع على الأهالي بالبطاقات. ويقوم البعض بجمع تلك المواد وبيعها للتجار الذين يصدرون كميات كبيرة منه إلى إيران؛ لذلك كنا نشتري منهم ونؤجر سفناً لحملها وبيعها لهم، ورغم خطورة هذا العمل، إلا إنها كانت السبيل المتاح للمعيشة إلى جانب المصادر والسبل الضيقة والمحدودة.

وقد شهدت بعض موانئ الإمارات حركة في تجارة الترانزيت بينها وبين موانئ فارس، ففي دبي يعاد تصدير العديد من السلع التجارية القادمة من البصرة وعدن والهند، وخاصة تجارة الأقمشة والسكر والشاي والقهوة، التي كان التجار يستوردونها من عدن، وتباع هناك بأسعار مناسبة.

وكان الطريق التجاري البحري لا ينقطع طوال العام، كما كانت الحركة التجارية نشطة بين الساحل العربي والساحل الفارسي، فمن موانئ فارس يستورد أهل الإمارات المواد الغذائية كالعدس والشعير والقمح والأغنام والفول والمشمش والفستق والجوز والتين اليابس والحبوب والبقول والعديد من السلع الغذائية والتجارية.

محمد نجيب قدّورة
كاتب وباحث - فلسطين

الأسواق الشعبية

في الإمارات.. حكاية وتاريخ

جرى الحديث مطوّلاً حول طرق القوافل والمحطات التجارية بيني وبين الدكتور عبد الستار العزاوي، رحمه الله، حيث شكلت معابر التجارة بداية نشوء المدن والقرى عبر العصور، ومازالت تفعل فعلها إلى يومنا هذا، ضمن طرق نقل البضائع إلى أسواق البيع، ثم إعادة التصدير مع تعدد المهام.
وليس هذا مستغرباً على مستوى العالم، ونحن العرب فلا شك في أننا عرفنا في تاريخنا (سوق عكاظ والمجاز والمربد ودارين وهجر وما أكثرها).

• للإمارات أسواقها الشعبية:

نظراً لموقع الإمارات على خليجين اثنين، والطرق العابرة براً ما بينهما، بل الطرق المتجهة إلى ما وراء البحار، فقد كان من الطبيعي أن تكون الأسواق محركاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية في الشقين البحري والبري.
وإذا أردنا البيان في هذا السياق، فعلينا تقسيم الأسواق حسب المكون الجغرافي الذي كان انسجاماً مع أداء الضرورة الملبية للحاجات في الاستقرار الأهلي المرتبط بتدابير الأمان التي تسعف المواطنين في الأعمال والأرزاق.

• الأسواق البحرية:

بنظرة بسيطة إلى خريطة الإمارات، فإن جلاء الحقيقة يبدو سهلاً لترسيم الحركة التسويقية القديمة.. فالعمل البحري فاعل في الاستيراد والتصدير، كما هو معروف في الأسفار الخليجية نقلاً وجلباً للأسواق، ولا بأس أن نبدأ بأقدم هذه الأسوق التي ذكرت في أقوال المؤرخين عن أسواق دائمة وأسواق موسمية، كانت لا تزال، مذكورة في مأثورنا الشعبي في الموانئ والفرض والميادين والعرصات.

1. أسواق دبي

من اللافت في دبي تعدد الأسواق الشعبية مثل (سوق مرشد الذي كان يحمل بداخله أسواق المواشي - الفحم – السمك الجاف - المضاربة – الأطعمة والمكسرات – القهوة – البشوت – الذهب...)، وهذا في منطقة ديرة.
وإذا عبرنا الخور، فسنكون أمام أبواب تؤدي إلى (سوق بر دبي الكبير في عراقته وتاريخه وبواباته)، والبوابات هي بحد ذاتها علامات أسواق، فهناك باب الخميس والباب الغربي وباب سوق البانيان والباب الصغير.
والجدير بالذكر أن الأسواق اتسعت وتطورت من عرش إلى مبانٍ، ثم ضاقت بسبب التوسع العمراني، وأن العاملين في الأسواق كان منهم النساء وعائلات عربية اشتهرت في العمل التجاري، وذلك أدى إلى نشوء الدكاكين في تفرعات الأحياء والشوارع على اختلاف معروضاتها من بضائع وسلع، جعلت دبي القديمة محط أنظار وأقدام الباحثين عن بيع المفرق والجملة، ولا يمكن إلا أن نتذكر سوق الحميرية وسوق الذهب، ومجالس الطواويش وتجار اللؤلؤ، كلمات ذكرت دبي القديمة وأسواقها الشعبية التي كانت مقدمة لظهور الأسواق الكبيرة، وقرى التراث والقرية العالمية.

2. أسواق أبوظبي

كان سوق أبوظبي القديم من أهم أسواق المدينة، بواجهته التراثية وممراته المسقوفة، وعلى مقربة منه كان سوق الهنود الشعبي، وفيه الأقمشة والسجاد والذهب

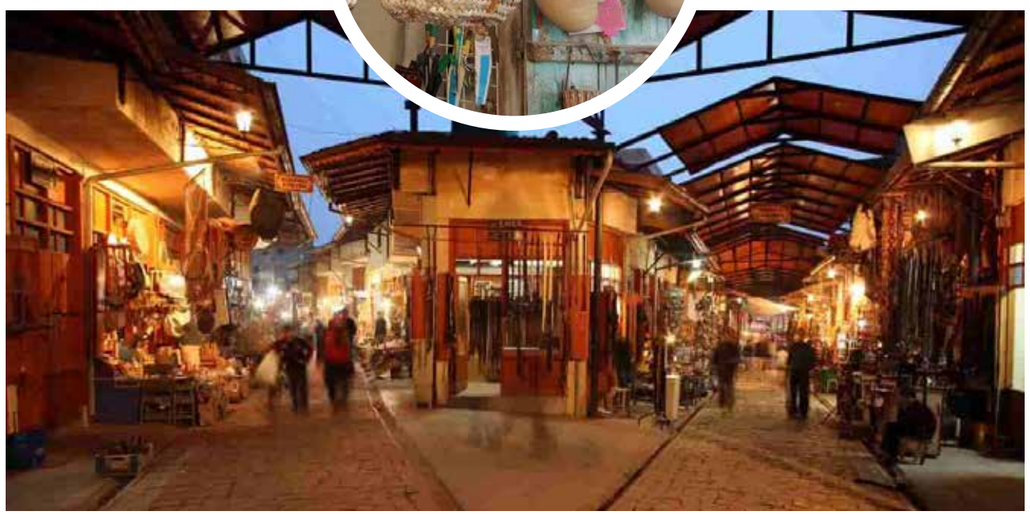

وسواها، وهناك في أبوظبي سوق التحف والحلي والآلات الموسيقية والخناجر والسيوف.

وبالطبع تكون الأسواق قلب المدينة النابض، حيث تحاط بالعمران والمباني الحكومية من جمركية وشرطة، ثم تستحدث المصارف والمقاهي والمطاعم والبريد.

الأسواق الشعبية في الشارقة:

ولا يختلف شكل الأسواق بين إمارة وأخرى، ولا مهامها، ففي الشارقة سوق العرصة، وسوق صقر، وفيهما كل ما هو مستورد، وكل ما هو قابل للتجارة الداخلية من مستلزمات غذائية وصناعية، وبالطبع توسعت الأسواق الشعبية القديمة في منطقة الرولة والمجرّة والمريجة والسوق الإسلامي (القيصرية)، وهذه الأسواق هي من نتائج التوسع السوقي الذي يدل على أن الشارقة هي محطة للتبادل التجاري، خاصة أنها تقع على الخليجين، وتستقبل السفن المتجولة للبيع عند سوق البحر القديم، ما دعم نشوء أول بلدية في الخليج، فالسوق واجهة اجتماعية واقتصادية، نشهد على ذلك البيوت والمدارس والمجالس والمساجد التي تختزل ماضي الشارقة الشعبي، ويعيد ذكر أسواق دبا القديمة على خليج عمان، وما دمنا في الشارقة، فلابد أن نذكر الأسواق الشعبية في خورفكان وكلباء، حيث المدينتان تشكلان شريانا لتجارة تبادلية مع منطقة النظير.

3. الأسواق الشعبية في رأس الخيمة

لعل تاريخ جلفار عبر العصور يدل على أهمية السوق العالمي القديم للعمل التجاري المرتبط بالبر، حيث الأسواق الممتدة إلى المعيريض والنخيل ومدينة رأس الخيمة التي تضم أسواق (سلطان بن سالم المسقوف،

وسوق السمك، وسوق العرصة، وسوق البيادير، وسوق الحريم، وسوق الصفافير، وسوق العوامر، وسوق لوتيان، وسوق بانيان)، حتى لنكاد نحسب أن مدينة رأس الخيمة هي مدينة الدكاكين، والتي كانت تشبه دبي بعبرتها واحتوائها على كل أنواع المنظومة التجارية.

4. أسواق الفجيرة الشعبية

اشتهر من أسواق الفجيرة على البحر سوق منطقة الغرقة، على الطريق بين كلباء والفجيرة، حيث كانت البضائع تجلب من البصرة والهند، إضافة إلى ما يصل من بقية الإمارات براً وبحراً. ثم هناك أسواق دبا الفجيرة ودكاكينها، وبالطبع تطورت الأسواق الشعبية بما فيها سوق مربح، وسوق حبحب، وكلها على الساحل.

5. أسواق عجمان الشعبية

أذكر أنني سمعت عن حرائق أسواق في دبي وعجمان، ما نبهني إلى زيارة الأماكن لأرى ما تجدَّد وما سمعته عن سوق فيها يدعى «خلّص خلّص» وسوق «العرصة» والسوق الغربي، والسوق الشرقي، ذات الدكاكين التي تتنوع فيها التجارة، ووجود المخازن والمستودعات وصناع الحلوى والمقاهي الشعبية، وقد تحدث الأستاذ علي محمد راشد، في كتابه، أن أكثر العاملين في الأسواق كانوا من النساء، كما اشتهرت عجمان بالباعة الجائلين بين الفرجان مشياً على الأقدام، وصولاً إلى المحطة الجوية في الشارقة.

هذا وقد تميزت عجمان بعلاقتها التجارية مع جزيرة سقطرى، والمميز لأسواق عجمان أنها كانت تحفل بإقبال جماهيري للفرجة والبهجة، ولا ننسى في حديثنا عن الأسواق أن متحف عجمان استخدم قديماً كسوق شعبي.

6. الأسواق الشعبية في أم القيوين

وأشهر أسواقها الشعبية سوق العرصة على البسطات والأرض، ثم سوق السمك المعروض بالمشكاك أو الموزون بالمن، وسوق التمر العراقي والإيراني، كذلك يوجد فيها سوق البانيان الهنود ومقاهيه الشعبية الكثيرة، التي كانت تشكل مجالس مفتوحة أما الدكاكين القديمة، فقد رأيت معظمها مغلقاً وآيلاً للسقوط.

• الأسواق الشعبية الداخلية

أهم الأسواق الداخلية أسواق العين؛ القطارة ومدينة زايد، وأسواق الذيد، وفلج المعلا، وكلها كانت مرتبطة بالأسواق الشعبية في المدن البحرية، وفي محيطها الواحي والزراعي، كسوق الإبل في العين، غير أننا هنا نميز سوق الجمعة على الطريق بين مسافي والذيد، لما له من خدمات للمسافرين والسياح بكل محتوياته الزراعية من خضار وفواكه، وخدمته التجارية من سجاد وفخار، وما إلى ذلك من لوازم أهل المناطق الجبلية، فيكون السوق صلة تواصل فريد من نوعه ما بين عسل الجبال وسمك البحار.

وختاماً خلاصة القول: كثير من هذه الأسواق الشعبية تضاءل دوره؛ لذلك تعمدُ البلديات إلى ترميمها، وتحسين أماكنها، وتم استبدالها بأسواق شعبية حديثة، تقام في الميادين والنوادي وأطراف المدن، فنسمع عن أسواق في كل مكان يحتمل أن يسلكه أي عابر، بقصد سياحي أو تجاري أو سكني، ما بين المدن والقرى والبوادي ورؤوس الجبال.

إضافة إلى معلوماتي الشخصية، وما أفادني به المرحوم الدكتور عبد القادر العزاوي، فقد لحظت بصمة مفردات هذا المقال برجوعي إلى كتاب الأسواق الشعبية في الإمارات، للكاتب علي محمد راشد، الطبعة الأولى - 2014م.

رائحة السوق القديم

د. فهد حسين
أكاديمي وناقد - البحرين

إن الأسواق القديمة تدخل في سياق حضارة كل البلاد على وجه الكرة الأرضية، فلا يوجد بلد إلا وكانت الأسواق القديمة تمثل معلماً من معالمه، مهما كان هذا السوق صغيراً أو كبيراً، واسعاً أو ضيقاً، متخصصاً في سلع معينة أو متعدد السلع والحاجات، بل هناك ميزات هذه السوق أو تلك، من حيث الموقع والانتشار والأمكنة الملتصقة بها، فضلاً عن تلك الشوارع والأزقة والمقاهي الكامنة بين أفضية السوق. وكانت الأسواق في قديم الزمان أمكنة للتبادل التجاري، ومحلاً للبيع والشراء في مختلف البضائع، وعادة تقع هذه الأسواق، وبخاصة في منطقة الخليج قرب البحر والموانئ، ما يؤكد موقعها العلاقة بين السوق والتجارة، وتلك البضائع التي تأتي عن طريق السفن والبواخر من شتى المناطق العالمية.

وعلى الرغم من اندثار بعض الأسواق القديمة أو الشعبية، وإحاطة العمارات الشاهقة والبنايات العالية بعض الأسواق القديمة بحكم التحولات العمرانية، أو ضيق الشوارع التي بات من الصعب وصول السيارات إليها، فإن العديد من الأسواق لايزال موجوداً ويمارس نشاطه، كما كان في السابق، فلو تأملنا معظم الدول العربية، بل كلها تقريباً، فسنجد أحد تميزها تلك الأسواق القديمة المغلفة برائحة الماضي وتاريخ البلاد المتنوع، وتلك القيمة التي يكتسبها البلد من وجود هذه الأسواق، فهناك خان الخليلي وحي الحسين وشارع المعتز في القاهرة، وهناك السوق القديم في تونس، بجانب جامع الزيتونة في العاصمة تونس، وهناك سوق الحميدية في سوريا، وأسواق شارع المتنبي وشارع أبي نواس في بغداد، فضلاً عن تلك الأسواق الأكثر شعبية التي تبيع البضاعة المستعملة، كما هناك الأسواق الشعبية التي تميزت ببيع الكتب والمجلات والصحف القديمة مثل سوق الأزبكية.

أما في منطقة الخليج العربي، فهناك أسواق كثيرة أوجدها الإنسان من قديم العصور، لتكون واجهة ومكاناً وملاذاً ومنفذاً تجارياً، ومن هذه الأسواق: سوق مطرح في مسقط، وسوق نايف، وسوق مرشد في دبي، وسوق العرصة في الشارقة، وسوق واقف في قطر، وسوق المباركية في الكويت، أما في المملكة العربية السعودية فهناك أسواق قديمة، كثيرة بحكم المساحة الجغرافية، ومن هذه الأسواق: سوق البطحاء وسوق الديرة في الرياض، التي تعرض العديد من البضائع ذات الأسعار المتاحة للجميع، وهناك سوق حايل، وسوق الخوبة في جازان، سوق القيصرية في الأحساء، وسوق قابل في جدة، وسوق البريدة في منطقة بريدة، ومع هذه الأسواق هناك أسواق تسمى سوق النساء، ويطلق بعضهم عليها سوق الحريم، وهي أسواق تبيع فيها النساء البضائع ذات العلاقة بالنساء، من حيث اللباس وأدوات التجميل وغيرهما. واللافت للنظر أن بعض الأسواق الشعبية، أخذت أسماء بحسب أيام الأسبوع، مثل: سوق الثلاثاء، وسوق الأربعاء، سوق الخميس، سوق الأحد، بالإضافة إلى أسواق تهتم ببيع الأدوات المستعملة كما في سوق (المقاصيص) في البحرين، الذي كان ينقل من مكان إلى آخر بحسب التحولات الاقتصادية والعمرانية، وهناك أسواق أطلقت أسماؤها حسب نوع البضاعة،

مثل: سوق الغنم، سوق الخضار، وهكذا دواليك.

أما سوق المنامة القديم، فقد تشكل في نهاية الأربعينيات تحت مسمى سوق باب البحرين، حيث كانت بوابة السوق التي تطل على ميناء المنامة (الفرضة)، الذي كان يشكل عصب التجارة ونقل البضائع آنذاك، ويستمر حتى يلتقي بشارع الشيخ عبدالله، وكلا المكانين يمثلان السوق القديم، وما بينهما تقع بعض الأسواق الصغيرة، مثل: سوق الصفافير، سوق الحدادة، سوق الطواويش، سوق الذهب، سوق التتن (التبغ)، وسوق بيع الماشية والدواجن، بالإضافة إلى أمكنة بيع الملابس والأقمشة النسائية والرجالية، وأمكنة بيع التوابل ومتعلقات ومتطلبات المطبخ والطهي، لكن بعد التطور الذي طرأ على هذا المكان، فقد تحولت كثير من الأسواق الصغيرة إلى أمكنة أخرى، وبقي السوق محصوراً في بيع الذهب والملابس والساعات، إذ بوجود المحال التجارية الكبيرة، مثل البرادات والسوبر ماركت والهايبر ماركت فقد أخذت هذه المحال الكثير من البضائع، والتي بدأ الإنسان يذهب إليها لما تتميز به من مكان واسع، ومواقف كثيرة للسيارات، وتعدد الحاجات التي لا تفرض على المشتري التنقل من مكان إلى مكان، بل كل ما يطلبه سيجده في مكان واحد، إلا أن عبق السوق القديم سيبقى لها مذاقه الخاص، ورائحة ماضيه التي تفوح بين أرجاء المكان.

ومن أقدم الأسواق في البحرين سوق المحرق القديم، إذ يقال إنه أنشئ في العشرينيات من القرن الماضي، ففي هذه السوق كان يباع التمر والدبس والزيوت، وكذلك الماشية والحيوانات، وسوق بيع الأخشاب، بالإضافة إلى المواد الغذائية وحاجات الإنسان من الملابس وغيرها، وسوق القيصرية التي اشتهرت بأمكنة لبيع اللؤلؤ والذهب والفضة، بل كانت عائلة تسمى بالصاغة؛ لأنها كانت تشتغل بالذهب وصياغته وتشكيله، وتم وضع هذه السوق في عام 2012 من قبل منظمة اليونسكو العالمية على قائمة التراث الإنساني. أما بيع الأسماك واللحوم التي كانت موجودة في الأسواق القديمة، فقد انتقلت إلى أمكنة أخرى، حيث أنشئت أسواق خاصة لهذا الغرض في أكثر من منطقة، سواء في المدن أو في القرى أو في المحال الكبيرة الحديثة.

إن الأسواق القديمة الشعبية المتخصصة في مجال معين أو المتنوعة، تعدّ معلماً سياحياً، يضع السائح زيارة هذه الأسواق ضمن برنامجه السياحي، هكذا كلنا حينما نذهب إلى أي بلد نضع في اعتبارنا وجدولنا اليومي زيارات المعالم السياحية التراثية، والأمكنة الثقافية كالمتاحف والمكتبات ودور السينما والمسرح والأوبرا وهكذا، بل هناك العديد من البلدان تميزها السياحي في أسواقها، ولكن لا يمكن إنهاء الزيارة من دون النزول إلى ساحات هذه الأسواق، التي لا شك في أنها تقدم لك بعض ملامح البلد وثقافة شعبه وعلاقاته الاجتماعية والإنسانية، فضلاً عن تلك البضائع والحاجات التي تباع فيها، وتمثل بعض منجزات البلد من جهة، وتراثها من جهة ثانية، حتى لو دخلت عليها البضاعة الحديثة القادمة من الأسواق العالمية.

حاولت أكثر الدول العربية، وبخاصة تلك التي كان تراثها وحضارتها وثقافتها تؤكد على التراث والتاريخ، إذ حافظت هذه الدول على أسواقها القديمة، وشوارعها التي تحمل عبق الماضي، ومساجدها القديمة، وحاراتها وغير ذلك، وهذا ما نجده في أسواق الخليج بصورة عامة، تلك الأسواق التي حاولت الجهات المعنية بالتراث والسياحة أن تحافظ على كل معلم من المعالم، من حيث الترميم والاهتمام بصيانة هذه الأمكنة، بما فيها الأسواق القديمة، ومن يأتي سائحاً إلى البحرين ذاهباً إلى سوق المنامة القديم أو سوق المحرق (القيصرية) فسيجد الترميم والتطوير والمحافظة على التراث في وقت واحد، وهذا إن دل

فإنه يدل على الوعي الذي يتصف به متخذ القرار تجاه هذه الأمكنة السياحية والتراثية، وهذا ظاهر في سوق المباركية في الكويت، وسوق واقف في قطر، بمعنى أن هذه الأسواق لا تبقى على حالها كما كانت قبل خمسين سنة مثلاً؛ لأن عوامل التعرية المناخ والطقس والتمدد العمراني ستؤثر حتماً في طبيعة هذه الأسواق، إن لم تحصل الرعاية والاهتمام والمحافظة؛ لذلك كانت المؤسسات الرسمية المعنية بهذه الأمكنة واعية تجاهها، ما جعلها باقية حتى هذا الوقت.

ولو أمعنا النظر في طبيعة تعاطي دول مجلس التعاون مع الموروثات الشعبية وتراث هذه الدول، فسنجد اهتماماً كبيراً بهذا الإرث الذي لن تقبل التفريط فيه أو التخلي عنه، وقد ترجمت محافظتها من خلال إقامة المؤتمرات والملتقيات والمهرجانات السنوية والموسمية، التي تعبر عن دور المؤسسات الرسمية والأهلية تجاه الأسواق، وغيرها من الموروثات الشعبية، جمعاً ودراسة وتحليلاً، حيث آمنت هذه الدول بكيفية تقديم التراث عامة، والأسواق بخاصة إلى السائح والمقيم وأبناء الدول، وتلك الأجيال التي قد تنسى بعض تراث آبائها وأجدادها، من هنا كانت الدراسات والبحوث والتصميمات التي تواكب المرحلة الزمنية من جهة، والطابع القديم الذي لا يخلّ بأهمية هذه الأسواق، وإبرازها في صورة تمثل بعض تاريخ المنطقة.

كلما توغل المجتمع نحو الحداثة والتمدين والتحولات المجتمعية المختلفة، باتت العودة إلى ما هو ماض، ويمثل بعض الذاكرة الجمعية، أو يشكل معلماً من معالم الحياة القيمة، يتم الذهاب إليه ليس من أجل التقوقع والانحسار فيها، وإنما رغبة في إظهار هذا أو ذاك للمجتمع أولاً الذي قد ينسى أو ينشغل أفراده بالحياة الجديدة، فلم يعد الماضي مرتبطاً به، وإلى السياحة ثانياً؛ لكي يعرف السياح مدى قيمة التاريخ والتراث والثقافة التي تشكل عناصر الحضارة للبلدان عامة؛ لهذا حرصت دول المنطقة تحديداً على بناء خطط

تسهم في المحافظة على الأسواق القديمة، وما تضمه من محال ومعالم ومقاه ومطاعم شعبية، بل حرصت على إقامة المؤتمرات والمهرجانات والملتقيات والندوات التي تعنى بالتراث عامة، وتؤكد أهميته في نسيج المكون الثقافي المادي وغير المادي.

وحينما تتجول في أي سوق من الأسواق القديمة في المنطقة، أو غيرها من مناطق العالم، حتماً ستجد بين شوارعها وأزقتها وأطرافها المطاعم والمقاهي، التي تحمل بعض صفات وملامح المكان والثقافة والتراث، إذ ليست الأسواق فقط التي تقدم تاريخ المكان وبعض تراثه، وإنما يتشارك معها المقهى والمطعم، وهذا ما كانت ولاتزال تحرص عليه دول المنطقة؛ من أجل أن تكون الأسواق محطة سياحية تستقبل السياح، وتحتضن شغفهم لمعرفة المزيد عن التاريخ والتراث، لكن هذا لا يعني أن دول المنطقة مكتفية بهذه الأسواق، وإنما في سياق التطور وتحديث الأمكنة وعبور المجتمعات الخليجية لحداثة المكان، وتحوله الذي يتوافق مع تطلعات الإنسان والعالم، فقد أنشأت أسواقاً حديثة ذات مواصفات تختلف عما هو في الأسواق الشعبية القديمة، إذ برزت المولات والمجمعات التجارية الحاضنة للمحال التجارية الكبرى، والماركات العالمية التي بدأت منذ زمن تنتشر في بلدان الخليج، بالإضافة إلى انتشار المقاهي والمطاعم العالمية، كما برزت في المجتمع العالمي الأسواق الافتراضية التي باتت تنتشر بصورة كبيرة ولافتة، ما تلك «البوتيكات» الافتراضية إلا دليل على هذا، ولكن في نهاية الأمر ما على السائح أو المقيم أو أبناء المنطقة إلا الاختيار الأنسب لقضاء أوقات ماتعة في أي أمكنة داخل هذه الأسواق، وشراء ما يحلو له من جهة، وبقاء الذكرى من جهة أخرى.

من هنا، فإن الأسواق القديمة أو الشعبية تمثل في حد ذاتها رافداً متعدد الجوانب، فهي ذات بعد اقتصادي، وبعد ثقافي، وبعد اجتماعي، فحين يتوافد الناس على اختلاف جنسياتهم وميولهم وتطلعاتهم وثقافاتهم، فإنهم ينظرون إلى هذه الأسواق من منظور مختلف، ولكنها كلها تشكل إطاراً تجاه الرؤية لها، إذ تجد من يهتم باقتناء بعض الحاجات التي تمثل بعض تاريخ هذه الدولة أو تلك، أو الإصرار على التقاط بعض الصور التذكارية، أو شراء بعض الصور التي تعبر عن تاريخ المكان وثقافة شعبه وطبيعة حياته ومعالم مجتمعه، وكل هذا يعني دور التراث والتاريخ والحضارة في حياة البشر، بمعنى كلما استطعنا العمل على إظهار تراثنا بالصورة المثلى، وثقافتنا بالطريقة التي تعطينا المكانة اللائقة بين الأمم، استطعنا أن نكتب اسمنا على خريطة العالم الثقافية والتراثية، والأهم من كل هذا تلك الرائحة التي تفوح من هذه الأسواق، لتنقلنا إلى عوالم الأجداد والآباء والتاريخ وحضارة المكان.

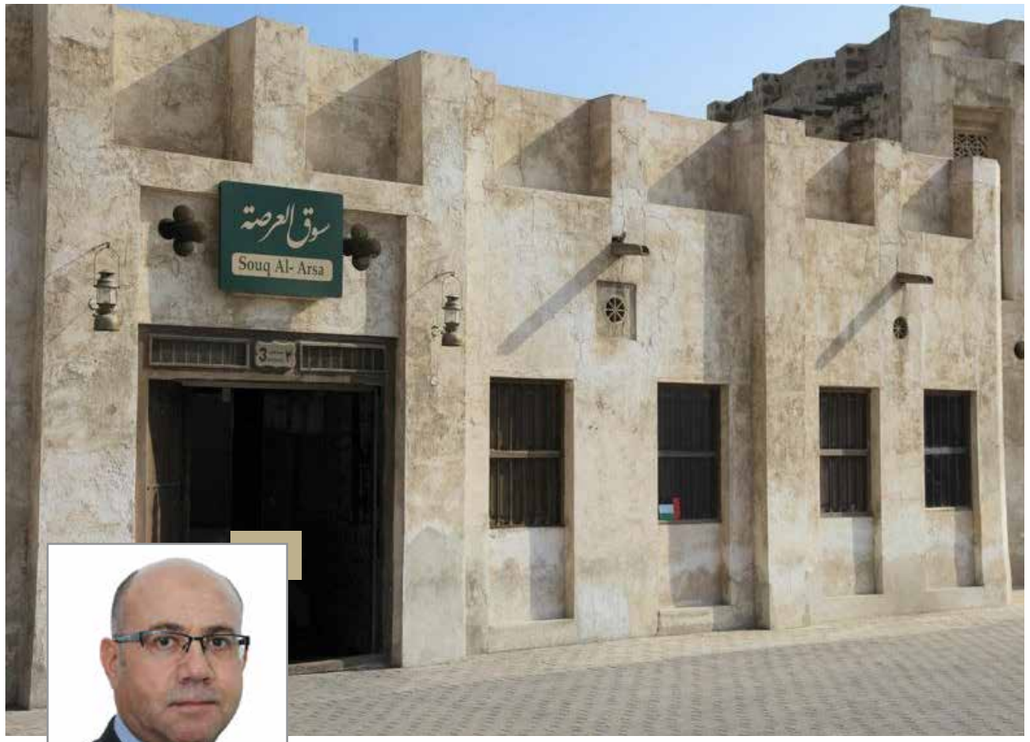

خالد صالح ملكاوي
باحث وإعلامي - الأردن

الأسواق القديمة..

نواة النهضة التجارية وعصبها الحديث

ظهرت الأسواق في الإمارات، كما هي في الجزيرة العربية، منذ زمن بعيد، ولعبت دوراً مهماً في ربط العالم القديم، وهي، بفضل الاهتمام الرسمي والشعبي، لم ترضخ لتحديات الزمن، رغم عمرها المديد، بل ظلت مزهوة بأنها النواة التي انطلقت منها، ولاتزال، النهضة التجارية والاقتصادية الكبيرة التي تشهدها مدن الإمارات، وهي اليوم لا تقل حضوراً وازدحاماً بالناس، عن الأسواق العصرية.

ترتبط نشأة الأسواق بالتجمعات السكنية، وتعد من أهم المرافق الحيوية، وعلامة بارزة على تطوُّر التجمعات السكانية التي احتضنتها، لاسيما المدن منها، وأيضاً على كثرة سكانها، وقوة تجارتها مع بقية المدن المجاورة لها، فهي، إضافة إلى دورها الاقتصادي، مثّلت ملتقيات اجتماعية وثقافية، ومكاناً للامتزاج الحضاري بين مختلف الأعراق والثقافات، لم تتخلَّ عن أدوارها هذه منذ سوق عكاظ الذي كان يُعَدّ من أشهر أسواق العرب في الجاهلية، إذْ كان يفد إليه معظم قبائل العرب.

ومرّت الأسواق عبر الزمن بمراحل عدة، واتخذت العديد من الأشكال، واختلفت مواقعها ومحتوياتها وقدراتها لتلبية متطلبات الناس على اختلاف بلدانهم ومواقعهم واحتياجاتهم.وقد بدأت في الساحات العامة، حيث يفد البائعون ويفترشون الأرض، ويعرضون بضائعهم للمشترين، حتى ينفد ما لديهم من البضائع، أو حتى ينتهي نهار ذاك اليوم، وتطورت إلى أن غدت تتشكل من دكاكين ومحال تجارية منتظمة البنيان، متسقة الشكل، واضحة التخصص، وتباينت في كل ذلك تبعاً لبيئة المدن، وموقعها من طرق التجارة وتطورها وازدهار تجارتها.

وفي الإمارات، شكّلت الأسواق مقر الحركة التجارية على مرّ العصور.وكان جلّ هذه الأسواق، في الماضي، يقع - في الأغلب - قرب شاطئ البحر؛ لارتباط الأسواق بالموانئ، وبعمليات توريد البضائع وتوزيعها.

وتمتد جذور بعض أسواق الإمارات إلى عصور ما قبل الإسلام، ومنها ما شكّل محطة على مضيق هرمز، وعُرفت أخرى على مستوى العالم كمراكز لتجارة اللؤلؤ، في حين ازدهرت أسواق في العصور الوسطى، ثم تراجعت لمصلحة أخرى.

فالأسواق في الإمارات، كما هي في الجزيرة العربية، ظهرت منذ زمن بعيد، ولعبت دوراً مهماً في ربط العالم القديم من إفريقيا إلى آسيا، ومنها سوق دبا الحصن، الذي كان يشهد مناظرات شعرية، ولقاءات بين التجار لتبادل المعلومات عن المناطق التي قدموا منها، وسوق دلما الذي لعب دوراً اقتصادياً وثقافياً مهماً، لكونه محطة للسفن التجارية، فقد كان يلتقي فيه الحكاؤون الذين يجلسون في السوق، ويتناوبون على رواية قصص أسفارهم.وسوق معروف في منطقة العين، التي كانت محطة رئيسة على طريق القوافل التجارية وقوافل الحج.

وكذا الأمر في سوق جلفار الذي اعتُبر أحد الأسواق المهمة والمحورية في القرون الوسطى؛ نظراً لأن جلفار، التي عُرفت بمكانتها الاقتصادية، كانت ميناء تجارياً معروفاً لتصدير اللؤلؤ، كما ضم السوق فيها ميداناً لانعقاد المناظرات الشعرية والأدبية.وكانت جلفار مدخلاً لمضيق هرمز، وبوابة لعبور العرب المسلمين لفتح بلاد فارس في تلك الحقبة.وانعكس رخاء جلفار على حالها الاجتماعية والعمرانية، فزارها كثير من الأمراء وذوي الحظوة لاستيراد اللؤلؤ، وظهرت فيها المساجد والقلاع، وعرفت أسراً ميسورة، كما ظهرت فيها بعض المهن كصناعة الفخار التي لاتزال شاهداً على حضارة جلفار.

ومعظم هذه الأسواق اندثر وتراجع دوره، بينما ظل سوق جلفار مزدهراً حتى القرن السابع عشر، قبل أن تتراجع جلفار لتتقدم رأس الخيمة بمينائها وأسواقها، ويبدأ ازدهار أسواق الشارقة ودبي وأبوظبي، وتظهر أسواق العرصة في الشارقة

ورأس الخيمة ودبي، وسوق المناظر (المرايا)، وسوق السخام (الفحم)، وسوق الدلال، وغيرها من الأسواق التي توفر سلعاً وبضائع الحياة اليومية، وتخلق حراكاً اقتصادياً.

ويعد سوق العرصة في الشارقة، الذي مازال قائماً منذ ما يزيد على قرن ونصف القرن، من أقدم الأسواق في الإمارات، وقد ازدهر في القرن التاسع عشر، إذ كانت الشارقة مركزاً تجارياً مميزاً حتى النصف الأول من القرن العشرين، حيث تمركزت في المدينة عائلات تجارية معروفة، كانت على علاقة مع الهند وسيلان والبصرة وساحل إيران، ثم تراجعت هذه المكانة التجارية مع بداية النصف الثاني من القرن الماضي.

وسوق العرصة كان – ومازال - المركز التجاري لكل احتياجات مرتاديه، وكان في الماضي مركزاً لتجارة اللؤلؤ، فكانت سفن الغوص التراثية تأتيه حاملة اللآلئ من دول الخليج المجاورة، لتتم الصفقات التجارية في أجوائه، وفوق مقاعد مقاهيه. كما شهد قديماً تبادلات تجارية في الفواكه كالموز والمانجو والتمور، وأيضاً التبغ، وجميعها تأتي من الذيد ومسافي. وكان نقطة التقاء رحلات تجار البدو وجمالهم المحملة بالبضائع.

وبالتزامن مع فترة الازدهار التجاري التي شهدتها الشارقة، شهدت دبي أول أسواقها، حيث أقيم عام 1850م، أقدم سوق تجاري وقتذاك، هو السوق الكبير في بر ديرة أمام خور دبي، وشهدت المقاهي الشعبية في هذا السوق وغيره من الأسواق الإماراتية القديمة إبرام عديد الاتفاقيات التجارية وقتذاك.

ويعدّ بعض المؤرخين أنه مع بداية القرن العشرين صارت الأسواق التي ظهرت في الإمارات تسمى «البانيان»، وارتبطت بالتاجر القادم من الهند أو بلاد فارس، إذ كانت قائمة على تجارة اللؤلؤ، فما أن ترسو السفن محملة باللؤلؤ، حتى يتسلم «الطواش» أو تاجر اللؤلؤ الحمولة، ويقبل عليه البانيان لشرائه. كما كان سوق البانيان يشتمل على بضائع أخرى من الأغذية ومواد الطعام مثل الأرز والسمن والقهوة والتوابل. واشتهرت الشارقة بأنها سوق «المغر الأحمر»، وهي مادة تدخل في صناعة المواد الإنشائية، وتستخرج من جزيرة أبوموسى، وكانت هذه المادة تعدّ مورداً تجارياً رئيساً، شأنها شأن اللؤلؤ.

ثمة كثير من الأسواق القديمة في الإمارات، حيث كان لكل بلدة صغيرة أو قرية كبيرة على امتداد الساحل سوقها الخاص، وكذلك بالنسبة للمناطق الداخلية المأهولة بالسكان، وكانت تلك الأسواق تتباين من حيث الحجم، الذي يحدد حجم البضائع فيها، وعدد مرتاديها من التجار والباعة، كما يحدد مدى أهميته بالنسبة للسكان.

ولم يقتصر دور الأسواق على البيع والشراء والتبادل التجاري، بل تعدى إلى أن تكون مكاناً لتبادل الثقافات، وتفاعل الحضارات، ومصدراً مهماً لإحداث التغير المجتمعي، وتحسين أوضاع كثير من الأسر، فكانت منبراً للأخبار والشعر، ومسرحاً للحكاية، وملتقى للتعارف، وسداً لاحتياجات الناس، وكانت مقراً للقاءات الاجتماعية، ومرآة لحيوية الحياة.

وكان للمرأة في الإمارات حضورها القوي في الأسواق الشعبية، فكانت منتجة بشكل أساسي، وتعيش في مجتمع منفتح، يتفهم مسألة عملها وحراكها المهني، فهي لم تغِبْ عن الأسواق القديمة، فكانت تبيع

المحاصيل من «فجل» و«رويد» و«ليمون» و«سمن»، إضافة إلى دورها في صناعة المشغولات اليدوية، خاصة السدو والخياطة وحياكة السجاد. وربما تنفرد رأس الخيمة بأنها كانت تضم سوقاً خاصاً للنساء، ويقع خارج بوابة سوق الشيخ سلطان بن سالم، وتشكل الخضار مادته الرئيسة، حيث كانت النساء يأتين صباحاً لبيع الخضار التي تزرع في المنطقة الشرقية برأس الخيمة، كما أن هناك سوقاً للنساء قرب مستشفى الجيمي، حيث كان متخصصاً ببيع ما تحتاج إليه النساء من ملابس وأدوات الزينة.

ولم تزل الأسواق القديمة في الإمارات تشكل روح المكان وذاكرته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي مازالت تحمل صوراً من الماضي البعيد، تحضر اليوم لتكمل المشهد العريق الذي انصهرت فيه جميع الثقافات بخصوصية تاريخية، يتكئ عليها الحاضر بتفاعلاته الفريدة. هذه الأسواق القديمة كمنصات ثقافية وشعبية شكلت جزءاً من معرفة الإنسان، كما كانت ولم تزل مصدر الفرحة، وصانعة البهجة، هي حبلى بحكايات مسكونة في ذاكرة الناس ووجدانهم، تقف شاهدة على لحظات متميزة في حياتهم. ولطالما كانت الأسواق القديمة بمثابة النواة التي انطلقت منها – ولاتزال - النهضة التجارية والاقتصادية الكبيرة التي تشهدها مدن الدولة في وقتنا الراهن، فهذه الأسواق القديمة ذاكرة الدولة التجارية والاقتصادية، على مقاعدها الخشبية، يدوية الصنع، تم في الماضي إبرام الاتفاقيات التجارية والاقتصادية، ومن أمام هذه الأسواق في ميناء خالد بالشارقة وخور دبي وموانئ أبوظبي ورأس الخيمة وأم القيوين والفجيرة، شقت السفن الخشبية القديمة البحر محملة بالبضائع في الذهاب والإياب، لتصل إلى بومباي في الهند، وبندر عباس، وإلى زنجبار في الشرق الإفريقي. وقد قُيّض للإمارات أن تتفوق على غيرها من عديد البلدان التي تنبهت إلى قيمة الأسواق القديمة، وأدركت ضرورة العناية بهذه الأسواق كموروث حضاري تقليدي متكامل، من حيث الغنى التاريخي والثقافي والتجاري، وتشكل عناصره موروثاً معنوياً يستحق إدراجه في لائحة «اليونسكو». فقطعت شوطاً متقدماً في ترميم كثير منها، وبرعت في تأهيلها وتجميلها، وأعادت الروح إليها، كما

غدت عليه سوق العرصة بالشارقة، وسوق القطارة بالعين، وسوق الديرة بدبي، وغيرها من الأسواق، وواظبت على احتضان مهرجانات تعيد إلى الذاكرة تلكم الأسواق بصخبها وعبق روائحها الأصيلة، وبنفحات صور من حيثيات الحياة اليومية التي ظلت تشهدها منذ عقود.

فسوق البحر وسوق العرصة في الشارقة هما الأقدم والأكثر عراقة وروادا حتى الآن، ولايزالان مزاراً جاذباً للسياح وللوافدين ولأهل الإمارات، فسوق العرصة الذي تم ترميمه بصورة تكاد تطابق الأصل، وظل يحتفظ بشخصيته، وبعبق الماضي فيه، مازالت مقاهيه الشعبية موجودة، وكأنها شاهد على حقبة تاريخية مازالت تعشعش في الخاطر، وتسكن البال لدى أهل الإمارات.

وفي مدينة العين حظي سوق القطارة الذي يعدّ أقدم أسواقها، وظل شامخاً يجسد الماضي، بأولوية في إعادة الحياة إليه، فتمت إعادة ترميمه وفتحه أمام الزوّار والمتسوقين منذ عقد، ليظل رمزاً مهماً يجسد حقبة زمنية تعكس تاريخ المنطقة، ويضطلع بالدور المستقبلي له في تنشيط الحركة السياحية والثقافية للعين، وهو يستقبل السياح والوفود الرسمية، كما يستقبل طلاب المدارس والجامعات بزيارات هادفة.

ورغم النهضة المعمارية الحديثة التي تشهدها دبي في كل الاتجاهات، حيث غدت واحدة من كبريات المدن السياحية في العالم، فإنها لم تنسَ أبداً أسواقها القديمة؛ لأنها قلب دبي النابض، وإحدى ركائز انطلاقة قوتها، وإحدى روائعها التي تعانق بعراقتها وأصالتها آفاق الحاضر والمستقبل، فقد قامت دبي بترميم هذه الأسواق القديمة، لتكون مزاراً للسياح الذين تبهرهم عراقتها وأنواع منتجاتها.

ومهما زحفت الحياة العصرية ببريقها صوب الأسواق الحديثة، فلن تمحو عشق الأسواق القديمة، ولن تُقلّل من حيويتها، ولا من تأثيرها الاقتصادي، وما يعكسه من القوة الاقتصادية في المجتمع، ولن تضعف أدوارها الثقافية، فرغم عمرها المديد لم ترضخ الأسواق القديمة لتحديات الزمن، وباتت لا تقل حضوراً وازدحاماً بالناس عن الأسواق العصرية، بل أضحت وجهة للسياح والزوار الذين يمرون في مدن الإمارات، ويعدّون أن وهج الزيارة لا يكتمل دون الغوص في هذه الأسواق.

الأسواق التراثية .. تنشّط الاقتصاد وتدعم السياحة

بكر المحاسنة
كاتب - الأردن

تؤثّـر الأسـواق التراثيّـة في الحركـة الاقتصاديّـة في الإمارات، بسبب طبيعة الزائر، والحضور العربي والأجنبي في بلـد مثل الإمـارات، تميّـز بتنوعـه الثقافي والسياحي والبيئـي، الـذي يعكـس امتـداده التاريخـي والجغـرافي. فالـتراث الإمـاراتي متميـز بأصالتـه ودلالتـه عـلى زمـن مـاضٍ، لـه رائحتـه التراثيـة، ومـن حيـث اسـتخدام أدوات المعيشـة آنـذاك، فـإنّ ذلـك يعطـي السـوق الاقتصادية حركـة واضحـة، حـين يعـود الزائـر إلى بـلاده، وهـو يحمـل مقتنيـات قديمـة، خصوصـاً مقتنيـات الحـرف اليدويـة والتقليديـة، مثـل السـيوف والخناجـر، عـلى سـبيل المثـال، حتـى إن الدولـة تشـتمل عـلى معـارض خاصـة في جميـع إماراتهـا السـبع، بمـا تمتـاز بـه كل إمـارة مـن خصوصيـة، حسـب البيئـة الصحراويـة أو الجبليـة أو الزراعيـة أو السـاحلية البحريـة.

ولذلـك تنتـشر تفاصيـل المـاضي، المتمثلـة في صناعـة السـفن وأدوات البحـارة والمحامـل والأشرعـة، وكذلـك البيئـة الصحراويـة أو البدويـة مثـل صناعـات مسـتمدة مـن الليـف أو سـعف النخيـل كالحبـال مثـلاً، أو صناعـات كانـت رائجـة فيـما مـضى مثـل صناعـة السـخام أو الفحـم وخلافـه، وكذلـك أدوات شرب المـاء وسـحبه مـن الطـوي (البـئر)، وغـير ذلـك مـن متطلبـات وأدوات وأسـاليب تلـك الحيـاة.

كـما أن رؤيـة دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة للسـنوات القادمـة هـي في تمكـين الصناعـات الإبداعيـة والثقافيـة، وجعلهـا حـاضرة في الإسـهام بنسـبة تطمـح لهـا القيـادة الرشـيدة في إجـمالي الناتـج المحـلي، إذ بلغـت الإمـارات نسـبة طيبـة قياسـاً بتوجهـات العـالم في ترسـيخ هـذه الصناعـات الإبداعيـة والاحتفاليـة أيضـاً، مثـل المهرجانـات والمأكـولات الشـعبية التـي تـدر دخـلاً عـلى الأسرة، وتمنحهـا اقتصـاد الكفـاف عـلى الأقـل، فـإذا مـا تـمّ تنظيـم هـذه العمليـة، فـإنّ الحركـة الاقتصاديـة سـتزدهر أكـثر، وهـذا بشـهادة مؤتمـرات عربيـة وعالميـة، في إشـادتهم بمـا حققتـه الإمـارات في هـذا الجانـب.

قيمة معنوية واقتصادية

إنّ تشـجيع الأسرة الإماراتيـة عـلى الثقـة بالمنتـج الثقـافي الإبداعـي المتنـوع، هـو السـبب الأول في زيـادة النسـبة التـي تأخـذ مكانهـا في البـازارات والمحـال والفنـادق وفي المطـارات والمهرجانـات، وكذلـك في تسـويقها خـارج الدولـة. لذلـك فالـتراث هـو عنـصر إنتاجـي مهـم، وهنـاك قيمـة معنويـة، إضافـة إلى القيمـة الاقتصاديـة لهـذا الـتراث بعنـاصره ومفرداتـه المتعـددة، بـل إنّ مـن التحـف مـا يبـاع بأسـعار باهظـة في دول العـالم، ويدخـل مـزادات رفيعـة، وبالمثـل فـإنّ الإمـارات في ترويجهـا تراثهـا، تمثـل بلـداً ناضجـاً في الوعـي، وإدراك قيمـة الصناعـات التقليديـة، والمتاحـف التـي يزورهـا العـالم. وتكفـي نظـرة عـلى المعـارض الوطنيـة والمتاحـف للدلالـة عـلى ذلـك، أمّـا الأسـواق التراثيـة، فتحتـاج تنظيـماً وإدماجـاً لـلأسرة والأفـراد؛ لـكي يتعاملـوا مع المـادة التراثيـة أيّـاً كان نوعها تراثـاً ماديّـاً أو غـير مـادي (محـكي وشـفاهي)، تعامـلاً اقتصاديّـاً يحتـاج إلى خطـة ورؤيـة ثقافيـة اقتصاديـة، ومدخـلات ومخرجـات بطبيعـة الحـال.

عبدالله عبدالرحمن

أكـد البـاحث والكاتـب عبداللـه عبدالرحمـن أن الأسـواق التراثيـة لهـا تأثـير كبـير في الاقتصـاد المحـلي، مثـل أسـواق العرصـة أو المريجـة والشـناصية ومثيلاتهـا في بقيـة الإمـارات، وهـي دائمـة كمقـار لمجموعـات مـن المحـال والمبيعـات المتنوعـة جمعـاً بـين القطـع التراثيـة القديمـة الأصليـة والمقلـدة، والمـواد الاسـتهلاكية الغذائيـة المتوارثـة والأطعمـة والمطاعـم الشـعبية، والمحـال المتفرقـة في المراكـز التجاريـة وغيرهـا مـن الأسـواق العامـة التـي تتخصـص في بيـع المقتنيـات والمصنوعـات والقطـع التراثيـة المصنعـة محليـاً أو المسـتوردة، وغالبـاً بأسـعار مرتفعـة، ومـن الخشـب والنحـاس والفضيـات التـي تسـهم في تعزيـز دعـم الاقتصـاد المحـلي.

وأوضـح عبداللـه عبـد الرحمـن أن الأسـواق الشـعبية ومحالهـا ومنتجاتهـا ومعروضاتهـا التـي تقـام في المناسـبات مثـل أيـام الشـارقة التراثيـة ومهرجانـات سـباقات الهجـن والرياضيـات التراثيـة ومهرجـان الرطـب، تسـهم أيضـاً في تعزيـز الاقتصـادي المحـلي ودعمـه. ويؤكـد أننـا بدايـة يجـب علينـا أن نحـدد ونرصـد طبيعـة هـذه الأسـواق والمنتجـات ومراحـل التطـور، وحجـم الاهتـمام القائـم عـلى إحيائهـا، ومن ثـم القـوة الشرائيـة والجمهور المسـتهدف مـن المواطنـين والمقيمـين والسـياح، بـل يمكـن التطـرق إلى مكانـة هـذه الأسـواق في التعبـير عـن الهويـة الوطنيـة للمجتمـع والدولـة، إضافـة إلى الأهميـة في الناتـج المحـلي وطموحـات التطويـر وزيـادة الانتشـار.

والأسـواق الشـعبية تمثـل المـاضي الـذي يتجـاوز عمـر بعضـه قرنـين مـن الزمـان، تجـر معهـا هـذه الأسـواق مـع البضائـع التاريخيـة أيضـاً المعـمار التاريخـي القديـم، الـذي كانـت تعـرض فيـه تلـك المنتجـات.

د. سالم زايد الطنيجي

وأضـاف الدكتـور سـالم زايـد الطنيجـي، أسـتاذ الدراسـات الإماراتيـة في كليـات التقنيـة العليـا بالشـارقة، والباحـث في الـتراث الإمـاراتي، يقـول: إن الأسـواق التراثيـة لهـا تأثـير إيجـابي في الحركـة الاقتصاديـة في الإمـارات؛ لأن هـذه الأسـواق التراثيـة، سـواء كانـت أسـواقاً تراثيـة دائمـة أو مؤقتـة مثـل الأسـواق التـي تقـام في المهرجانـات والفعاليـات التراثيـة والوطنيـة، تشـهد حركـة بيـع وشراء للبضائـع والمنتجـات، مـا يحـرك عجلـة الاقتصـاد محليـاً.

د. إبراهيم الدرمكي

د. دلال مطر الشامسي

خالد بن جميع الهنداسي

آمنة أحمد صابر الظنحاني

ويقول الباحث الدكتور إبراهيم الدرمكي، الأستاذ المساعد في الدراسات الدولية في جامعة زايد بأبوظبي: من فوائد الأسواق التراثية أنها ذات تأثير إيجابي في الحركة الاقتصادية المحلية في الإمارات، فهي تعدّ محفزة لقطاع السياحة والتجارة، فالمشاريع التجارية بلمساتها الحديثة وصيحاتها الحديثة، وبعضها مستمد من أسماء تاريخية ومنتجات تراثية، كما هي الحال في المتاجر العالمية، مثل علي بابا، وشركات تأخذ أسماء الخيّام وعلاء الدين والسندباد البحري وغيرهم من مكونات التراث الثقافي القديم، إذ تزخر دولة الإمارات بالعديد من الأسواق الثراثية التي تعود بمرتاديها إلى شعور حياة الماضي الجميل، ويتردد عليها الزوار والسياح من مختلف الجنسيات، ما يزيد من القوة الشرائية لمنتجات هذه الأسواق ومعروضاتها، الأمر الذي يعود بشكل إيجابي على الاقتصاد المحلي.

وأوضحت د. دلال مطر الشامسي، أستاذ مشارك في جامعة الإمارات العربية المتحدة، ومهتمة بالتراث المحلي، تقول: تعد الأسواق التراثية إجابة لتساؤلات العديد من أفراد المجتمع من الجيل الحديث، ومن السائحين والمقيمين الجدد، تثبت عراقة الماضي، وأيضاً ملاذاً للأجيال الرائدة من ضغوط الحياة المتسارعة.

ففي الأسواق التراثية صورة مبسطة وواضحة عن المجتمع الأصيل، باحتياجاته وعاداته وتاريخه، في الترحيب والطعام واللباس والمفردات اللغوية المطبوعة على البضائع التراثية، والتي تثري أسئلة السائلين، وتغذي حنين من عايشوا هذه الفترة، أو من كانت نشأتهم مع تلك الفئة الأصيلة التي كانت تعيش التراث بكل تفاصيله.

وتضيف: نحن نزور الأسواق التراثية لنحمل معنا أثراً من أصالة هذا المجتمع، وإجابة عن سؤال ظل ينحت في نفوسنا عن تاريخ هذا الشعب المضياف المحافظ.

وأكد الكاتب والباحث خالد بن جميع الهنداسي، أن الأسواق التراثية لها تأثير كبير وواضح في الحركة الاقتصادية في دولة الإمارات في ظل النمو الاقتصادي، وبعض الأسواق التراثية تدعم الحركة الاقتصادية، من خلال دعم الأسر المنتجة، فالأسواق التراثية في الإمارات تعمل على دعم الاقتصاد المحلي، ودعم السياحة الداخلية والخارجية، فهي تعمل على جذب أعداد كبيرة من المواطنين والزوّار، من داخل الإمارات وخارجها، من خلال جودة البضائع والمنتجات المعروضة، وندرتها في بعض الأسواق العالمية أو المولات.

كما أننا نشاهد الكثير من الأسواق التراثية على مستوى دولة الإمارات العربية المتحدة، في المهرجانات والقرى التراثية تزداد شعبيتها يوماً بعد يوم، ما يجعل من السلع الشعبية والمنتجات التراثية عامل جذب متجدد وقوي للسياحة في القطاعين محلياً وإقليمياً.

لكن آمنة أحمد صابر الظنحاني، عضو مجلس إدارة هيئة الفجيرة للسياحة والآثار وخبيرة التراث الإماراتي، كان لها رأي مختلف، فتقول: التأثير يأتي بعد أن يكون لهذه الأسواق حركة ناشئة عن سوق دائم يدعم الصناعات التراثية، وفي الوقت الحالي، التأثير ضئيل ولا يذكر. وتتساءل: متى سيظهر هذا التأثير الدور الاقتصادي، وتجيب: إذا أصبح لهذه المنتجات انتشار أوسع وتحت مظلة واحدة لها أفرع وانتشار ملحوظ، ووجهة واضحة، هذا على مستوى الإمارات، لكن بالنسبة للأسواق التراثية العربية والعالمية، أقول نعم هناك تأثير كبير وإيجابي في الحركة الاقتصادية، فالسائح لا يقصد المولات أو الأسواق ذات البضائع المتكررة، وإنما ما يقصده السائح تلك الأسواق التي تحمل الطابع التاريخي التراثي لكل بلد أو دولة، بمنتجاتها التراثية.

أسواق العرب قديماً..

ازدهار على امتداد جزيرة العرب

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

اشتهرت المنطقة العربية، وبالأخص شبه جزيرة العرب، بأسواقها التجارية، وهو أمر يعود إلى الحركة التجارية مع الخارج، وتنوع منتجات الداخل، تلك الأسواق شكلت جزءاً كبيراً من نسيج الحياة والمجتمع، وأفصحت وكشفت عن حركة سياسية وثقافية ودينية، ورغم أنها مقر بيع وشراء، ولكنها أيضاً محل تناقل الأخبار وتثبيت السلطة، وإن كان ذلك ليس غرضها.

انتشرت الأسواق في أجزاء شبه الجزيرة العربية، وتنوعت فيها البضائع، واشتهر بعضها عن غيره بتخصصه أو بجودة بضائع محددة فيه، ومن أشهرها عكاظ، ودومة الجندل، والمشقر، وعدن، وذو المجاز، وحباشة، ودبا، وصحار، ورابية حضرموت، ومجنة، وصنعاء، وغيرها كثير، واتسمت بأنشطة أخرى، سوى البيع والشراء، فالنشاط الثقافي والسياسي سمة من سمات سوق عكاظ، واتضح النشاط الديني في المشقر ودومة الجندل، وكذلك السياسي والاجتماعي.

ويعرف عن العرب أنهم مارسوا التجارة في الأسواق قبل الإسلام بزمن طويل، وهو ما أشارت إليه مصادر كثيرة، ويستشف من الأقاويل والسير الشخصية للمهن التي اشتغل بها سكانها، رجالاً ونساءً. ومن مظاهر تحضرهم انتشار الأسواق وامتهان التجارة، وحين مجيء الإسلام، فإن أغلب تلك الأسواق بدأ يفقد مكانته، وأزيل؛ بسبب تعارض ما يقام فيه مع قيم الإسلام ومبادئه.

تجارة وأنشطة

يقال عن سوق عكاظ، إنه أعظم أسواق العرب شأناً، ولا يوجد سواه أو ما يشابهه، أو ما يقترب من مكانته، فتجتمع فيه كل الأنشطة التجارية والسياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، ويشار إلى أن اسمه مشتق من التجمع والتفاخر، بينما أشارت مصادر أخرى إلى أنه ينسب إلى أرض مستوية ليس فيها جبل، كان السوق يقام شهراً، حيث يجتمع فيه العرب، وكانت قريش على رأس القبائل التي تحيي مكانة ذلك السوق، لما كان لديها من نفوذ وتجارة وتحالفات كانت تحميهم حتى من قطاع الطرق.

واشتهر سوق دومة الجندل، الذي يقع بين العراق وبلاد الشام، وقد سُمي بذلك كونه بني بالجندل، وكان يقام مرة في العام، ليحضره البائعون والمشترون، ويعتبر من أكبر أسواق العرب، بسبب موقعه. ويعتبر سوق المشقر بين البحرين ونجران من أهم الأسواق التي عرفت بأجود أنواع التمور التي اعتبرت طعاماً أساسياً عند العرب، وسمي أيضاً بسوق هجر، وكان مؤقتاً كسابقه.

مجنة وذو المجاز.. أسواق الحجاج

تقع مجنة بالقرب من مكة، وكان يقام فيها سوق أيام موسم الحج؛ ولذلك حدد بأيام معدودة، فكان يغادره الناس برؤية هلال ذي الحجة إلى سوق ذي المجاز، وظل السوق فترة في الإسلام، أما سوق المجاز فيعد الأكبر بعد عكاظ، سوى أنه يصغره حجماً.

ويقال إنه بعد هلال ذي الحجة، يسير الناس إلى ذي المجاز، ويقيمون حتى

الترويـة، وكان يفـده الحجاج والتجار وغيرهـم، وكان العرب الذيـن جـاؤوا للحـج يحضرونـه، خاصـة مـن لم يكـن شـهد الأسـواق، ينتهـون منـه، ويتوجهـون لحجهـم، فيصـدرون إلى منـى ثـم يقفـون بعرفـة، ويقضـون مناسـكهم ثـم يتوجهـون لأوطانهـم.

سوق أهل الحجاز واليمن

كانـت أسـواق حباشـة، عـدن، صنعـاء، الرابيـة، مـن الأسـواق التـي وفدهـا بكـثرة أهـل الحجـاز واليمـن، فسـوق حباشـة يعـد مـن أكبـر أسـواق تهامـة، وكان يقـام في شـهر رجـب وتفـده القبائـل العربيـة المجـاورة مـن الحجـاز واليمـن، وكان آخـر أسـواق العـرب التـي تركـت بعـد مجـيء الإسـلام.
وسـوق عـدن، الـذي يقـال إن اسـم مدينـة عـدن الجنوبيـة ينسـب لـه، مـن أهـم أسـواق الخضـار والفواكـه، ونظـراً لموقـع المدينـة المميـز، غـدا السـوق التجـاري منتعشـاً للغايـة، حيـث إطلالتـه البحريـة، ومـا يفـده مـن مراكـب تجاريـة، تـزوده خاصـة بالمطيبـات مـن البهـارات والأطايـب مـن العطـور الخـام، وأنـواع المعـادن.
وفي سـوق صنعـاء، الـذي يقـع شـمالي شـرق عـدن وسـط اليمـن، تفـوح خـيرات وأطايـب الفواكـه والحبـوب واللبـان والنخيـل، وكان يفـده النـاس مـن سـوق عـدن، ويمكثـون فيـه حتـى ينقشـع، ثـم يعاودونـه السـنة المقبلـة. وبحضرمـوت كذلـك أرض اللبـان نجـد سـوق الرابيـة في شرق اليمـن، وهـو سـوق صغـير للعـرب، ووصـف بالسـوق الصغـير كونـه يخـدم المناطـق المحيطـة بـه فحسـب، وعـدداً محـدوداً مـن أفـراد القبائـل.

صحار ودبا

سـوق صحـار، الـذي يقـام في أقـدم مـدن عُـمان، يحـضره تجـار البـلاد رغبـة في أن يحظـوا بأفضـل خـيرات الفواكـه مـن سـفرجل وموز ورمـان ومنتجـات النخيـل، بالإضافـة إلى بضائـع اليمـن التـي تفـد إليـه، وكان تجـاره يتسـمون بالـثراء، حتـى قـورن بـثراء تجارتـه بعـدن ومـصر، ومـا سـاعده عـلى تلـك السـمعة التجـارة البحريـة.
يتجـه التجـار لسـوق دبـا، الـذي يقـع إلى جانـب صحـار، ويتسـم بقربـه مـن البحـر، وتوسـطه عُـمان والبحريـن، يأتيه التجـار مـن الهنـد والسـند والصـين والمـشرق والمغـرب، ويشـار إلى أن دوره التجـاري كان محوريـاً قبـل أن يطغـى عليـه سـوق صحـار.

تمايز وتنوع

واشـتهرت الأسـواق بالعديـد مـن المنتجـات المحليـة والمسـتوردة، ولعـل التنـوع الجغـرافي في شـبه الجزيـرة العربيـة والتجـارة البحريـة أسـهما في ذلـك، ووجـود الأرض الزراعيـة شـجع عـلى اسـتثمارها في زراعـة الحبـوب والفواكـه، كـما أن زراعـة النخيـل وفـرت سـلعة أساسـية هـي التمـر، واشـتهرت بهـا المدينـة المنـورة وخيـبر وهجـر، بينـما عرفـت الطائـف بكرومهـا، فيـما اشـتهرت اليمـن بالفواكـه.
واعتـبرت الـثروة الحيوانيـة مـن عصـب الحيـاة كالإبـل والخيـل والبقـر والغنـم والبغـال والحمـير، وكانـت الـثروة تقـاس بملكيتهـا، ولعـل منتجاتهـا كانـت مـن أبـرز مـا تداولتـه الأسـواق. واعتـبرت تجـارة المنسـوجات مـن أهـم السـلع المتداولـة، وخاصـة المنسـوجات اليمانيـة، وكذلـك الثيـاب النجرانيـة وغيرهـا مـن البحريـن والعـراق وعُـمان والحجـاز ومـصر والشـام والصـين.
ومـن المنتجـات التـي اشـتهرت بهـا الأسـواق الأسـلحة التـي أولاهـا العـرب أهميـة فائقـة، كـما كانـت تجـارة العطـور ذات مكانـة مهمـة، واسـتمرت تلـك الأهميـة حتـى بعـد أن جـاء الإسـلام، وأشـهر المسـك كان تبتيـاً وصينيـاً وسـغدياً وهنديـاً، وكذلـك هـو العنـبر، ومنـه العنـبر الزنجـي، وعـد أيضـاً الكافـور والعـود، ومنـه القـماري مـن الهنـد، مـن أشـهر المنتجـات، كـما اشـتهرت الأسـواق بأصبـاغ الملابـس والشـعر كالحنـاء، أمـا لـلأولى فاسـتخدم الـورس والزعفـران والعصفـر.

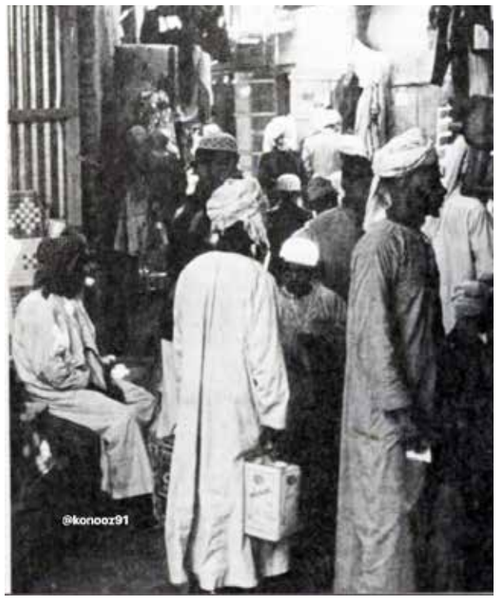

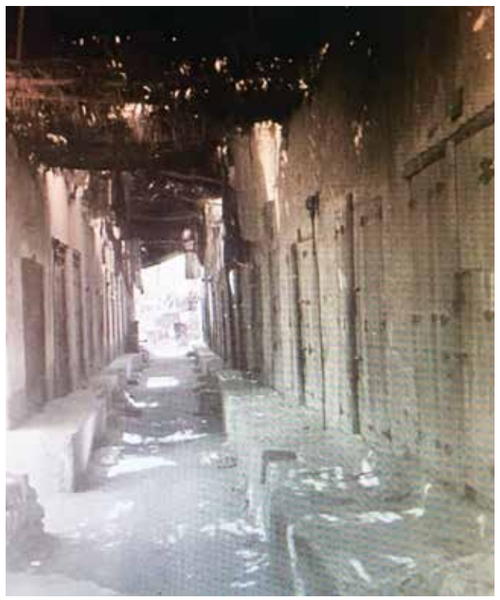

حجاج سلامة
كاتب - مصر

أسواق مصر التراثية

مراكز لصون الحرف الشعبية وإحيائها ومحطات مهمة لجذب السيّاح

كثيرة هي الأسواق التراثية في مصر، والتي صار بعضها اليوم محطات مهمة لجذب السياح من المصريين والعرب والأجانب، ومراكز لصون وإحياء كثير من الصناعات والحرف الشعبية والتاريخية، وحمايتها من الاندثار.

وكانت تلك الأسواق التراثية المصرية، ولاتزال، شاهدة على الحركة الاقتصادية بالبلاد، بل تلعب اليوم وظيفة اقتصادية مهمة، تتمثّل في تحوّلها إلى مقاصد دائمة لجموع السياح، إضافة إلى دورها حاضنةً لكثير من الحرف والصناعات التراثية.

وبحسب المصادر التاريخية، فإن ما شهدته مصر من رواج اقتصادي، قد تمثّلت دلائله في الأسواق التي كان عددها كبيراً من ناحية، وكانت تموج بالحركة والنشاط، وتزدحم بأصناف البضائع من ناحية أخرى.

وقد أحصى لنا ثلاثة من المؤرخين الكبار، هم: المقريزي، وابن دقماق، وابن إياس، أسماء الأسواق في القاهرة والفسطاط، وذكروا لنا أسماء تلك الأسواق، وسجلوا لنا الحركة التجارية فيها، وكيف اندثر بعضها، وبقي الآخر كنتيجة طبيعية لتأثر تلك الأسواق بالحركة الاقتصادية بالبلاد، وتتبع المؤرخون الثلاثة في مؤلفاتهم نشأة تلك الأسواق وتطورها، وتأثرها بالحركة الاقتصادية بالبلاد آنذاك.

ووفقاً للمصادر التاريخية، فإن مدينة الفسطاط التي كانت أول عاصمة لمصر في العصر الإسلامي، عرفت تنظيم الأسواق المتخصصة التي أطلق عليها أسماء أرباب الحرف التي كانت تُباع فيها مصنوعاتهم، مثل أسواق: النحاسين، والعيارين، والبزازين، والوراقين، والعطارين وغيرها.

وبحسب الرحّالة ناصر خسرو، فإن مدينة الفسطاط عرفت خلال العصر الفاطمي أسماء 200 سوق، وإلى جانب تلك الأسواق كان هناك سوق كبير يمتد بطول المدينة.

كما عرفت الفسطاط مجموعة من «القياسر»؛ (جمع قيسارية)، وهي سُوقٌ كَبِيرٌ فِي الْمُدُنِ العَتِيقَةِ تُبَاعُ فِيهِ الأَثْوَابُ وَالزَّرَابِيُّ وَنَحْوُهَا، ولا يزال بعض هذه الأسواق باقياً حتى اليوم.

وفي ضاحية الدرب الأحمر، إحدى المناطق الشعبية الحيوية في القاهرة الفاطمية، التي تشتهر بالكثير من الحرف اليدوية، كانت هناك أسواق تراثية عدة، مثل أسواق «الشماعين»، و«الكحكيين»، و«السيوفية»، و«الخيّامية»، و«السلاح».

كما عرفت الدرب الأحمر بصناعة الفوانيس التراثية، والتي استخدمت منذ القدم كمصدر من مصادر الإضاءة، وتطورت أشكالها وأحجامها وخاماتها تطوراً كبيراً على مر العصور.

وتعد المنطقة اليوم سوقاً ومركزاً لتصنيع وتوزيع «فوانيس رمضان» التي تنتشر في الأحياء المصرية طوال أيام وليالي شهر الصوم.

أسواق تراثية باقية

وإذا كانت مصر قد عرفت الأسواق الشعبية القديمة، فإنها عرفت اليوم بعض الأسواق التراثية التي باتت مقاصد سياحية، تستقبل الآلاف من الزوار في القاهرة والأقصر وأسوان، وغير ذلك من مدن مصر السياحية.

ويأتي سوق خان الخليلي، كواحد من أشهر الأسواق التراثية المصرية العتيقة التي تعد مزاراً سياحياً شهيراً في قلب العاصمة القاهرة.

ويرجع تاريخ خان الخليلي لأكثر من 600 عام مضت، وكان مصدر إلهام لكثير من الكتاب والفنانين، والرحالة والمستشرقين على مدار قرون.

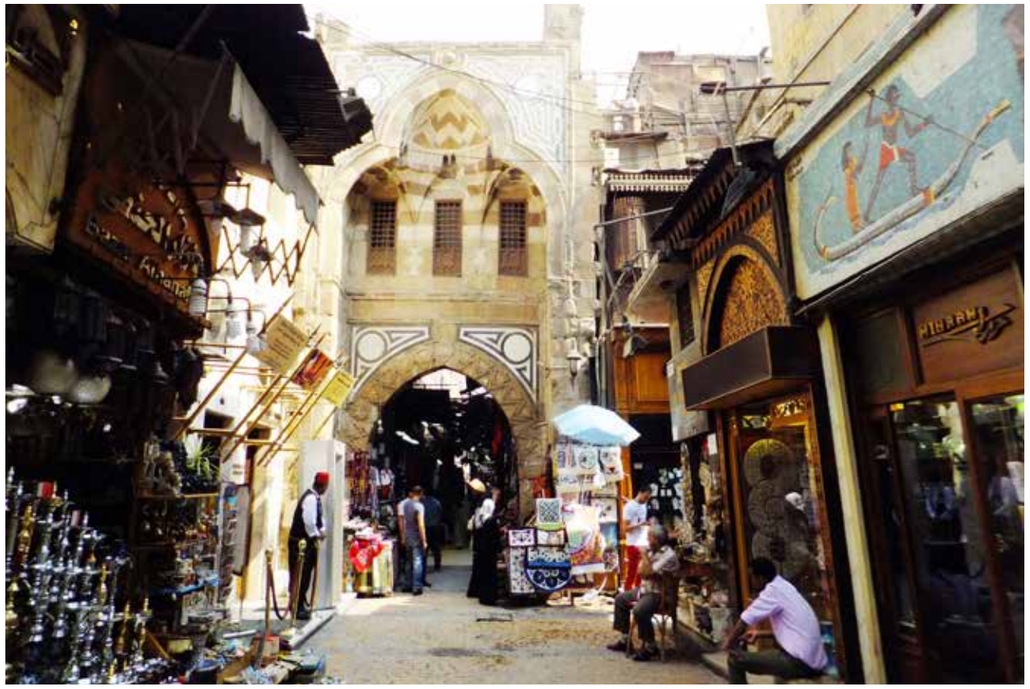

وقد وصف أبوالعباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد المقريزي، صاحب الخطط المقريزية، حي وسوق خان الخليلي بقوله: «إن الخان مبنى مربع كبير، يحيط بفناء ويشبه الوكالة، تشمل الطبقة السفلى منه الحوانيت، وتضم الطبقات العليا المخازن والمساكن، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى منشئه الشريف (الخليلي) الذي كان كبير التجار في عصر السلطان برقوق عام 1400م».

وأما اليوم، فإن سوق خان الخليلي، هو واحد من أقدم الأسواق التراثية في مصر، حيث يحتفظ بمعماره القديم منذ عصر المماليك.

ولم يتأثر السوق بعوامل الزمن، وظل يحتفظ ببهائه القديم، ليكتب عنه الأدباء، وترسمه ريشة الفنانين، ووصفه الأديب العالمي الراحل نجيب محفوظ في روايته «خان الخليلي» التي حملت اسم السوق بقوله: «ستجِد في الشارع الطويل، عِمارات مُربعة القوائم، تصِل بينها ممرات جانبية، تقاطع الشارع الأصليّ، وتزحَم جوانب الممرات والشارع نفسه بالحوانيت (أيّ الدُكان)؛ فدُكان للساعاتي وخطاط وآخر للشاي، ورابع للسجاد وخامس للتُحف وهكذا. بينما تقع هُنا وهناك مقاهٍ لا يزيد حجم الواحدة منها عن حجم الحانوت (الدُكان) الصغير، وقدّ جلسَ الصنّاع أمام الدكاكين يكبون على فنونهم في صبر».

وُيذكر أنّ الخان هو مبنى على شكل مربع كبير، ويحيط بفناء يُشبه الوكالة، فيما تضُم الطبقة الوسطى منهُ المحال، أما الطبقات العليا فتحتضِن المخازن والمساكن.

سوق الأقصر

وإذا ما ابتعدنا عن العاصمة القاهرة، واتجهنا جنوباً، وتوقفنا في مدينة الأقصر، عاصمة مصر القديمة التي تضم بين جنباتها مئات المقابر، وعشرات المعابد التي شيدها قدماء المصريين قبل آلاف السنين، فإننا سنجد المدينة تعج بأسواقها التراثية والسياحية التي تمتلئ بالهدايا والمنتجات التراثية، التي يُقبل السياح على شرائها، فهنا سوق سافوي التراثي، ومعارض ومصانع «الألباستر» في القرنة، والتي تشتهر بالفنانين الفطريين الذين ينحتون التماثيل واللوحات الفرعونية لبيعها للسياح.

لكن سوق الأقصر السياحي، الذي كان يُعرف قديماً بسوق «البركة»، هو أقدم أسواق المدينة، وكان يُعرف

أيضاً باسم «وكالة النخيلي» وهو السوق الوحيد الذي حافظ على المهن والمعروضات نفسها التي كان معروفاً بها منذ عشرات السنين، ويضم السوق البازارات التى تبيع التحف والهدايا من منتجات خان الخليلي، من الجلود والنحاس والسجاد والنسيج والألباستر والتماثيل الفرعونية المقلدة التي تشتهر بصناعتها منطقة القرنة الواقعة في البر الغربي من مدينة الأقصر، بجانب محال لبيع العطور والعطارة والتوابل والفول السوداني والكركدية والحناء البلدي المصرية.

سوق أسوان

وفي أقصى جنوب مصر توجد مدينة أسوان، التي تعد أحد أشهر المشاتي السياحية في العالم، والتي تشتهر بسوقها الكبير الذي يتوسط المدينة، وتطل بوابته الرئيسة على كورنيش نهر النيل الخالد، وهو يشبه إلى حد كبير سوق الأقصر، لكنه يتفرّد بتلك المنتجات التراثية التي يتم إنتاجها في القرى النوبية داخل مدينة أسوان، وهي حرف وصناعات قديمة حافظ عليها أهل أسوان، وبقيت حاضرة في الذاكرة الشعبية، لتتناقلها الأجيال من جيل إلى جيل، وباتت اليوم تلك

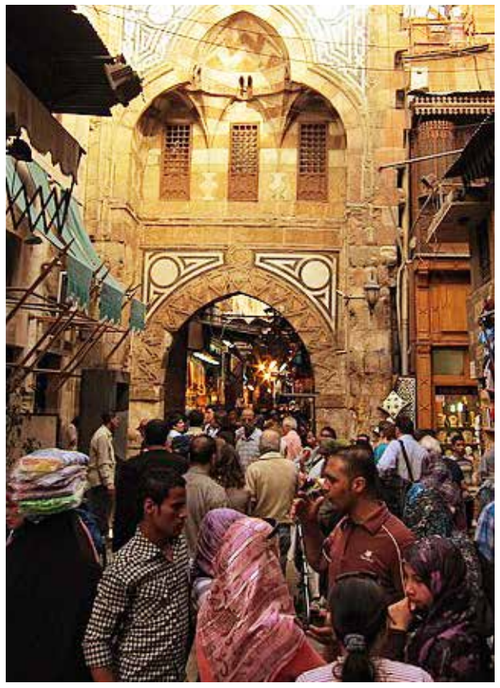

المنتجات التراثية محط إقبال كبير من قبل زوار أسوان من السياح المصريين والعرب والأجانب، وليسهم سوق أسوان في حفظ تلك المنتجات الحرفية، وفي بقائها وعدم اندثارها من خلال تشجيع أصحاب تلك الحرف والصناعات الشعبية والتراثية على الاستمرار في الإنتاج، وبقاء تلك الحرف والصناعات حيّة عبر تسويقها وبيعها للسياح.

ومن اللافت أن الأسواق التراثية المصرية، مثل أسواق خان الخليلي، والأقصر، وأسوان، بقيت شاهدة على الحضور الفاعل للأسواق في الحضارة الإسلامية، وعلى دورها في التفاعل الحضاري بين الشعوب، وتعميق التواصل بينها، باعتبار أن تلك الأسواق مهداً للتثاقف بين الأمم على اختلاف أعراقها وانتماءاتها، ففي تلك الأسواق التراثية في القاهرة والأقصر وأسوان، وغيرها من مدن مصر التاريخية تتلاقى الوجوه من كل القارات والثقافات، يترافقون ويتحاورون، ويطلعون على حرف تراثية وصناعات تاريخية لثقافات أخرى غير تلك التي عرفوها وخبروها في بلادهم، وهكذا لعبت تلك الأسواق التراثية دوراً ثقافياً وحضارياً مهماً، بجانب كونها تقف شاهداً حياً على الحركة التجارية في البلاد.

أسواق طرابلس

رحلة في التاريخ في قلب الواقع

عبير كزبور
كاتبة - لبنان

إذا أردت العيش في حقبة تمتد إلى أكثر من ألف سنة، بعيداً عن تطور التكنولوجيا وزحمة الإنترنت، فعليك بالتوجه إلى مدينة طرابلس شمالي لبنان، حيث يقع السوق الشعبي القديم، الذي يعود إلى أكثر من 1100 عام، والذي يحمل بصمات حضارية عدّة على مدى قرون، لعلّ آخرها بصمة العثمانيين. ويختلط طابع السوق ما بين تراثيّ وشعبيّ، يقصده كثيرون من أهالي المنطقة لشراء حاجاتهم من ملابس ولحوم وخضار وهدايا وذهب وغيرها.

تصوير: جمال ساعاتي

يوجد في مدينة طرابلس، عاصمة الشمال، ما يزيد على 100 معلم أثري قديم. لكل معلم من المعالم أهمية تراثية وطابع أثري عريق، يبرز جمال المدينة، ويحيي تاريخها القديم. تملأ مدينة العلم والعلماء الكثير من المساجد، الحمّامات، الخانات، المدارس الدينية والعلمية، القلاع والأسواق الشعبية. وأسهمت الأسواق القديمة الموجودة في المناطق الطرابلسية الشعبية، في جعلها كنزاً غنياً بالحرف المميزة، وصناعة مختلف المنتجات التي تدعم اقتصاد طرابلس. تتمثّل هذه الأسواق في سوق العطّارين الذي يبيع الأعشاب والبهارات، وسوق الخضار المختص ببيع الخضار، وخان الصابون الذي يعنى ببيع وصناعة الصابون، وسوق النحّاسين الذي يقوم على صناعة القطع النحاسية المنقوشة بأجمل الزخارف والتفاصيل.

نبذة عن تاريخ المدينة

طرابلس هي العاصمة الثانية للبنان بعد بيروت، وتعني مدينة المدن الثلاث (صور وصيدا وأرواد). كانت طرابلس عاصمة للفينيقيين سنة 300 قبل الميلاد، وتعاقبت على حكمها دول عدة، مثل الرومان والبيزنطيين والمماليك والفاطميين والعثمانيين.

تشتمل طرابلس على بضع مئات من المواقع الأثرية، يعود معظمها إلى القرن الرابع عشر. فهنالك العديد من المساجد المملوكية والعثمانية، كما توجد العشرات من المدارس، والخانات، والحمّامات. وتشكّل الأسواق والخانات المكان المناسب لاحتضان العديد من الحرف كالخيّاطين، والصّياغ، والعطّارين، والدبّاغين، وصانعي الصابون، والنحّاسين، وغير ذلك من الحرف المتوارثة التي تمارس ضمن بيئة وفي أبنية وعمائر لم تتغير منذ العصور الوسطى حتى الآن، فعندما يصل الزائر إلى الساحة المركزية لطرابلس (التلّ)، يجد الساعة العثمانية ذات الطبقات الخمس، المُهداة من السلطان عبدالحميد الثاني، وبجوارها حديقة المنشيّة، وقصر نوفل العثماني، وقد حوّلته بلدية المدينة إلى مركز ثقافيّ، وترى من حول ساحة التلّ المباني السكنية والتجارية والفنادق ذات الطراز العثماني، ومن ساحة التل يذهب الزائر إلى الأسواق المتفرعة يميناً ويساراً.

روماني الأصل. أتى هذا التاجر الروماني وفتح أول محل لبيع الذهب في السوق. تشجّع التجار بعد تجربة التاجر الروماني، وعمدوا إلى فتح محال الصاغة إلى جانبه. من ثم أكمل أولاد التجار هذه التجارة، وأصبح السوق بأكمله سوقاً لبيع الذهب. تمت إعادة بناء السوق في عهد المماليك، حين تسلموا طرابلس بعد الانتصار على الصليبيين؛ لذلك أخذ سوق الصاغة طابعاً مملوكياً في عمارته.

موقع سوق الصاغة:

تم تشييد سوق الصاغة منذ أكثر من 800 عام على يد صائغ روماني الأصل.

يتميّز سوق «الصياغين»، كما يسميه الطرابلسيون، ببيع جميع أنواع الذهب وصناعته، كالذهب الأبيض، والذهب الأصفر، والذهب الوردي.

يشكّل سوق الصاغة أهم وأقدم الأسواق الموجودة في طرابلس عاصمة الشمال. هو سوق يجمع بين

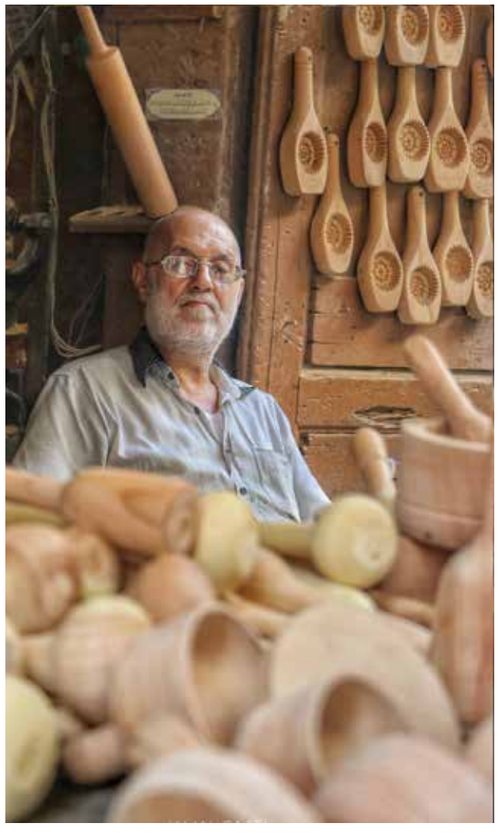

الأسواق القديمة

يتألّف السوق القديم من أسواق عدّة، منها سوق الصاغة الذي يُعَد الأقدم، وسوق العطّارين وسوق النحاسين وسوق حراج وسوق الكندرجيّة (الإسكافيين) وسوق البازركان وغيرها. تجدر الإشارة إلى أنّ جزءاً كبيراً من السوق مسقوف. فيما مضى، كان يُعَدّ هذا السوق مركزاً حيوياً للتجارة في المنطقة، أمّا اليوم، فهو في المقام الأوّل وجهة لأهالي المنطقة من محدودي الدخل، من دون أن يكون محصوراً بهم، بينما يجذب سيّاحاً كثيرين يقصدونه للتمتّع بفنّ عمارته وبحوانيته المختلفة، ولزيارة خان الصابون الشهير.

سوق الصاغة.. من أجمل الأسواق وأقدمها تاريخه:

سوق الصاغة هو سوق كبير لبيع الذهب والمجوهرات، تمّ إنشاء السوق منذ أكثر من 800 عام على يد صائغ

التراث والتجارة. يتمّ في هذا السوق الأثري بيع وصناعة المعدن الأصفر أي الذهب. يتألّف السوق من أكثر من 120 محلاً. تلتصق المحالّ بوجودها إلى جانب بعضها بعضاً. يوجد في السوق أكثر من 125 صائغاً للذهب. بسبب كبر هذا السوق أصبح مركزاً تجارياً ضخماً، يجذب إليه التجار من مختلف البلاد، لشراء الذهب وصناعته.

بلغ سوق الصاغة ذروته في العهد العثماني، لكنه تراجع بعد حدوث الحرب الأهلية في لبنان. الأمر الذي انعكس سلباً على السوق والتجار الموجودين فيه.

وتبقى هذه التجارة والحرفة ثروة غنية بخيراتها وقيمتها، على الرغم من أن النساء في يومنا هذا أصبحن يملن إلى شراء المجوهرات المزيّفة الملوّنة التي باتت تناسب الموضة أكثر من الذهب الأصلي التقليدي.

يقع سوق الصاغة في طرابلس شمال لبنان، تحديداً

في الأحياء الشعبية بالقرب من خان الصابون، وسوق العطارين وحمّام العبد.

سوق العطارين

سوق العطارين من أشهر أسواق مدينة الفيحاء، وأحد الأسواق التاريخية فيها، سمي العطارين نسبة إلى الجامع العمري، حيث كان يتعطر المصلون قبل دخول المسجد، لتنتشر الرائحة في الأرجاء، فما أن تتجول داخل السوق حتى تجد نفسك في حقبة تاريخية تعود لأكثر من 700 عام، لكن مع غزو المحال الجديدة في السوق لم يعد هناك شيء يدل على السوق إلا اسمه، فروائح العطارة التي كانت تنبعث منه حلت محلها روائح كريهة، جراء بيع اللحوم والخضراوات التي حلت مكان محال العطارة، ورغم هذا الاعتداء على السوق يرفض بعض العطارين إغلاق محالهم، إذ قرروا الصمود في السوق حفاظاً على تاريخه رغم خروج عشرات العطارين إلى أسواق المدينة.

عيادة شعبية

يعدّ هذا السوق لدى كثيرين بمثابة عيادة شعبية، فمحال العطارة المنتشرة على جانبي الطريق تبيع مختلف أنواع الأعشاب الطبية، إذ إن بعض أصحاب محال العطارة امتهنوا تركيب الأدوية وتحضيرها وفق وصفات طبية قديمة، اكتسبوها من خبرات أجدادهم لمداواة بعض الأمراض.

على الرغم من التقدم التكنولوجي وانتشار العيادات والمراكز الطبية الحديثة، إلا أن عدداً قليلاً من أصحاب محال العطارة بقوا في السوق يكافحون من أجل البقاء على مهنتهم؛ فالتطور التكنولوجي والأحداث المتتالية غيّرت معالم سوق العطارين، لكنه تمكن من الصمود، على الرغم من تعرضه لهجمة من قبل التجار، إضافة إلى انتشار الطب الحديث والمستشفيات والصيدليات والأدوية المختلفة.

سوق النحاسين

يقع سوق النحّاسين في مدينة طرابلس شمال لبنان، وتحديداً في المناطق الشعبية، حيث يمتدّ من حمام عز الدين، ليصل إلى منطقة التربيعة، يفصل السوق بين خان الخياطين وسوق البازركان.

يعود تاريخ سوق النحّاسين إلى عهد المماليك، الذين قاموا ببنائه خلال وجودهم في مدينة طرابلس؛ أي يبلغ عمر السوق أكثر من 800 سنة.

كان سوق النحّاسين قديماً يحتوي على عشرات المحالّ التي توجد مقابل بعضها بعضاً، إنه سوق لصناعة القطع النحاسية الفنية. حيث يقوم الحرفيون الطرابلسيون بتشكيل القطع النحاسية، ومن ثمّ نقش الزخارف والكلمات عليها، لتصبح قطعاً نحاسية فنية تحظى بإعجاب الناس، وترضي مختلف أذواقهم. يتميّز هذا السوق بأصوات المطارق ومعدّات النقش التي تعتبر لحناً رائعاً لآذان النحّاسين، أثناء استمتاعهم بممارسة حرفتهم اليدوية التي تجمع بين الفن والصناعة.

ازدهر سوق النحاسين قديماً، وبلغ ذروته، حيث كان إقبال الناس على شراء القطع النحاسية مرتفعاً. كانت الحركة السياحية نشيطة الأمر الذي جعل النحاسين يصنعون الكثير من القطع النحاسية، وخاصة تلك التي تحتوي على أسماء منقوشة باليد.

أمّا اليوم فلم نعد نسمع صوت المطارق على النحاس إلّا نادراً عند الدخول إلى السوق. بسبب غلاء الدولار

الأميركي مقابل الليرة اللبنانية، إذ أصبحت أسعار النحاس باهظة الثمن. قديماً كان سعر كيلو النحاس دولاراً أو اثنين؛ أي ثلاثة آلاف ليرة لبنانية، أما اليوم فأصبح سعر الكيلو 16 دولاراً أميركياً، دون النقش عليه، وإتمام صناعته. بالإضافة إلى تدنيّ نسبة السائحين في الأسواق، بسبب الأوضاع الأمنية وغلاء المعيشة التي يمرّ بها لبنان. شكّلت هذه الأمور سبباً كافياً لتراجع حركة سوق النحّاسين، وتوقّف بعض أصحاب المحالّ من إكمال عملهم، بل على العكس عمدوا إلى الإقفال والانتقال للعمل بمهنة أخرى.

تتمّ عملية صناعة القطع النحاسية ابتداءً من استيراد النحاس من الخارج، أو شرائه من تجار محليين من لبنان. ثم يشكّله على شكل القطعة التي يريد صنعها كشكل صينية أو طنجرة على سبيل المثال. بعد ذلك يقوم بإحضار عدّة الرسم والنقش التي تتمثّل بأقلام فولاذية خاصّة للنقش، ومطرقة تستخدم يدويّاً لتأخذ القطعة شكل الزخرفة الصحيح. حين تنتهي عملية النقش يتم طليه بماء الذهب أو النيكل أو النحاس الأحمر والأصفر. ليزيد من رونقه.

خان الخياطين

خان الخياطين هو أقدم خانات مدينة طرابلس، ومنذ إنشائه كان متخصصاً بحياكة الحرير ونسجه، وقد اشتهرت طرابلس زمن الصليبيين وبعده، بصناعة الحرير والنسيج التي كانت تصنع وتحاك فيه، وكانت تنال إعجاب أمراء أوروبا الذين أرسلوا البعثات لشراء هذه المنسوجات.

ويعتقد بعض المؤرخين الغربيين بأن طرابلس عندما سقطت في أيدي الصليبيين، كان فيها أكثر من أربعة آلاف عامل يعملون على النول في حياكة النسيج الذي يستخرجونه من دودة القز.

يقع الخان في قلب طرابلس القديمة، ويتكوّن أعلاه من سلسلة متناسقة من القناطر التي تجمع جهتيه اليمنى واليسرى، يفصل بينهما ممرّ عريض، وهو من طبقتين: السفلى تضم مخازن حرف القرون الماضية وإطارها الاجتماعي، وفي الطبقة العليا سلسلة من الغرف التي تشكل حالياً فندقاً صغيراً، لكنها كانت منامة حرفيي الخان قديماً.

وقد حيكت في الخان الثياب التقليدية كالسراويل والطرابيش العثمانية في القرن الماضي.

ولاتزال الأبواب الخشبية تزين كل محاله وحوانيته، التي تصطف بطريقة منتظمة داخل ممر طويل من الحجر الأثري، وهو لايزال حتى اليوم يجمع بين حرفة الخياطة وبيع الأقمشة والملابس العربية القديمة (كالشراويل - والطرابيش - والزنانير)، ونظراً لجودة أنواع الأقمشة والألبسة المميزة التي نادراً ما تجدها خارج هذا الخان، أصبح يحتل مركزاً ممتازاً ورئيساً في جولات السائحين والباحثين الذين يتوافدون إلى طرابلس للتعرف إلى تاريخها وتراثها وحضارتها.

في الوقت نفسه، يصرّ أصحاب المحال في الخان، على الحفاظ على مهنتهم وتوريثها لأبنائهم.

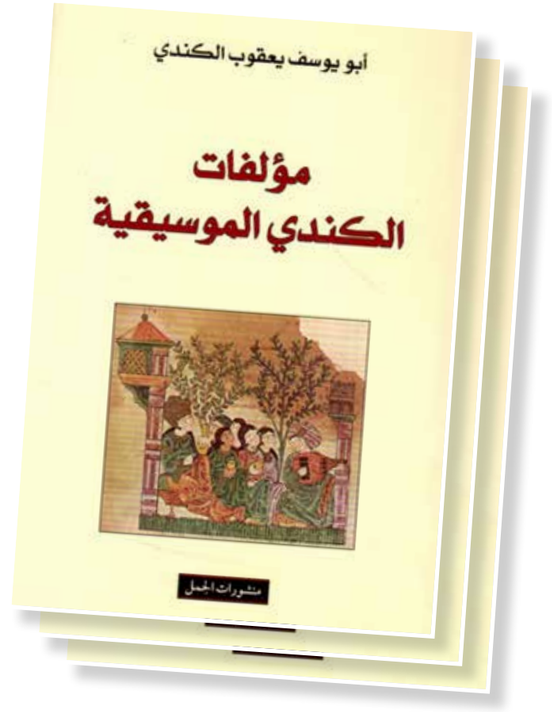

علي العَبْدان
مدير إدارة التراث الفني
معهد الشارقة للتراث

مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ

من القرن الثاني حتى الحادي عشر الهجريّ

الجزء الثاني

نتابع في الجزء الثاني من هذه المقالة التعرّفَ إلى أهمّ مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ التي ظهرت بين القرنيْن الثاني والحادي عشر الهجريّيْن، وكيف تطوّرت وانتشرت في مختلِفِ الظروف والشروط، الدينية، والسياسية، والأدبية، والاجتماعية، وغيرها، وذلك بالرجوع إلى أحد أهم المؤلفات التي صنعت ثَبَتاً لتلك المصادر، وهو كتاب (مصادر الموسيقا العربية) للمستشرِق الموسيقيّ الأسكتلنديّ هنري جورج فارمر، الذي نُشِرَ عام 1940

لقد انتقيتُ من ذلك الثَّبَتِ لهذه المقالات المصادرَ التي رأيتُها مهمّةً في معرفة تطوّر الموسيقا العربية نظرياً وعمليّاً، وأضفَيْتُ عليها تعليقاتٍ وملحوظاتٍ يسيرة، رأيتُها مهمّةً في سياق هذا العرض، ووضعتُ تعليقاتي بين علامتَيْ تنصيص، كي أُميّزَها عن كلام فارمر، ونحن في هذا الجزء من المقالة ما زلنا نعرِضُ لمؤلفات القرن الثالث الهجريّ، أو التاسع الميلاديّ:

5 - بنو موسى بن شاكر (عاشوا في القرن الثالث الهجريّ). لهم رسالةٌ بعنوان (الآلة التي تُزمِّرُ بنفسِها)، وهي في توضيح كيفية صناعة أرغن مائيّ آليّ، "ولعلها الرسالة العربية الأولى في هذا الموضوع الذي تعودأصولهُفيمايبدوإلىاليونان".

6 - حُنَيْن بن إسحاق العِباديّ (260 هـ / 875 م). له كتاب (آداب الفلاسفة)، ويُنسَبُ هذا الكتابُ لابنِهِ إسحاق أيضاً، ويحوي الكتابُ مقتطفاتٍ من الموسيقا، عن الفلاسفةِ الإغريق، لا توجد مُفصّلةً في غيرِهِ من المصادر الإغريقية.

7 - الكِنديّ، يعقوب بن إسحاق (260 هـ / 874 م). لهُ مؤلفاتٌ ورسائلُ عدة، منها (الرسالة الكبرى في التأليف)، "وتُسمى أيضاً (الكتاب الأعظم في التأليف)"، وقد ذكرها فارمر مرةً أخرى أثناء كلامه، بعنوان (كتاب العُظْم في تأليف اللحون)، ومنها (رسالة في الإخبار عن صناعة الموسيقا)، و(رسالة في المدخل إلى صناعة الموسيقا)، و(رسالة في الإيقاع)، و(مختصر الموسيقا في صناعة النغم والعود)، وقد جمعَ هذا المختصَرَ لأحمدَ بنِ الخليفةِ المعتصِم، ومنها (رسالة في ترتيب النَّغَم الدالّةِ على طبائع الأشخاص العالية)، وهي رسالةٌ في التأثير الموسيقيّ، ومنها (رسالة في قِسمةِ القانون)، ويستظهر فارمر أن هذه الرسالة شرحٌ على (فصل القانون – Sectio Canonis)

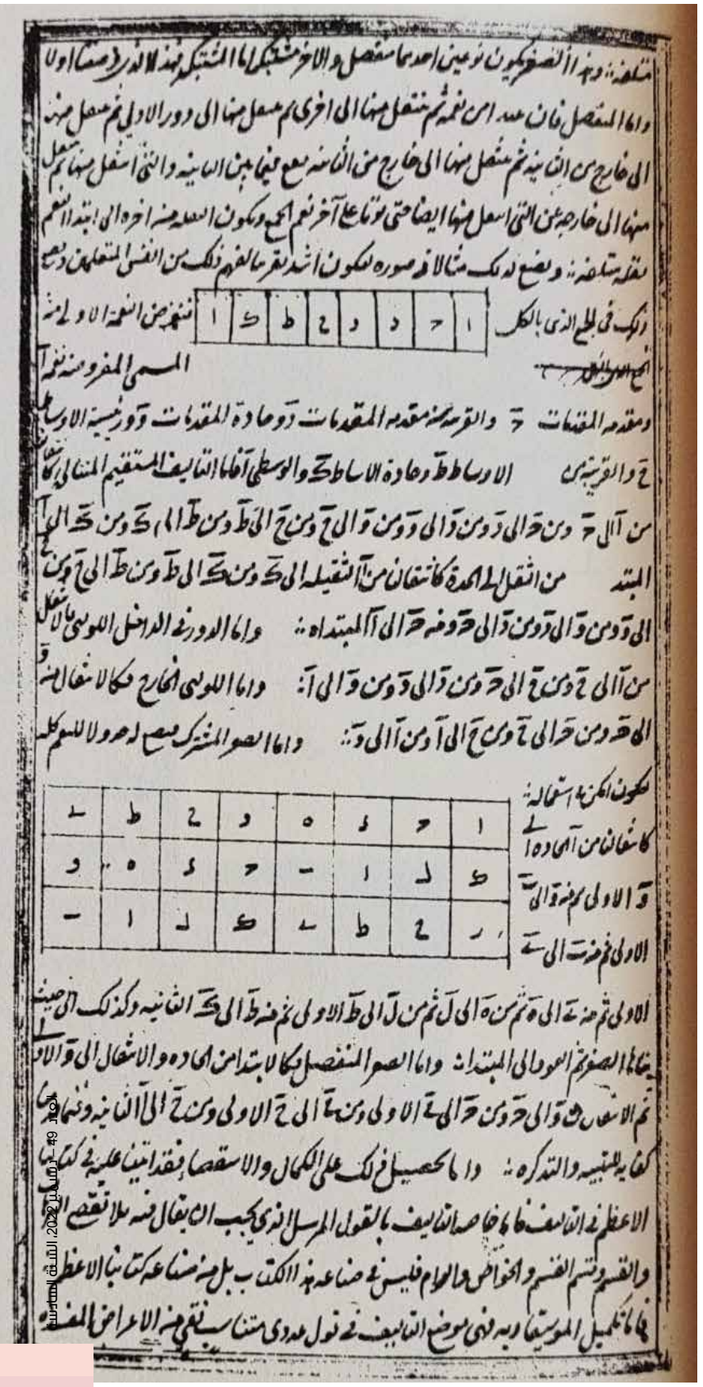

مخطوط من رسائل الكندي الموسيقية

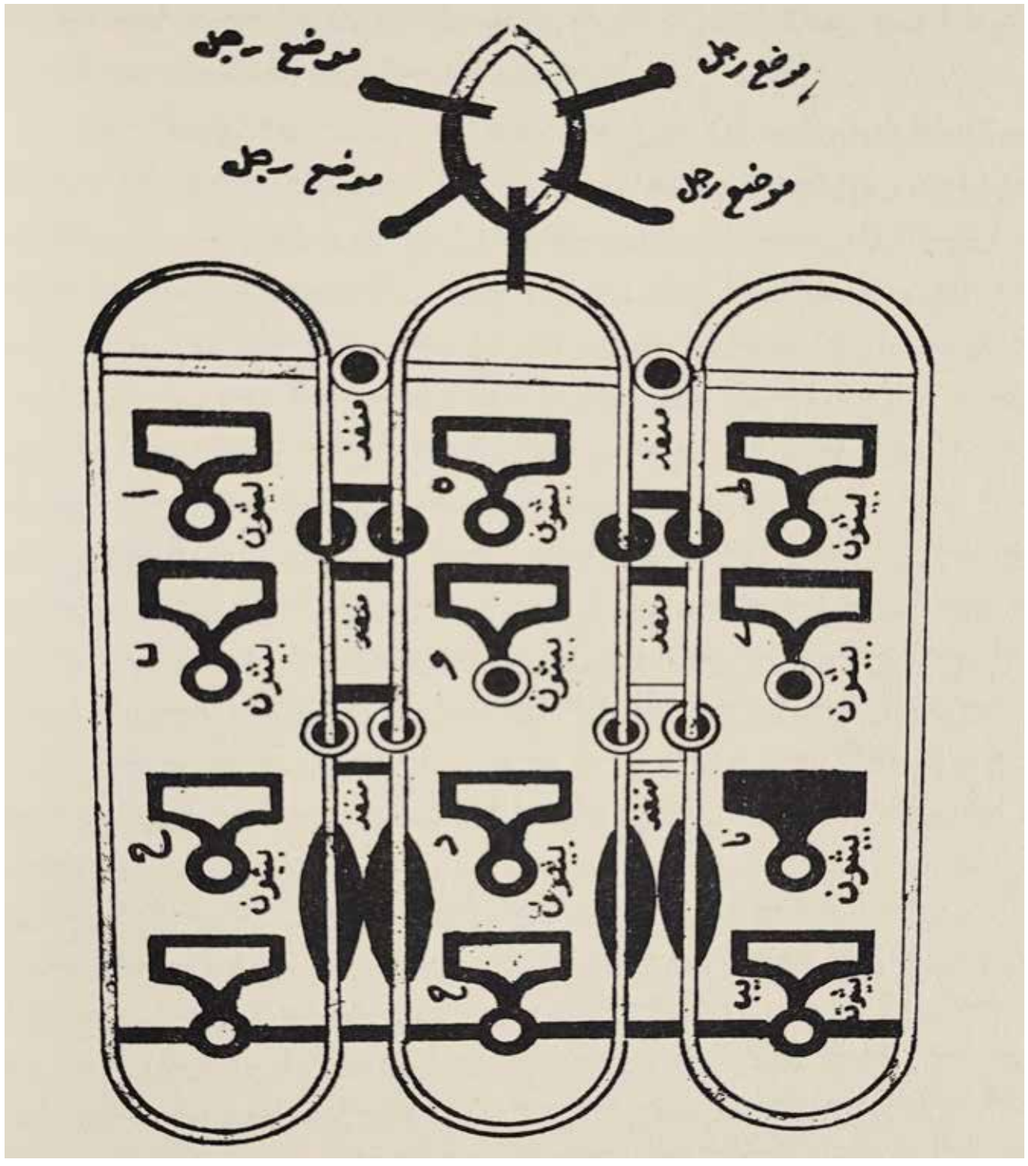

تخطيط الآلة التي تزمر بنفسها

لإقليدس. ومن مؤلفات الكنديّ الموسيقية أيضاً (رسالةٌ في خُبْرِ تأليف الألحان)، "وتُسمى أيضاً (رسالة في خُبْرِ صناعة التأليف)"، ويقول فارمر إن هذه أول رسالة وصلت إلينا في الموسيقا، ولعله يقصد "في علم الموسيقا"، ويظهر فيها تأثر الكنديّ بالعلماء الإغريق، ولا تنقسم الرسالة إلى فصول أو أبواب، ولكنها تتناول الأبعاد، فالأجناس، فالجُموع، فاللحون، فالانتقالات، فالتأليف، وهي ناقصة من أولها [أي: مخطوطة الرسالة]، وربما كان هذا الجزء الناقص يتناول المبادئ الفيزيائية للصوت. ولهُ أيضاً (رسالة في أجزاء خُبريّات الموسيقا)، "وتُسمى أيضاً (رسالة في أجزاء خُبْرِيّة في الموسيقا)"، وتنقسمُ هذه الرسالة إلى مقالتيْن، كلٌ منهما تتألف من أربعة فصول، وتتناول المقالة الأولى الإيقاع، والثانية التأثير الموسيقيّ. ثم ذكر فارمر بضعة رسائل موسيقية أخرى للكنديّ، لكن فاتهُ ذكرُ كتابٍ مهمٍ له، طُبعَ ضمنَ مجموع رسائله بتحقيق زكريا يوسف، وهو (كتاب المُصَوِّتات الوَتَرية من ذات الوتر الواحد إلى ذوات العشرةِ أوتار).

8 - عليّ بن يَحيى بن أبي منصور (275 هـ / 888 م). له كتاب (أخبارُ إسحاق بن إبراهيم المَوصليّ)، ويُنسَبُ لهُ كتاب (مجموع أغاني عَريب)، ولكن الأستاذ حسين نصار مترجم كتاب فارمر استظهرَ من كتاب (الأغاني) للأصفهاني أن هذا الكتاب هو ليحيى بن علي بن أبي منصور، وليس للأب، فقد قال يحيى كما في (الأغاني): أمَرَني المعتمِدُ على الله أن أجمعَ غناءَها الذي صنعته – أي عَريب –، فأخذتُ منها دفاترَها وصُحُفَها التي كانت قد جمعت فيها غناءَها، فكتبتُهُ، فكانَ ألفَ صوت.

9 - أبو جعفر، محمد بن عليّ بن أُميّة، الشهير بأبي حشيشة (277 هـ / 890 م). له كتاب (المُغنّي المُجِيد)، ويبدو أنه في ذكر الصفات التي ينبغي أن يكون عليها المُغنّي، ولهُ أيضاً كتاب (أخبارُ الطنبوريّين).

10 - أبوبكر بن أبي الدنيا (275 هـ / 888 م). له رسالة (ذمّ الملاهي)، وهي من أقدم الرسائل التي تذم الآلات الموسيقية، وتربط الموسيقا بجميع أنواع الشرّ حسبَ تعبير فارمر.

11 - أبو العباس، أحمد بن محمد بن مروان السَرَخْسيّ (286 هـ / 899 م). كان السَرَخْسيُّ تلميذاً للكنديّ، وقد أنجزَ مؤلفاتٍ عدة، لكنْ يبدو أنها أُتلِفَت بعدَ موتِه، ويبدو أنها كانت مؤلفاتٍ مهمةً كما يظهرُ من العناوين، ومنها كتاب (المدخل إلى علم الموسيقا)، وكتاب (الموسيقا الكبير)، وهو يتألف من مقالتيْن، ويقول عنه صاحبُ (الفهرست) إنه لم يُعمل مثلُهُ حسناً وجلالاً، ومن مؤلفاتهِ أيضاً كتاب (الموسيقا الصغير)، وكتاب (اللهو والملاهي) ذكر فيه الغناءَ والمُغنّين، وكتاب (القِيان)، وكتاب (الدَلالة على أسرار الغناء)، وهو من أوائل الكتب عن الغناء.

12 - دنانير البرَمكية (عاشت في القرن الثالث الهجريّ)، وكانت مُغنيةً موهوبةً في البلاط. لها (كتابٌ مُجَرَّدٌ في الأغاني).

13 - بَذْل (عاشت في القرن الثالث الهجريّ)، لها (كتابٌ في الأغاني، المَنسوبُ الأصوات)، أي أن الأصوات التي في الكتاب مَنسوبةٌ إلى مُلحّنيها ومُغنّيها.

تنبيه: وقفنا للمرةِ الأولى في هذا الثَبَت على كتابيْن في الموسيقا من تأليف امرأتيْن، هما دنانير البرمكية وبَذل كما مَرّ معنا آنفاً في 12 و13، وهذا سَبْقٌ معرفيٌّ نسائيٌّ مهم إلى التأليف في الموسيقا، يعودُ إلى القرن التاسع الميلاديّ، في حين لم تُعرفْ امرأةٌ أوروبيةٌ بالتأليف في الموسيقا إلا في القرن الثاني عشر الميلاديّ، مع هيلديغارد الألمانية، رئيسة دير البينديكتين، والتي عاشت بين 1098 – 1179 م.

14 - أبو أيوب المَدينيّ (عاشَ في القرن الثالث الهجريّ)، وتُعالجُ كتُبُهُ عن الموسيقا والموسيقيين فنَّ الحجاز وفنّانيه، ومن هنا تأتي أهمية مؤلفاته، ومنها كتاب (قِيان الحجاز)، وكتاب (قِيان مكة)، وكتاب (طبقات المُغنّين)، وكتاب (عزة المَيْلاء)، و(ابن مِسْجَح)، و(أخبارُ حُنَيْنِ الحِيريّ)، و(أخبارُ ابنِ عائشة)، و(ابنُ سُرَيْج)، و(الغَريض)، وعامةُ هؤلاء مُغنّون وموسيقيّون حجازيّون، كما أن للمَدينيّ كتاباً في (النغم والإيقاع).

15 - أسلم بن عبد العزيز (عاشَ في القرن الثالث الهجريّ)، ذكره ابنُ حزم في (طوق الحمامة)، وذكرَ لهُ كتاباً عن (أغاني زرياب).

16 - ثابت بن قُرَّة الحَرّانيّ (288 هـ / 901 م)، كان من أوائل الذين دأبوا على معالجة علم الموسيقا تبعاً للتعاليم الإغريقية، بعد الكنديّ والسَرَخْسيّ، ومن مؤلفاتِهِ كتاب (في علم الموسيقا)، وكتاب (في الموسيقا)، و(مقالة في الموسيقا)، و(رسالة من أمور الموسيقا)، تتضمن أجوبة عن أسئلة قُدّمت للمؤلف في علم الموسيقا، وكذلك كتاب (من أبواب علم الموسيقا)، وهو ثمرة مراسلات مع عالِمٍ آخَر في الموسيقا، هو علي بن يحيى بن أبي منصور، ومن مؤلفاتهِ أيضاً (مقالةٌ في الأنغام)، وهي تتناول علم الموسيقا كما كان يتناوله الإغريق القدماء، وكتابٌ (في آلة الزمر)، ربما كانت آلةً هوائية، تُصوِّتُ بالضغط المائيّ.

فن الردحة

علي العشر
خبير تراث فني
معهد الشارقة للتراث

عزيـزي القـارئ، لقـد عودتـك في الأعـداد السـابقة أن تكـون مقـالاتي عـن الفنـون التـي تـؤدى مـن بدايـة أي مناسـبة حتـى نهايتهـا، وفي الميـدان الـذي تقـام فيـه المناسـبة، أمـا في هـذا العـدد، فسـأتطرق إلى الكتابـة عـن فـن غريـب في أدائـه، وفي الوقـت الـذي يـؤدى فيـه، وكيـف يـؤدى، ألا وهـو فـن الردحـة.

فـن الردحـة يعـدّ من أهـم الفنـون الشـعبية التي اشـتهرت بهـا دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة، فهـو عبـارة عـن خليـط مـن الرقـص والغنـاء الشـعبي، الـذي تقـوم بـه النسـاء التابعـات للفرقـة التـي قامـت بحفـل مـا، وذلـك بعـد انتهـاء هـذه الحفلـة، وغالبـاً مـا تكـون حفـلات الزفـاف ليـلاً، وذلـك أثنـاء مسـيرهن إلى البيـت أو المكان المخصص لوضـع العـدة، أي الآلات التـي يعزفـن عليهـا أثنـاء الحفـل، حيـث إن هـذا الـشيء يـدلّ عـلى تعـاون الجميـع في المحافظـة عـلى أغـراض الفرقـة، ووضعهـا في مـكان يحفظهـا مـن الخـراب أو الضيـاع.

كيف يؤدى هذا الفن؟

تقـوم المجموعـة بحفـظ بعـض القصائـد، إمـا في المـدح أو في الشـعر النبطـي أو النـثر أو الزهيريـات، حيـث يضعـن لهـا لحنـاً خفيفـاً وسـهلاً وفي متنـاول الجميـع، ثـم يغنـى جماعيـاً، وهـن يمشـين ويرقصـن ويردحـن بأرجلهـن حتـى وصولهـن بيـت العـدة لوضـع هـذه الأغـراض، ومـن القصائـد التـي كثـيراً مـا تقـال في هـذا الفـن، اخـترت لكـم قصيـدة مـن شـعر المغفـور لـه، الشـيخ زايـد بـن سـلطان آل نهيـان، طيّـب اللـه ثـراه، وهـي قصيـدة

«مرحبا يا حي فضل الله»:

مرحبا يا حي فضل الله
حي من تزهي به أوطاني
الغضي لي له قدر والله
احترام وياه وشاني
لي ينير الحوش والفلة
والحشا منهوب يفلاني
لي بقلبي باني حله
ما يخلفه واحد ثاني
يا شبيه الموز في حله
تايه والعود روياني
والهدب لمسوين ظله
فوق طرف العين له زاني
والمعنق زاهي إبدله
والخدود بروق فِ مْزاني
يا مليح الزين والمله
خذني ابروفك أو لحساني

التشابه الروحي

حسين الراوي
كاتب - الكويت

قـال النبـي، عليـه الصـلاة والسـلام: «الأَرْوَاحُ جُنُـودٌ مُجَنَّـدَةٌ، فَـمَا تَعَـارَفَ مِنْهَـا ائْتَلَـفَ وَمَـا تَنَاكَـرَ منْهَـا اخْتَلَـفَ». البخـاري ومسـلم.

تتجـاذب الأرواح مـن بعضهـا، وتدنـو وتقـترب وتنبسـط، عندمـا يكـون بينهـا تشـابه وتوافـق واضـح وبائـن، كثـيرة طغـت عـلى قليلـة

قـال ابـن حـزم الأندلـسي: «إنـك لا تجـد اثنـين يتحابـان إلا بينهـما مشـاكلة واتفـاق في الصفـات الطبيعيـة، لابـد مـن هـذا وإن قـل، وكلـما كـثر الاشـتباه زادت المجانسـة وتأكـدت المـودة». (طـوق الحمامـة).

أحيانـاً تلتقـي روحـك بـروح أُخـرى للمـرة الأولى، فـما أن تأخـذ وتعطـي مـع صاحـب تلـك الـروح، وتتوسـع معـه في الحديـث، وتبـدأ تكتشـف عالمـه الخـاص بـه، حتى تجـد أن عنده ثمة أشـياء في داخلـه تشـبه تلـك الأشـياء المختبئـة في داخلـك، سـواء كانـت تلـك الأشـياء فسـيولوجية أو أيديولوجيـة أو حتـى أشـياء تتبـع مزاجـك وذوقـك وفوضويتـك وطباعـك، فتـدرك بصمـت هـذا التشـابه الروحـي بينـك وبينـه، فتنجـذب إليـه، وتتـوق وتشـتاق لأن تعرفـه بشـكل أكـثر، فتجـد أنـك كلـما سـبرت أغـوار روحـه حاصرتـك الدهشـة، وغمرتـك السـعادة، بسـبب نسـبة التشـابه الروحيـة التـي بينـك وبينـه.

تـزداد نكهـة معظـم الأشـياء عمقـاً في الحيـاة عندمـا نتقاسـمها مـع مـن يشـبهوننا في الـروح، أولئـك الذيـن ترتـاح وتطمـئن أرواحنـا لأرواحهـم.

ألـذ وأفخـم أنـواع القهـوة هـي تلـك التـي تُسكب في فنجانـين وُضعـا فـوق طاولـة تقابـل عليهـا اثنـان تشـابهت أرواحهـما، وفـاح شـذا انسـجامهما.

خليفة بن شخبوط

شاعر القرن التاسع عشر

الجزء 3

محمد عبدالله نور الدين
كاتب وناقد ـ الإمارات

تطرقنا في الأعداد السابقة إلى بعض قصائد الشيخ خليفة بن شخبوط آل نهيان، حاكم أبوظبي من 1833 إلى 1845، وهو من أهم شعراء القرن التاسع عشر، فقد وردت أشعاره عند الرواة، وأيضاً في بطون الكتب، بدءاً من الجزء الثاني لتراثنا من الشعر الشعبي، وفي ديوان الونة، وأضيفت قصائد أخرى في كتب أخرى لاحقاً، وهي في مجملها قصائد رائعة، بقيت في الذاكرة أكثر مما حفظتها المخطوطات، وهي دلالة على شاعرية فذة، استطاعت أن تقارع عامل الزمن قرابة القرنين من الزمان.

وقد برهنت قصائده على أن شؤون الحكم ومصاعب إدارة البلاد والعباد وحل النزاعات، لم تكن لتؤثر في رهافة حسه، وحسن ذوقه، وبلاغة لفظه، فقد برز بشكل لافت في الميدان الأدبي مخلفاً وراءه عدداً من القصائد، علقت في الذاكرة الجمعية للمجتمع، في وقت لم يكن لتدوين القصائد اهتمام واضح، وفي جولتنا الجديدة سنتطرق إلى إحدى القصائد المهمة التي أوردها الباحث سلطان العميمي، في كتابه «شعراء آل نهيان»[1] ، ويقول في مطلعها:

يَا حِلْوِينِ الْمِدَامِعْ قَلْبِي جِدَاكُمْ حَامْ
مَا لِي مِنْكُمْ مِسَامِعْ يَا سَادِتِي الاَحْشَامْ
مَا هَزّتْنِي مِطَامِعْ إِلَّا رْدُودِ السَّلَامْ

يبدأ الشاعر قصيدته بالطلب، ولكن من خلال مفردة «حام» التي تعني التحليق أيضاً، وهكذا هي المفردات في السياق الشعري، حينما يكون لها أكثر من معنى، وأكثر من دلالة، قد يقصد بعضها، بينما يمتلك المتلقي الحرية ليتناول ما يشاء من المعاني، ففي البيت الأول يناجي الشاعر المحبوب بصيغة الجمع، تقديراً ومحبة، ويصف عينيها بالجمال، ليقول إن قلبه يحلق إليها بطلب، وأي طلب أهم من وصاله، فكما يشير في البيت الثاني إلى أن أخبار المحبوب قد انقطعت، وهو يود من الوصال أقل منازله؛ أي منزلة تبادل التحية، ففي تبادل التحية والسؤال عن الحال، سيطمئن قلبه ومشاعره التي أصبحت تضطرب بعيداً عن محبوبه.

شِفْتِ بْرُوقِ اللَّوَامِعْ عُقْبِ الْمَغْرْبِ بْزَامْ
وَاتْحَرَاهِنْ شُوَامِعْ لِي يَسْرِنْ فِي الظَّلَامْ

نعم إن الليل الطويل قد حرّك أخيلة الشاعر وأشجانه، وأصبح يتهيّأ له أشياء في الواقع، فهناك ضوء من بعيد لمع في عينيه كالبرق، وتبادر إلى ذهنه أن قافلة متأخرة تحاول أن تصل قبل أن يسدل الليل الظلام على الأجواء، والبيتان دلالة على انتظار المحب طيلة النهار، وعدم قطع الأمل، حتى وإن جاء الليل وأصبح احتمال وصول القوافل ضئيلاً.

وِيَا مِسْوَدّ الْلَوامِعْ لَا تْعَاوِنِ النَّمَّامْ
لِيْ مِنْ عِطِيتَهْ سَامِعْ بِيدِكْ كِسَبْتَ آثَامْ

هنا يصرّح الشاعر بما يقلقه، وهو أقوال الوشاة، فهذه الأقوال إن لم تزعزع ثقة المحبوب بمحبه، فهي آثام كبيرة؛ لأن فعل الاستماع إلى النميمة يراه المحب ذنباً بحد ذاته، لا يقبله المحب، ولا يرى ذلك في شأن المحبوب؛ لأن المحبوب له مقام اجتماعي كبير، تدل عليه مفردات كثيرة، كما أكد ذلك قبل أبيات، حينما قال «يا سادتي الأحشام»، وأيضاً في هذه الأبيات، حينما يخاطب المحبوب بـ«يا مسود اللوامع»، وهي دلالة على حشمة الزي الفاخر الذي يلبسه المحبوب، هذا ناهيك عن صيغة المخاطب بالجمع الذي بدأ به القصيدة، ولكن حين يصل إلى هذا المحور، ويسدي النصيحة، فإنه يلتفت من صيغة الجمع إلى المفرد، وهذا الالتفات في الصيغة مهم؛ لأن الشاعر يلتفت بالنصيحة إلى نفسه، وهذا أوقع وأكثر تأثيراً ولكن ظاهر القول يشير إلى أن النصيحة تسدى هنا لمخاطب قد يكون المحبوب أيضاً، وبما أن القصيدة انتشرت، فإن النصح لكل المستمعين.

اِفْكِرْ فِي ضَرْبِ الرَّامِعْ لِا يِرْتِخِي الِخْزَامْ

ونجد هنا أن النصيحة هي لب القصيدة وموضوعها، والسبب هو حديث «النمام»؛ لأن الأمور الكبيرة قد تبدأ من التفاصيل الصغيرة، وهي الاستماع إلى هذا الحديث الذي قد يهز الثقة بين المحبين، فيبدأ الشاعر بنفسه، ويقول إنه يكون «رامعاً»؛ أي لا يدع للوشاة أي مجال لفتح هذا الباب، ويشدد على ذلك كي لا يرتخي الحزام؛ أي أنه لا يستقبل الوشاة كي لا يتقبل حديثهم.

اِلْوَقْتِ دَامَهْ جَامِعْ صَلِ فْرُوضِكِ تَمَامْ
مَا يِنْفَعْكِ الْمِخَامَعْ فِي مْدَاوِلَةْ الْأَيَّامْ

ويعلل في آخر بيتين بشكل جميل، ويقول لا يوجد أي داعٍ لأي قلق، فما دمنا مجتمعين في أنس وراحة وطمأنينة، ولا يوجد أي تقصير من المحبين، فالأولى أن نعيش هذه اللحظات الجميلة، ويشبه ذلك بالصلاة التي يجب ألا تقتصر، والزمان ليس في سفر ومشقة؛ أي أننا يجب أن ننعم بالأوقات السعيدة، وألا نضع أنفسنا في مشقة، فالأيام تتبدل، ولا يوجد داع لأن نصنع الأقدار السيئة بأيدينا.

ولعل بيت القصيد هو البيت الأخير، إذ يشير الشاعر من ناحية إلى الحل في المشكلة التي يعانيها، وإن كان النص موجهاً للمخاطب، ولكنه من ناحية أخرى يرى نفسه في مرآة الآخر، كما يرى الآخر في مرآة نفسه. وهذا أمر غير مستبعد بين الأحبة، فالحال بينهما متصل، ولا تنفصل أحوالهما عن بعض، فالألفة بينهما واحدة، إن ساد الوئام، وهكذا في الهجر فالمعاناة بينهما واحدة أيضاً، يشكو الطرفان منها.

وأخيراً، فإن القصيدة هنا دلالة على الشوق الجارف، وأبدع الشاعر فيها كي يبقي التواصل بينه وبين المحبوب، ويبرهن للمحبوب على أنه على العهد باق، وإن انقطعت الأخبار وتباعدت السبل، فالقصيدة تعبير إنساني، وتستطيع حمل المشاعر والأحاسيس، وتستطيع أن تنقل المعاني والمفاهيم، وتستطيع أيضاً أن تنقل القيم كالصدقية والشفافية والتواضع، وهي بذاتها لغة حوار مونولوجي معبّرة، يخاطب الشاعر فيها نفسه كي يصل إلى الآخر، ويتصل بالآخر من الأعماق، وهو ذلك الاتصال والتواصل الذي يحييه ويحيي أمله في السعادة المنشودة.

1. شعراء آل نهيان، جمع وتحقيق: سلطان العميمي، ص26.

دار التقدم.. صفحة من تاريخ الاستشراق الروسي

طلال سعد الرميضي
كاتب - الكويت

أثناء الصراع المحتدم بين الرأسمالية والشيوعية في النصف الثاني القرن الماضي، ظهرت دار نشر روسية، قامت بتقديم خدمة كبيرة لمد جسور المعرفة والفكر بين الثقافتين العربية والروسية، ونهضت بمشاركة مترجمين عرب كبار، أثروا المكتبة العربية بمطبوعات قيّمة، تحمل اسم دار التقدم، فلنا في هذا المقام أن نتعرف إلى هذه الصفحة التاريخية من ذاكرة الثقافة العربية في الأمس القريب، خاصة بعد مضي أكثر من ثلاثين سنة على إغلاقها، وتسربها إلى عالم النسيان.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام 1945م، وهزيمة الألمان وحلفائهم، برزت قوتان عالميتان على الكون، هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي وحلفائهما، فبدأت ما يعرف بالحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، وكانت من أدوات الحرب وساحاته هي وسائل الإعلام المسموع والمرئي والمكتوب؛ لذا لجأت حكومة الاتحاد السوفييتي في ستينيات القرن الماضي إلى نشر آدابها وثقافتها وفكرها للعالم العربي، عبر تأسيس دار نشر تصدر مطبوعاتها باللغة العربية، وتكون منشوراتها موجهة للقارئ العربي، فأطلق مشروع ثقافي كبير جديد عرف باسم دار التقدم، وقد كانت ميزانيتها من الحكومة الاتحادية بصفتها دائرة سوفييتية رسمية، وكان مقر دار التقدم في العاصمة موسكو بالقرب من مقر الاتحاد العام للأدباء الروس.

وعمدت هذه الدار لأن تكون مطبوعاتها لا تبحث عن الربح المادي، إنما بهدف إبراز الثقافة السوفييتية والفكر الاشتراكي، ومحاربة الرأسمالية، وقد حققت شهرة كبيرة في أوساط المثقفين في مختلف الدول العربية، وتمكن القراء العرب من التعرف إلى الإبداع الروسي العالمي المميز، وأسهم نخبة من المترجمين العرب الذين يعيشون في الاتحاد السوفييتي في ترجمة كثير من المؤلفات الروسية إلى اللغة العربية، وفق خطة إعلامية مدروسة، تمثل جميع جوانب المعرفة حول الاتحاد السوفييتي، وقد صدرت هذه المطبوعات المهمة التي تناولت الشأن الثقافي والأدبي والاقتصادي والسياسي والتاريخي وغيرها، لتكشف لنا روعة الأدب الروسي، وعمق الفكر السوفييتي، والصلات التاريخية القديمة المشتركة ما بين الروس والعرب، ومن أبرز مطبوعاتها «مؤلفات مختارة للأديب الروسي أنطوان تشيخوف»، في أربعة مجلدات، و«درب الآلام» للأديب ألكسي تولستوي، و «قسمة إنسان» للروائي ميخائيل شولوخوف، و«وداعاً يا غولساري » للأديب جينكيز إيتماتوف، و«أبطال قلعة بريست» للكاتب سرغي سميرنوف، والأعمال الكاملة للمفكر الروسي إيليا نيقولايفيتش، وفي حقل السياسة قامت دار التقدم بترجمة العديد من المطبوعات، منها كتاب «الاحتكارات العالمية والسياسة العسكرية» للكاتب بوزيف، وفي المجال التاريخي صدر العديد من الكتب القيمة، ومنها كتاب «سفن روسية في الخليج العربي 1899-1903م»، وكتاب «تاريخ الأقطار العربية الحديث» للمؤرخ لوتسكي، وكتاب «الصليبيون في الشرق» للكاتب ميخائيل زايوروف، وفي حقل الفكر الاشتراكي قامت بترجمة العديد من المؤلفات التي تشرح مبادئه ونظرياته، ومن هذه الكتب تحت شعار «يا عمال العالم اتحدوا»، طبعت الدار «لينين ما العمل؟» في أكثر من جزء لهذا العمل السوفييتي، وغيرها كثير.

واتسمت هذه الكتب بدقة الترجمة والجودة والجمال، وحازت قبولاً واسعاً وثقة كبيرة لدى قراء لغة الضاد، وكانت منشوراتها توزع عبر البلاد العربية بوساطة الموزعين العرب، أو بمشاركتها في المعارض العربية الدولية فترة السبعينيات والثمانينيات، وتتنافس دور النشر العربية في عرض كتب دار التقدم على رفوفها، حتى حصدت الشهرة الواسعة في عالم الكتاب العربي، ولدى المثقفين العرب، الذين استطاعوا التعرف إلى الأدب الروسي العريق بوساطة دار التقدم التي وفقت

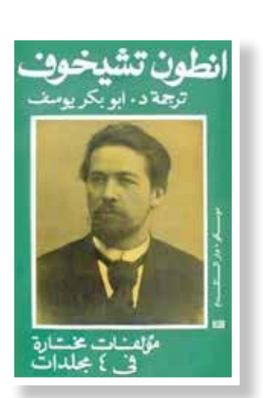

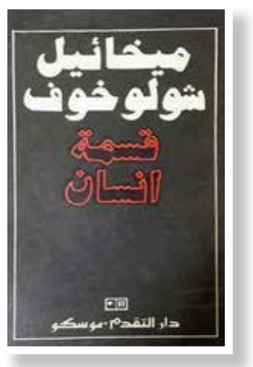

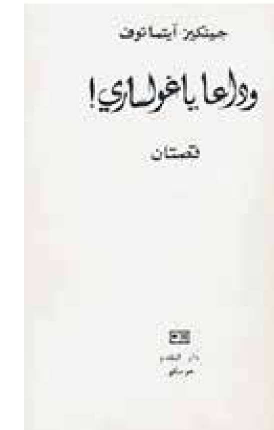

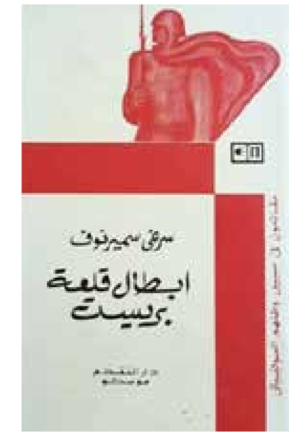

كثيراً في نقل الثقافة الروسية التي كانت مغيبة عن المثقف العربي، بحكم ارتباط غالبية الدول العربية بالمعسكر الغربي أثناء الحرب الباردة.

واستمرت دار التقدم في نشر مطبوعاتها التي تجاوز عددها المئات، ولمدة سنوات طويلة تقارب الثلاثين عاماً، ثم تفرعت من دار «التقدم» دار نشر جديدة، تسمى دار «رادوغا»، ومعناها باللغة العربية (قوس قزح)، وتخصصت لنشر الكتب الأدبية الخاصة بالأدب الروسي، بعد أن وجدت الإقبال الكبير على الروايات والقصص الروسية، بينما استمرت دار التقدم في نشر كتب بمختلف المجالات كالتاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها.

ولا شك في أن نجاح هذه الدار الروسية كان بفضل مشاركة كبار المترجمين العرب الذين أسهموا في هذا المشروع الثقافي الكبير، وقدموا أعمالاً خالدة ومهمة عن الفكر السوفييتي والأدب الروسي، ومن أبرزهم المترجم العراقي الأصل، أ. د. ضياء نافع، الذي سعدت بلقائه في موسكو أثناء اجتماعات اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا في سبتمبر عام 2014م، والحديث معه عن تجربته في عالم التجربة مع دار التقدم الروسية التي كانت له ذكريات جميلة، وتجربة عظيمة، ثم انتقاله للعمل في دار رادوغا الجديدة، مع بعض زملائه: غائب طعمة وأبوبكر يوسف، والدكتور ضياء يعدّ من رموز الترجمة وأعلامها، وهو من مواليد بغداد عام 1941م، وحاصل على شهادة الماجستير في اللغة الروسية وآدابها عام 1966م، من الاتحاد السوفييتي، وشهادة الدكتوراه في الأدب الروسي عام 1971م من فرنسا، وتولى العديد من المناصب، منها رئيس قسم اللغة الروسية في كلية اللغات بجامعة بغداد، وعميد كلية اللغات بجامعة بغداد، وحاصل على درجة الأستاذية بروفيسور عام 1996م، وكان مديراً لمركز الدراسات العراقية – الروسية في جامعة فارونش الحكومية الروسية، خلال الأعوام 2006-2012م، وهو عضو اتحاد الأدباء والكتّاب في العراق، وعضو شرف في اتحاد أدباء روسيا، وقدم الكثير من الأعمال المترجمة من اللغة الروسية، حققت النجاح والانتشار.

ومن أبرز الأسماء التي عملت في دار التقدم الروسية، نذكر الأستاذ القدير عبدالله حبة، مترجم عراقي مشهور مقيم في روسيا، وتخصص بالأدب الروسي، ولد في بغداد عام 1936م، تخرج في كلية الآداب بجامعة بغداد، ثم درس في معهد جيتيس للفنون المسرحية في موسكو عام 1960، واستقر فيها بعد تخرجه، وعمل مترجماً في وكالة تاس وفي وكالة نوفوستي، وفي دار النشر مير والتقدم ورادوغا، وفي صحيفة أنباء موسكو، وتولى العديد من المناصب الثقافية، منها خبير استشاري في المعهد الروسي للترجمة، له العديد من المقالات والدراسات النقدية والتحليلية حول الأدب الروسي، وهو حائز جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي في فئة الإنجاز عام 2018م، كما صدر له أكثر من ثمانين كتاباً مترجماً عن اللغة الروسية إلى اللغة العربية لأعلام الأدب الروسي، من بينها «الدروب الظليلة» عام 1987 لإيفان بونين، و«مصارعو الثيران من قرية فاسيوكوفكا» عام 1987م، لفسيفولود نيستايكو، و«قصص الدون» عام 1986م لميخائيل شولوخوف، و«الأمير الأعرج» عام 1989م لألكسي تولستوي.

ومن الذين عملوا أيضاً بدار التقدم سنوات طويلة الدكتور جلال عبدالوهاب الماشطة، وهو عراقي الجنسية، تولى منصب رئيس بعثة جامعة الدول العربية في موسكو، وقام بدور كبير في الحراك الثقافي الروسي العربي، وتوطيد العلاقات بين المثقفين الروس والعرب، كما قام بترجمة العديد من المؤلفات الروسية القيمة، وتوفي عام 2016م في موسكو.

وكذلك الدكتور أبوبكر يوسف، وهو أكاديمي مصري مقيم في روسيا منذ الستينيات من القرن الماضي، ومن أبرز أعماله قيامه بترجمة أعمال الأديب الروسي الكبير أنطوان تشيخوف في 4 مجلدات، وكذلك ترجمة كتاب «عشرة أيام هزت العالم» للكاتب الأمريكي جون ريد، والذي يعد هذا الكتاب من أهم الكتب في تاريخ الثورة البلشفية «الشيوعية» في روسيا أكتوبر 1917م بقيادة لينين، وهي «10» الحاسمة التي مكّنت البلاشفة من السلطة، والكتاب من تأليف صحفي أمريكي يعيش في روسيا ومعاصر للثورة، ثم أصبح أول أمريكي يؤسس حزب شيوعي في أمريكا.

ونذكر أيضاً من رموز عالم الترجمة الروسية الأستاذ خيري الضامن، وهو مترجم عراقي الأصل، ولد في محافظة البصرة عام 1936م، وعمل بالصحافة العربية في بداية حياته الأدبية، وسافر إلى الاتحاد السوفييتي، وتخصص في أعمال الترجمة على مدى أكثر من ستة عقود، وتوفي - يرحمه الله - عام 2021م، ومن أبرز الأعمال التي قام بترجمتها عبر دار التقدم، نذكر منها «نضال العرب من أجل الاستقلال الاقتصادي»، للكاتب مولود عطا الله عام 1971م، وكتاب «التروتسكية خصم الثورة» لسوبوليف عام 1974م، وكتاب «تفاقم الأزمة العامة للرأسمالية» لتريبيلكوف عام 1975م، وكتاب «أسئلة وأجوبة عن الشيوعية «غ. ليسيتشكين وآخرون عام 1976م، وكتاب «بحوث سوفييتية في الأدب العربي» عام 1978م، ويعدّ هذا الكتاب مرجعاً مهماً في الأدب العربي؛ لأنه بأقلام نخبة من الأقلام الروسية، وكتاب «العناقيد الحمراء وقصص أخرى» للأديب الروسي فاسيلي شوكشين، وصدرت الترجمة عام 1984م عبر دار رادوغا التي تفرعت عن دار التقدم.

ومن الأسماء المميزة التي عملت في دار التقدم الروسية الأستاذ العراقي غائب طعمة فرمان، المتوفى عام 1990م، ولهُ مؤلفات عديدة، حيث ترجم نحو ثلاثين كتاباً من اللغة الروسية، ونال جائزة رفيعة على جهده في هذا الجانب، ومن أبرز أعماله قيامه بترجمة أعمال تورجنيف في خمسة مجلدات، ومجموعة قصص لدستويفسكي، ومجموعة قصص لغوركي، ومجموعة أعمال بوشكين.

والجدير بالذكر أن دار التقدم توقفت أنشطتها، وتم إغلاقها بعد انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1991م، بصفتها من منظومة الحكومة السوفييتية، وإحدى دوائره الرسمية، ليتوقف هذا المنهل الثقافي العذب عن الاستمرار، وتتغير أهداف دولة روسيا الجديدة بعد توقف الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، وبتوقف نشاط دار التقدم نطوي صفحة مشرقة من تاريخ حركة الترجمة للغة العربية، وبمشاركة نخبة من المترجمين العرب، الذين أبدعوا وأثروا المكتبة العربية بباقة من المؤلفات الروسية، ونحن على يقين بأهمية الدور الكبير الذي لعبته دار التقدم في هذا الحراك الثقافي، إلا أننا اليوم، وبعد مضي ما يقارب ثلاثة عقود على إغلاق دار التقدم، نجد أن الكثير من القراء والمثقفين لا يعلمون الكثير عن هذه المؤسسة الثقافية التي كان لها صيت واسع، وذكر كبير لدى مثقفي الأمس.

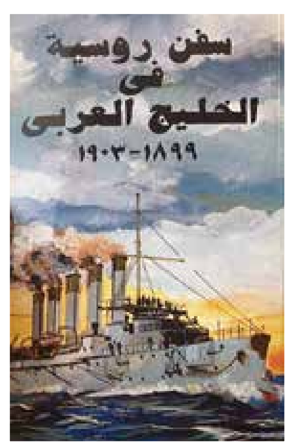

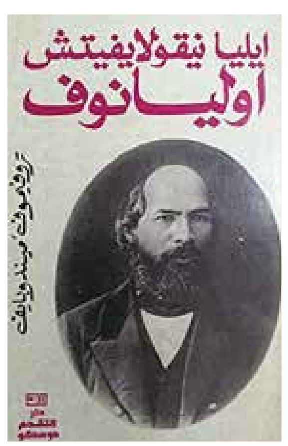

خالد عمر بن ققة
إعلامي - الجزائر

فيها تحضر «فاس» وأهلها:

«أسير البرتغاليِّين»..

روايةٌ تُكرِّس الوعي بالتاريخ وبالأزْمِنة

«للتراث حضور في النصوص الأدبيَّة ـ شعراً ونثراً ـ يُجَمِّلها وجوداً، ويرْوِي تجارب البشر من خلال شخوصها والتعبير عن العلاقات والأفعال والقيم، ويُشكّل بُعْداً معرفيّاً تُطْوى فيه الأزمنة طيّاً، من حيث الرجعى والصدى، ويعيد تعمير الأماكن، سواء أكانت أطلالاً في الذاكرة، وفي الواقع، أو كانت متواصلة في رحلة الحياة، حيث استحضار التأسيس في الرّاهن، وفي النهاية تعدُّ النصوص الأدبية موروثاً ثقافيّاً حيّاً، قد يُسْهم في متعة المطالعة، ويُضْفِي ويضيفُ لنا مزيداً من المعرفة.. هنا قراءة في رواية «أسير البرتغاليين.. حكاية النّاجي».

في هذه الرواية المُمْتِعة لغة، والمُوغلة في الوجع تاريخاً، والمكرسة الوعي بالتاريخ من خلال استحضار أحداثها، وتحريك شخوصها، يدفعنا الروائي المغربي محسن الوكيلي، دفعاً نحو ثلاثة مسارات، أولها: التفاعل مع سردية تاريخية لا تقاوم، وثانيها: قراءة التاريخ في صراعنا مع الآخر، من حيث تأسيس للحاضر، وثالثها: الانعتاق من سطوة السرد العابر للأحداث في ثقافتنا الشفاهية إلى حرية يأتي بها النص المكتوب. تلك المسارات الثلاثة، ما كان لها أن تتكشّف حضوراً لولا الجهد التاريخي المبذول من طرف الكاتب، وأيضاً لولا حسّه الإبداعي الراقي، وربما لهذا وصلت الرواية في ظل المنافسة إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) في دورتها الـ15 لعام 2022م.

لقد تكفَّل المطيعي، بطرح روايته للقارئ العربي، ضمن اختياره الواعي للحظة تاريخية، ترتبط بالوجود البرتغالي على السّواحل المغربية في القرن السادس عشر الميلادي، في وقت انتشر الطاعون في مدينة فاس، وحلّت المسغبة، وحمل الأخلاء لبعضهم بعضاً عداوة لأجل الحياة، فأُزْهِقت أرواح الأبناء، في وقت تعذر فيه الخلاص من الآلام والأوجاع، وأُرْهِق كل هذا بفتنة كبرى بين المسلمين، حيث الصراع الدموي على أشدِّه من أجل تملّك الأرض والبشر بين المرينين والسّعديين، ومحاولات الأتراك الاستيلاء على المغرب، إضافة إلى الهجمات المتواصلة من البرتغاليين، واحتلالهم بعض مدن السواحل المغربية لسنوات.

ورغم أن رواية «أسير البرتغاليين»، هي كما قال مؤلفها محسن الوكيلي، في حوار لجريدة «الشرق الأوسط» مع الصحفي عبدالكريم الميناوي: «مغامرة سردية تُسخِّر الأدب والتاريخ لأجل فهم أدق للحاضر»، إلا أنها تُيسِّر سبلَ معرفة المستقبل أيضاً، ومن هذا المنطق تكرّس وعياً قوميّاً عامّاً بالتاريخ والأزمنة، خارج تَحَكُّم الجغرافيا الراهنة في الوطن العربي، وبهذا المعنى تعيدُ هذه الرواية من خلال مضمونها، استحضار تاريخنا العربي في لحظة ضَعْفه، سواء أتمَّ تشكيله من خلال الفعل السياسي والصراع لأجل السلطة، أو عبر هجمات من الآخر المستعمر الغازي والمحتل، أو حتى عند الخضوع الإجباري لآفات الطبيعة وأمراضها.

من ناحية أخرى، فإن رواية أسير البرتغاليين، هي في رمزيّتها ــ كما جاء في عنوانها الفرعي «رواية الناجي» ـ تُحِلّينا إلى الحاضر بما يحمله من أوزار الماضي، حيث العطْرنة للفعل الاستعماري، ضمن خطاب الدول الكبرى الصانعة للقرارات والمتحكّمة في مصير دول ـ مستقلة أو شبه مستقلة ـ يكرر ما قال الضابط البرتغالي بيدرو للأسرى المغاربة: «هذه إمبراطورية البرتغال يا حمقى، أما نحن فحُماتها، وبُناة نُصُب النّبالة من لشبونة إلى ما وراء الهند، من يتحدث عنا بسوء، وإن سهواً، نقطع لسانه». (ص 25).

خطاب الماضي الاستعماري، لو أعدنا قراءته اليوم بوعي في ظل توحُّش القوى الكبرى، سنجده حاضراً في الجغرافيا العربية، وإن اتَّخذ شكلاً جديداً، وحمل مفاهيم وعبارات لم تعد حكراً على قوى استعماريَّة بعينها، ذلك لأن المصالح تداخلت، ومعها تراجع الاعتراف بدورنا في صنع الحضارة والمدنية، كما لم تعد دماؤنا تسقي مجد الأمم الأخرى، وبذلك فقدنا اليوم خطاب المستعمر المعبر عن فعله الإجرامي، لقد تَجَاهلنا، ولم يعدْ يقولُ لنا صراحة: «لا تحزنوا، ليس موتكم مجانياً، دماؤكم السخية تمنح الأسوار العظمة التي يحتاجها الحصن ليبقى شامخاً ومهاباً، وصامداً أمام أعداء يتربصون من كل الجهات، دمكم يا سادة؛ عزتنا وبقاؤنا على طريق التوابل والعبيد». (ص 26).

وفي هذه الرواية، لا يقف الأمر عند خطاب المستعمر وفعله، سواء للتذكّر أو للذكرى، وإنما يرافقهما إلى حيث نحطُّ رِحَالَنا عند صراعنا الداخلي، وفِتْنِنا المتواصلة، وعلاقاتنا البَيْنِيَّة بطابعها التصادمي، والدموي، من حيث هي أفعال متكررة، آتية من الماضي البعيد، لكنها غير مرفوضة اليوم، بل على العكس من ذلك مرحّب بها.. نحن نعيد اليوم ـ بقصد أو من دونه ــ تكرار ما حدث في فاس زمن حكم المرينيين، وهنا نقف عند وصف الكاتب لحال أحد أبطال الرواية، يدعى «البشير»، عند دخوله مدينة فاس: «سمحوا له بالدخول؛ رأى الألوية ترفرف على الأسوار، وجنود السلطان في كامل كسوتهم، وفرق القبائل الموالية من العرب والبربر متأهبة للقتال.. هرب من الحرب على أطراف المحيط،

وجـاء إليهـا وسـط الـبر، إمـا أن يمـوت بنـيران النصـارى الطامحين لتأمين طريق البحر إلى بلاد التوابل، أو يلقي بسيف المسلمين المتناحرين حول الحكم». (ص 52).

وفي محاولة الروائي الوكيلي، تسخير الأدب والتاريخ لفهم الحاضر، يجعل من هذا الأخير في وجهه العالمي كاشفاً عن مستقبل أكثر إيلاماً في حال استمرار جائحة كورونا لزمن طويل، صحيح أنه لا يشير لها من قريب أو بعيد، لكن في ذكره لمدى انتشار الطاعون في الماضي، وما حدث خلال أيامه في فاس، من ذكر قول أحد التجار القادمين من الشمال: «.. إن الطاعون ضرب إسبانيا قبل أن يضرب بلادنا، وإن السماء نفسها التي تعصر المسلمين هنا تعصر النصارى هناك». (106)، يجعلنا ـ رغم الاستمتاع بالنص لغة وحبكة ـ ننظر إلى ذلك الماضي من خلال واقعنا الحالي على نطاق واسع له بعد عالمي.

هنا علينا العودة إلى بطل الرواية (الناجي عوّاد) ـ الشخصية الأساسية الفاعلة في تغيير وجهة المسار السّردي وتنويعه ـ وهو «النّاجي الوحيد» لمرتين، الأولى: من «شفرة سكّين والده إبراهيم»، حين أقدم على ذبح أبنائه السّتة، ودفنهم في قبو المنزل، كان ذلك أيام الطّاعون الذي أصاب مدينة فاس.

والمرة الثانية: من «كتيبة الإعدام المسلّط على رقاب المغاربة أسرى المستعمر البرتغالي»؛ لأنه اتّخذ من حكاياته التي كان يرويها للضابط بيدرو، وسيلة للبقاء على قيد الحياة، وقد كانت تلك الحكايات بمثابة مخزون، يؤجل موته.

لقد مكّن النّاجي ـ من خلال تجاربه، خاصة نجاته الثانية ــ الوكيلي من وُلُوج عالم التاريخ عبر فترة الوجود البرتغالي في السّواحل المغربية التي رزحت تحت نير الاحتلال نحو 33 سنة ممتدة من 1508 إلى 1541م، وهو تحرُّك في فضاء المكان والزمان، ما كان لهما أن يتفاعلا معاً، ويؤثران في الناس، لولا شراكتهما في صنع الأحداث، خاصة مدينة فاس وزمانها باعتبارها حاضرةً في الذاكرة الجماعية للمغاربة، آتية من ماضٍ كان فيه أهلها يقولون: «فاس وُجدت منذ الأزل.. ومنها تناسلت المُدن ونشأ العمران في بقيّة الأرض، مثل حوّاء، فاس هي الأم». (73).

قيمة فاس في هذه الرواية تأتي من كونها تحمل ذاكرة تاريخية، تنشط دائماً، وهي ترى نفسها مطلباً ومقصداً ومسعى كثير من أمم الدنيا ـ في أزمنة السلم والحرب، والصداقة والعداوة، والحب والكره ــ وبنشاطها مقاومة أو استسلاماً، يحفر تاريخها أخاديد

في عمر الزمن، مُسَّجلاً رحلة العبور، ومستحضراً صناعة الأفعال في كل المجالات، لهذا تأتي الرواية هنا مُجَّلة لها وصفاً، ومقدَّرةً لها فعلاً، وحافظةً لها ذكرى طيبة، ونافعةً من خلال ذكراً، بالقول: «إنها فاس التي لا يكتمل سلطان ملك دونها، ولا علم عالم جليل ما لم يطأ أرضها؛ المدينة التي تُراود أحلام الأفارقة من بلاد البيضان إلى بلاد السّودان، وتُغازل شرقاً شبق الترك التّواقين لأرض المغارب، وتستثير لواجع الروم غرباً فيأتون إليها راغبين صاغرين». (ص192).

فاس تستمد قيمتها أيضاً من علمائها، أمثال: الفقيه عبدالواحد الونشريسي، الذي كان يحاضر في جامع القرويين، وتميز بمكانة خاصة لدى طلبته لحكمه وجزالة لغة، حتى قال أحدهم: «ليس في إفريقيا كلها من هو في فطنته وعلمه». (ص 78).

ففي ظل تراكم الأحداث في الرواية، تطغى المآسي، من مثل: الطاعون، والجوع، والنهب، والاغتصاب، والاستعباد، لكن تُرى فاس، وهي مُخترقة بومضات للحرية، ولمواقف ظلّت صامدة في التاريخ، وسواء أكانت حقيقية أم متخيلة، فإنها تزرع فينا أمل التغيير والثبات، رغم أنها بنْت الماضي، وخير مثال هنا ذلك الموقف الذي أبْداه الفقيه عبدالواحد الونشريسي في جَامِعِه، وهو مُحاصر، والموت يتربَّص به، وحوله طلبته، وهو يحدثهم عن محبة الله والقدر، قائلاً: «إن الخوف من المخلوق كان سلطاناً، أو طاغية، أو رجلاً من سفلة النّاس، خيانة للخالق ومعصية، المخلوق لا يملك شؤون الخلق إلا ما قدّر الله، فلا تجزعوا، ولا تحزنوا، ولا تنحنوا لغيره جلَّ وعلا، (لكل أجل كتاب)، وبعد كل كتاب حساب، فلا تملؤوا صفحاتكم بالبغض والمعصية، وموتوا على محبّة الله، ظاهرين صادقين مخلصين وأوفياء». (110).

من مواقف الونشريسي وغيره استمد المغاربة قوتهم، وظهرت عزيمتهم، وجاهدوا وانتصروا تحت راية السعديين وقيادتهم على البرتغاليين، وطردوهم من أرضهم، لكنهم حين تسلموا المدن بعد رحيل البرتغاليين، بهتوا مما رأوا، فقد لاحظوا «فرقاً ما فتئ يتعاظم بين العَالَمَيْن، علم غربي يُجيد البناء، ويتقن الصنائع، ويبدع العجائب، وعالم ثانٍ يتراجع إلى الخلف، ويغرق أكثر في صراعات الحكم والقبيلة والعرق وأحكام الطهارة وأنواع النكاح..». (ص 322).

وعلى خلفية ذلك، جاء التلميح والتصريح ـ في الرواية ـ بأن ما تحقق عبارة عن «نصر زائف» على الرغم من عودة الناجي ـ أسير البرتغاليين ـ وعودة الأرض لنا، في سياق تحقق موعود بانتصار المستضعفين على الاستكبار في حال الجهاد والمقاومة، بدءاً من محاربة النفس، والتجاوب مع «الخوف من الله»، كما جاء سابقاً في شرح الونشريسي.

مكحلة شداد بن عاد

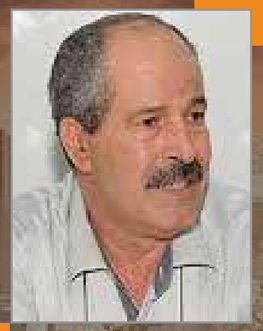

سعيد يقطين
كاتب - المغرب

تنبيه أول: سؤال الغنى:

من أين يكتسب المرء ما يتميز به عن غيره، من أسباب الرفاه والغنى؟ تتعدد السبل، ومنها ما هو طبيعي وعادي؛ لأنه وليد العمل، والجد، والصدق. وقليل هم ممارسوه. ومنها ما هو نتاج خيانة الأمانة، وتضييع المسؤولية، وانتهاز الفرص. وما أكثر هؤلاء الذين يتبنون هذا الخيار!

1. الراعي المقصود، والكنز المرصود:

كان شداد بن عاد، كما تروي القصيدة الشعبية المغربية، راعياً فقيراً، لا يجد قوت يومه. يرعى الغنم ولا يقتات إلا بما يفضل على من يشتغل لديهم. جاءته ذات مرة مجموعة من «الطلبة»، والمقصود الفقهاء، الذين يكشفون عن الكنوز قاصدين إياه دون غيره من الناس. سأله أحدهم: هل أنت شداد بن عاد؟ أجابهم: نعم. متعجباً، ومعلقاً: من أين عرفتم اسمي، وأنا في هذا المكان القفر لا يعرفني أحد؟ رد عليه الثاني: نحن فقهاء نستخرج الكنوز. ولقد وجدنا في تقييداتنا أن كنزاً مرصوداً باسمك، ولا يفتح إلا على يديك. ستصحبنا إلى حيث الكنز، وسيكون هذا سبب غناك، إذا وافقت على الشرط. فرح شداد بن عاد. لقد ضاق ذرعاً بحياته، وهو لا يعرف مآله. رغب في الدخول إلى الكنز، موافقاً على الشرط، كيفما كان نوعه. مغامرة يرمي إلى تحقيقها للخروج من وضعه البائس. إن حلمه الأكبر أن يصبح أغنى الأغنياء.

تنبيه ثانٍ: الأمانة:

كان الشرط هو أن يقوموا بعملهم حتى يفتح الكنز، ويدخل إليه ليجلب لهم «مكحلة»، وله أن يأخذ من الجواهر والذهب واللؤلؤ والحجارة الكريمة ما يكفيه. كل مرادهم في المكحلة، يبحث عنها ويجلبها لهم.

2. إنكار العثور على المكحلة:

توجه الفقهاء وشداد بن عاد إلى مكان الكنز بعد العزائم، والبحث، وتبديل الأماكن. وانفتح الكنز أخيراً، ودخل شداد منبهراً بما رأت عيناه من أموال لا حصر لها. جعل كده البحث عن المكحلة، وهو يجمع بين الفينة والأخرى ما يثير شهيته، ويستثير لبه، ويضعه في كيسه، وأخيراً عثر على المكحلة، فإذا هي على ما هو معهود، ولا شيء فيها يدعو إلى الغرابة، أو العجب، أو يشد الانتباه. لا تختلف عما تكتحل به أي امرأة، لا حول لها ولا طول. تملكه العجب كيف لا يطلب هؤلاء غير هذه المكحلة البسيطة والعادية دون غيرها من الأموال والذخائر. وأدرك بفطنته أن وراءها سراً لا يعلمه غيرهم. داخله هوس الاحتفاظ بها، وإنكار العثور عليها. خاط عليها وسط أسماله وثيابه المرقعة، وهو مصر على الإنكار.

3. الدعاء عليه:

خرج شداد مزهواً بما طالته يداه، مغتبطاً بما تحصل عليه من مجهودات بذلها الفقهاء لإدخاله الكنز، وحين سألوه عن المكحلة ألح على أنه ظل يبحث عنها سدى. ولما أعيته الحيلة جمع ما تمكن من الحصول عليه من الكنز، وأراهم ما في كيسه من أموال لا حصر لها، ولا تقدر بثمن. ولما رأوا إنكاره المستمر، توهموا أن هناك من سبقهم إليها، وأخذها، ألحوا عليه أن يحلف بأنه لم يعثر عليها بعد أن أعياهم النقاش معه. فقال: أموت في جيفة إن كذبت عليكم. صدقوه، وراحوا إلى حال سبيلهم.

4. قصبة من عجائب الدنيا:

عاد شداد إلى غنمه يرعاها على عادته، وهو يفكر في كيفية صرف ما تحصل عليه دون إثارة الشكوك. وبعد مدة، وهو يفلي أسماله التي ظلت ملازمة له، عثر على المكحلة. فاستخرجها، وعمل على تجريبها على كلبة معه، ليرى ما تحمله من أسرار. فبدأت الكلبة كلما حفرت كان تحت ما تستخرجه من تراب كنز من الكنوز. خشي أن تفضحه بما تفعل، فذبحها، واكتحل بالمكحلة، فصارت كل الكنوز الخبيئة تحت الأرض، في كل الدنيا، أمام ناظريه، فأدرك قيمتها، وإصرار الفقهاء على طلبها. تغيرت أحواله، وصار يمتلك الأراضي، والعبيد والحشم، وباتت بين يديه ورهن إشارته، كل القبائل وكل الرجال الذين كانوا يسخرون منه، ويحتقرونه. ملك الدنيا، وبنى قصراً ما سبقه إليه أحد: لبنة ذهب، ولبنة فضة. وأحاط القصر بقصبة (مدينة) من عجائب الدنيا، عمارة لا نظير لها، وحدائق تأخذ بالألباب، تجري من تحتها الأنهار، وتعطي كل الثمار. اصطنع له جنة على الأرض، فكانت أعجوبة الزمان، وتسير بحديثها الركبان. وبعد سنوات طويلة من البناء والتشييد، وتكليف آلاف مهرة الصناع والحرفيين، استوى القصر على النحو الذي أراد، وقرر في يوم مشهود يحضره كل ملوك العالم تدشين القصبة. وفي اليوم الموعود، والحشود مصطفة للتدشين، وهو يستعد للدخول بعد أن فتحت البوابة الأسطورية، جاءه ملك الموت، مخبراً أنه سيأخذ روحه. طلب منه أن يمهله حتى يدخل القصبة، وينظر القصر، ويتملى برؤيته. أجابه ملك الموت أنه سيمهله، ولكن في أي مكان بعيد عن القصبة.

تنبيه ثالث: نفاذ الدعوى:

تبرز دعوى النص في أن شداد بن عاد صار أغنى الأغنياء في كل الزمان، وأنه سيبني قصبة ما بنى مثلها أحد، ولا سبقه إليها أي من ملوك الأزمنة الغابرة. تحققت الدعوى النصية بدخوله الكنز، وامتلاك المكحلة. لكن القصة تأبى إلا أن يكون نفاذ الدعاء مع الدعوى.

5. شداد بن عاد: نفاذ الدعاء:

كان مجيء ملك الموت غير مناسب وقت التدشين. وكان طلب المهلة ملائماً لملك الموت، ولشداد بن عاد؛ لأن موته لا يكون إلا منسجماً مع دعائه على نفسه. وصل شداد إلى شاطئ البحر، رأى جثة بغل ميت. فقال أدخل الجثة، سينفر ملك الموت منها. وبعدها أخرج للذهاب إلى القصبة. في الجثة، جاءه ملك الموت: الآن، وهنا زمان ومكان موتك. وكان نفاذ الدعاء.

«الرطينة»
والتقاء الثقافات

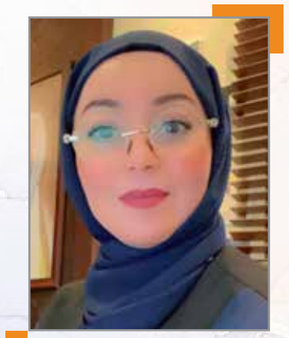

عايشة مصبح العاجل
كاتبة وإعلامية - الإمارات

«الرطينة»: مصطلح ثقافي شعبي، يطلق على لهجة الكلام غير المعروف أصله، كأن يتحدث أحدهم بلهجته الفارسية التي هي تنشق في أصولها لأكثر من لهجة والهندية والبلوشستانية، وغيرها من اللهجات الوافدة على المنطقة، والمستوطنة فيها منذ التشكل الأول للمجتمع الإماراتي، حيث نزحت من إيران والهند وغيرهما من المناطق اللصيقة بالمحيط الهندي والخليج العربي والجزر المحيطة، والتي انتقلت في الأصل مع التجار والغاصة، ونقلت معها ثقافتهم وحضارتهم.

أمي، رحمة الله عليها، كانت تستمتع بلقاء جارتها، وكانت حسب قولها «ترطن ما نفهم من كلامها شيء»، ولكنها كانت طيبة وحبيبة وشفيفة، وكنا نجلس بالساعات نتحدث إليها بلهجتنا المحلية أنا وبعض جاراتٍ لنا، وهي تجيبنا بلهجتها التي لا نفقه منها شيء، سوى أنها بسيطة وقريبة، ويبدو أنها مرحبة بنا، ونحتسي الشاي بطريقتهم مع سكر نبات التي استحسناها، ودارت حولها العديد من الحكايات والقصص، وأطفالنا حولنا يلعبون ويمرحون ويتلاقون فيما بينهم بإشارات وعبارات استحدثوها فيما بينهم للتقارب والتلاقي.

اليوم صرنا بعد حين نمتلك مفردات نتحاور بها معهم، ونلعب وندرس ونغني ونرقص، وصارت ثقافات تتلاقى في فرجاننا وأزقتنا الضيقة، التي ما كانت لتتسع لولا سعة القلوب والنفوس الطيبة، التي احتضنت مجمل التشكلات والإفرازات، إثر تلاقينا معهم رغم الاختلاف.

بالحب نستطيع أن نلتقي بصفاء النفوس، والنيّة الطيبة مع الآخر الذي لا تشبهنا لغته ولهجته ولونه، ولكن يشبهنا بطيبته وبقربه منا، وبمشاركتنا معه الأرض وضحكات الأطفال وآمالهم.

لا ضير في أن تكون اللهجة مختلفة، فالتقارب ليس لقاء الحكي والكلام، التقارب لغة تشبه اللحن، تسري دون لهجة بمعانٍ مشبعة بالنوايا الحسنة، والخصال الطيبة، مرتبطة بالعادات والتقاليد التي تُنتهج من مفردات القرآن وتعاليمه التي تنص على التقارب والتلاقي الإنساني البنّاء «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»، (الحجرات 13).

خرافة الولادة
من غير أمّ ولا أب

د.محمد الجويلي
أكاديمي - تونس

تعترضنا في الحكايات الخرافيّة العربيّة والعالميّة ولادة أبطال آدميين من الثمار، مثل التفاح والترنج والبصل والجوز الهندي وغيرها. ما لفت انتباهنا أنّ ولادة هؤلاء الأبطال تشبه ولادة حيّ بن يقظان، كما حكاها ابن طفيل في رواية من الروايتين اللّتين ساقهما عن ولادة حيّ.

يقول الفيلسوف والأديب الأندلسي في الرواية الأولى إنّ ابن يقظان وُلد في «جزيرة من جزائر الهند التي تحت خطّ الاستواء، وهي الجزيرة التي يتولّد بها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يُثْمر نساء»، قبل أن يسترسل في تحليل علميّ طبيعي، يفصّل فيه القول في طبيعة الأرض وتفاعلها مع الماء وحرارة الشمس في خطّ الاستواء؛ لينتهي إلى أنّ هذا القول على حدّ تعبيره «يحتاج إلى بيان أكثر من هذا، لا يليق بما نحن بسبيله»، دون أن يمنعه ذلك من استنتاج صحة إمكانية أن يُولد إنسان من رحم الأرض، مخاطباً القارئ «وإنّما نبهناك عليه؛ لأنّه من الأمور التي تشهد بصحّة ما ذُكر من تجويز تولّد الإنسان بتلك البقعة (من الأرض) من غير أمّ ولا أب، فمنهم (أي الإخباريون والرواة)، من بتّ الحُكْم وجزم القضيّة، أنّ حيّ بن يقظان من جملة ما تكوّن في تلك البقعة من غير أم ولا أب، ومنهم من أنكر ذلك، وروى من أمره خبراً نقصّه عليك».

لا يتحمّل سياقنا مجادلة ابن طفيل في تجويز ولادة ابن يقظان من رحم الأرض دون أب وأمّ، رغم وعينا بأنّه ما كان ليذهب هذا المذهب لو لم يستحضر لحظة البدء وخلق آدم من أديم الأرض من طين وتراب. لكن لابدّ من لفت الانتباه إلى وجه الشبه الشديد بين ولادة حيّ بن يقظان، والفتاة التي حمل بها ذكر، وليس أنثى في كثير من الحكايات العربيّة، بل قل رأت النور دون أب وأم، وولدت في حقيقة الأمر رغم تكوّنها في جسد «أبيها» من ثمرة؛ تفّاحة أو ترنجة أو من بصيلة، كما في أغلب الروايات العربية لحكاية الرجل الذي حبل؛ لأنّه أكل سهواً ثمرة الحبل، عوضاً عن زوجته العاقر، وهي روايات لا يمكن إلّا أن تذكّرنا بالشجر الذي يثمر نساء في رواية ابن طفيل ذاتها.

النُكتة..
عبقرية الأداء والتلقي

أ.د. مصطفى جاد
عميد المعهد العالي للفنون الشعبية بالقاهرة

تُشكل النكتة عنصراً رئيساً من عناصر الفكاهة في أدبنا الشعبي، وتُعد أحد أهم الموضوعات التي لم تحظ بالاهتمام اللائق بها، على الرغم من أنها ممارسة يومية، تتم في جميع أنحاء العالم، وقد سايرت التاريخ الاجتماعي للشعوب، وفي العصر الحديث سايرت النكتة تطورات التكنولوجيا الرقمية، وتشكلت في قوالب جديدة تستدعي التوقف والبحث والتحليل.. فما قضايا البحث في موضوع النكتة؟.

النكتة في شكلها التقليدي تتألف من نص النكتة، ومؤدي النكتة، ومتلقيها. ويمكن تعريف النكتة بكونها حكاية قصيرة جداً، تحمل مفارقة أو مفاجأة للمتلقي بغرض الضحك. ويراوح حجم النكتة ما بين النكتة القصيرة جداً، والنكتة القصيرة، (وهي الأكثر شيوعاً)، والنكتة الطويلة. والنكتة كنص يُبدعها شخص ما غير معروف - شأنها شأن كثير من عناصر التراث الشعبي- ثم تنتشر بسرعة البرق بين الجماعات، بعد تعديلات عدة، لتصبح على الشكل الذي يؤدي للهدف منها وهو «الضحك». والنكتة قد تحمل إشارات أو رموزاً اجتماعية، أو سياسية، أو دينية. وقد نجد بعض النكات المرتبطة بفئات معينة، كتلك التي تطلق على الصعايدة، أو أهل الريف، أو أهل الحضر. وقد تُطلق على جماعات معينة كاللصوص، أو البخلاء، أو السكارى، أو الحشاشين.

والبطل الرئيس في النكتة ليس مضمونها، بقدر ما تتركز البطولة على مؤدي النكتة نفسه.. إذ ينبغي أن يكون خفيف الظل، صاحب قدرة على الأداء بالصوت، والحركة، والإشارة، وتعابير الوجه.. ومطلوب منه ألا يستغرق في الضحك كالمتلقي، بل يظل مستعداً لأداء النكتة التالية. وقد عُرفت كثير من الجماعات بالأشخاص المشهورين بأداء النكتة، بل أحياناً يُطلب منهم أداء نكتة بعينها. وقد اعتادت الجماعات في كثير من البيئات العربية أن تصف الشخص خفيف الظل بأنه (ابن نكتة). وهناك نوع آخر من مؤدي النكتة الذين يبذلون جهداً في أدائها دون جدوى، فتجدهم يرددون النكتة كأنهم يرددون شيئاً يحفظونه، ولا يبالون بضحك المتلقي، أو اهتمامه؛ ولذلك فإن النكتة في الأصل أداء، وتفقد الكثير من تأثيرها عندما تدون وتُقرأ، إذ قد يتحول رد فعل المتلقي إلى مجرد ابتسامة.. بل إن هناك الكثير من النكات التي لا تحدث تأثيراً عند كتابتها، وقد يصل الأمر إلى عدم فهم النكتة المدونة، إذ إنها تفقد بعض الأداءات الحركية المكملة لها.

وكما أن النكتة تقوم على المؤدي، فإن متلقي النكتة أيضاً له دور فعال في اكتمال دائرة الممارسة، إذ إن تلقي النكتة والضحك على النكتة يتطلب بعض السمات الشخصية في المتلقي، منها الذكاء، وسرعة البديهة. فالضحك على النكتة يمثل انتصاراً للمؤدي، ودعماً لأدائه، وتشجيعاً له لأن يُلقي المزيد. على الجانب الآخر هناك كثير من الأشخاص الذين لا يتفاعلون مع النكتة، وكثيراً ما تردد النكات في أحد المجالس، ويضحك كثيرون إلا شخص بعينه تجده يحاول الابتسام على استحياء. ولذلك لا يمكن للباحث الميداني- على سبيل المثال - أن يجمع مادة شعبية حول النكتة، دون أن يكون هو نفسه لديه القدرة على إلقاء النكتة وتلقيها.

والنكتة ممارسة تؤدى بالتواتر، ولها سياقات خاصة لأدائها.. وأكثر السياقات الخاصة بالنكتة هي مجالس الأصدقاء والأهل والجيران. وهناك أنواع من النكتة لا يمكن أداؤها في حضور النساء والرجال معاً، فقد تحمل بعض الألفاظ الخارجة على الأعراف والتقاليد. ومن ثم فإن أداء النكتة يفرض الكثير من الآداب العامة حتى تؤدي غرضها. وليس هناك مناسبة بعينها يمكن أن تقال فيها النكتة، بل يمكن أن تتولد من رواية واقعية يرويها أحد الأشخاص، فيتولد عنها ضحك، ثم يتولد عن الضحك نكتة قد تبدأ بعبارة «اللي حصل دا بيفكرني بنكتة كذا..». وكثيراً ما تبدأ النكتة بأن يهتف أحدهم بعبارة: «سمعتوا آخر نكتة..»، ثم تنطلق الجلسة في مباراة النكت.. وتتردد في الجلسة بعض العبارات مثل كلمة (حلوة) لوصف النكتة التي أثارت ضحك الجميع، أو (قديمة) لوصف النكتة التي سمعها معظم الحضور، وقد يطلبون من المؤدي ألا يستطرد في استكمالها، وقد يبدأ المؤدي في نكتة بعينها، ويتساءل بعد لحظات عما إذا كان البعض قد سمعها أم لا.. وهناك بعض الروايات المضحكة حول جماعات تخصصت في أداء النكات، ومن فرط حفظهم للنكات، اتفقوا أن يعطوا لكل نكتة رقماً، وعند تجمعهم لا يؤدون النكات، كما يفعل الناس، بل يردد أحدهم رقم النكتة، ثم ينطلق الباقون في الضحك.

هناك كثير من القضايا الأخرى حول النكتة..
سنتناولها في المقالات القادمة.

«الحَب ينقض على بذره»

عبدالله خلفان الهامور
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

مثل شعبي كثيراً ما سمعته، وقد يكون من أكثر الأمثال التي سمعت تكرارها، وهذا المثل يستخدم في المدح، كما أنه يستخدم في الذمّ كذلك، فالحَب أو الحُبوب هي البذور، وحينما نزرع نوعاً من أنواعها، فإنه لن يثمر إلا من نوعه نفسه، فإذا زرعنا - على سبيل المثال - شعيراً، فلن ينمو ويثمر إلا شعيراً، بمعنى لن يكون ثمره عنباً أو لوزاً، وهلمجرّا...

الحب: البذور أو الحبوب.
ينقض: يطلع أو يثمر.
بذره: هي الحبة الأصلية التي غرست في الأرض.

لذلك لما ضرب الآباء والأجداد لنا هذا المثل، لم يتم ضربه من باب العبث وزيادة في الفراغ، بل ضرب لنتمعن في جوهره ومعناه الحقيقي الذي يخبرنا بأن: كل زرعٍ نزرعه في حياتنا سوف يؤتي ثماره من نوع بذره نفسه، فإذا كانت تربيتنا لأبنائنا تربية حسنة، وقائمة على حسن الأخلاق وتعاليم ديننا الحنيف، وعاداتنا وتقاليدنا الطيبة، عندها ننتظر من أبنائنا كل ما هو جميل وحسن، وما تقرّ به أعيننا، ونفخر وقتها بتربيتنا لهم، وأن تَعبنا لم يذهب سدى؛ لذلك عندما يَرى أحد كبار السنّ شاباً تنمّ تصرفاته عن حُسن أخلاقه وأدبه وجميل تربيته، وكان والده معروفاً بسمعته الطيبة بين الناس، عندها يقولون: - تراه - «الحب ينقض على بذره»؛ بمعنى أن هذا ليس بغريب عنه، فإن والده سبقه بهذا، ولن تكون تصرفات الولد مغايرة لتصرفات والده، وفي هذه الحال يُضرب هذا المثل من باب المدح، وكأنه يقول: ونِعم التربية! و«يسلم الذي رباه»؛ أي الذي قام على تربيته!

ويأتي على هذا السياق المثل العربي المعروف «من شابَه أباه فما ظلم»، وهذا المثل من الأمثال التي تتعدى معناها لغير الذي ضُربت لأجله؛ أي يعمّ خيره، فيصل المدح لغير الشخص الذي قيل فيه هذا المثل، فإذا قلنا هذا المثل، فإننا نمدح من قام بهذا الفعل، ومن قام على تعليمه وتأديبه كذلك.

ما جعلني أسوق هذا الحديث، هو موقف جعلني أقف عنده بتحية إجلال وتقدير واحترام لصاحبه، وسوف أسرده مختصراً، حيث حدث هذا الموقف وقت إصدار كتابي الجديد «سنع المجالس»، عندما طلب مني أحد الأشخاص نسخة من كتابي السابق؛ (آداب صبّ القهوة)، عندها لم تكن متوافرة نسخة منه لدي في تلك الساعة، فوعدته بإحضار نسخة له، فقال لي: سوف أبعث مندوباً يتسلّم الكتاب، وبالفعل بعد أيام تواصل معي المندوب، ولكن لم يكن كأي مندوب، بل حضر وفي يده «دلة قهوة وطاسة حلوى»، وقال هذا لك، فقلت له ممن هذا؟ فقال من الشخص الذي بعثني إليك، (وهو الشخص ذاته الذي طلب مني كتاب «آداب صب القهوة في الإمارات 95 أدباً»)، فأعطيته الكتاب المطلوب، وقمت بالتواصل مع الشخص، فذكرت له القهوة والحلوى، فقال: «هذه ضيافتك، وكان المفروض نضيفك في البيت، ولكن السموحة منك، لعدم وجودنا، وهذا أقل ما نعمله أن تصلك (ضيافتك وفوالتك) أينما كنت».

لم يصدر هذا الموقف من شخص كبير في السنّ، بل من شخص في مقتبل العمر، ما يدل على أن عاداتنا وتقاليدنا مازالت بخير، وفي ظل حكومتنا، وما تقوم به من نشر هذه القيم والمحافظة عليها، وما تقوم به من مهرجانات وفعاليات تهتم بالعادات والتقاليد، ودعوتها المستمرة للمحافظة على إرث الأجداد، ما يؤكد هذا النهج السليم؛ لذا سنجد جيلاً محافظاً بأخلاقه وسنعه، ومثل هذه المواقف دليل على ثمرة ذلك النهج.

إن الإحساس بمسؤولية التمسك بالعادات والتقاليد مطلب مجتمعي، وعلى الجميع أن يحرص على التمسك به، فالوطن بحاجة إلى جيلٍ من الشباب الواعي للقيم والأخلاق، جيلٍ قادر على تصدير الأخلاق الحميدة ونشرها للعالم، جيل يؤمن بالتعايش والتسامح، ولن يكون هذا إلا من باب التمسك بعاداتنا وتقاليدنا الأصيلة، كم نسعد وتغمرنا السعادة لما نرى فعلاً أو تصرفاً حسناً من شاب أو شابة، يرسم به سلوكاً مجتمعياً حضارياً، يفخر به الوطن، ونقول إن هذا إماراتي!

انتهى,,,,

العمارة الرومانية

الجزء الثاني

وفاء داغستاني
مهندسة معمارية
اختصاص تخطيط عمراني
وتنمية مستدامة
معهد الشارقة للتراث

المميزات الأساسية لمخططات المدن الرومانية:

- إن أهم ما يميز العمارة الرومانية أنها اهتمت بالمباني الدنيوية أكثر من المباني الدينية، والأماكن العامة أكثر من الأماكن الخاصة.
- مارس الرومان فن تخطيط المدن منذ القدم، وكانوا قبل إنشاء المدينة يقومون بتخطيطها وبمجرد تحديد الموقع يتم البدء بتنفيذ الشوارع الرئيسة والفوروم. اتبعوا في تخطيط مدنهم الأسلوب الشطرنجي (التخطيط المتعامد).

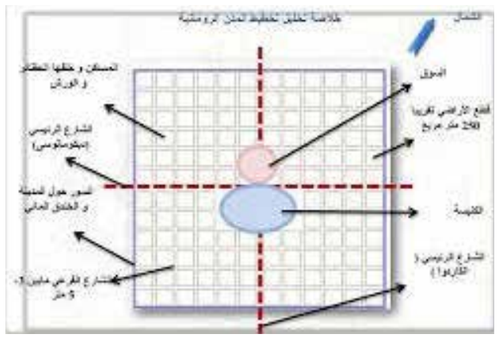

- تتكون المدينة من شارعين رئيسين، وعند نقطة تقاطعهما يوجد الفوروم.
- دمج الرومان المنطقة المقدسة والأجورا في المدينة الإغريقية في موقع واحد هو الفوروم. الموجود بمركز المدينة.

أمثلة عن المدن الرومانية:

Pompie مدينة بومبي

تقع مدينة بومبي على ساحل خليج إيطاليا قرب مدينة نابولي، بجانب بركان متجدد الثوران، أنشأها الإغريق عام 600 ق.م، ثم تطورت واتسعت في العهد الروماني، وازدهرت حتى وصل عدد سكانها إلى نحو 15 ألف نسمة، وتميزت الحياة الاجتماعية فيها بالعدالة والمساواة، حيث تعايش الغني والفقير دون تمييز.

كانت النواة المركزية للمدينة الفوروم تقع بين السوق والمعبد، وكان الدخول للفوروم سيراً على الأقدام. برزت فيها مبان ومسارح، وازدهرت فنونهم المسرحية، كما ظهر المدرج المفتوح، وتم إنشاء الحمامات العامة التي اشتهرت بها المدن الرومانية.

نكبت هذه المدينة بالبراكين مرتين، وقضي عليها ودفنت بعد بركان فيزوف عام 79م دفناً كاملاً تحت المواد البركانية، وتم حفظها سليمة بكاملها دون أن يؤثر فيها الزمن.

المباني في العمارة الرومانية:

1- المباني الدينية: المعابد والمقابر.
2- المباني السكنية: المنازل والقصور.
3- المباني العامة: المسارح – المدرجات – البازيليكيا – الحمامات العامة – قنوات الري والجسور – الطرق.
4- المباني التجارية.
5- المباني التذكارية: أقواس النصر – الأعمدة التذكارية.
6- الساحات: الفوروم.

أولاً: المباني الدينية:

المعابد: للمعابد الرومانية ثلاثة أشكال، هي:
الشكل الأول: يشبه الطراز الإغريقي، ذو المسقط المستطيل، ويختلف عنه بوجود القاعدة المرتفعة، وهو ذو رواق أمامي: البوديوم Podium.

مثاله: روما venus معبد فينوس.

أعمدته كورنثية، وسقفه قرميد زجاجي مغطى بطبقة من البرونز المذهب.

الشكل الثاني: يتكوّن من صالة مستديرة، يحمل سقفها من الخارج أعمدة محيطة بالحجرة المقدسة، وتعلوها قبة، يطلق عليها اسم باربيو كروي.

مثاله: معبد فيستا Vesta في روما.

الشكل الثالث: يطلق عليه اسم Rectonda

وهو دائري الشكل، كما في معبد البانثيون الذي بني في عهد أغسطس، أقيمت له قبة تعد من أضخم قباب العالم، والتي صممها المعمار السوري أبو لودورس الدمشقي، وهو ذو مسقط دائري مبني من الطوب والحجر والخرسانة، مغطى بقبة ضخمة، أعمدته كورنثية – وقد استعمل البانثيون في عهد البيزنطيين ككنيسة، ثم أصبح مدفناً للعظماء، ودفن فيه رافائيللو.

المقابر:

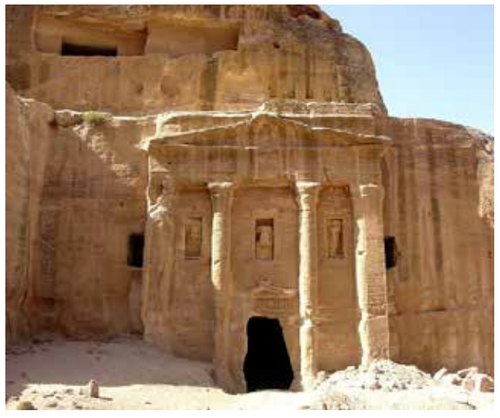

وجدت المقابر الرومانية خارج المدينة؛ لأن القانون الروماني حرّم ذلك، ولها أشكال عدة:

عبارة عن تجاويف في الجدران لوضع الجثث، يطلق عليها اسم كولومباريوم.

مقابر تذكارية: وهي لكبار رجال الدولة، عبارة عن مبنى دائري المسقط، وله قاعدة مثل قلعة سانت أنجلو في روما.

مقابر على شكل أهرامات بنيت من الخرسانة، مغطاة بالرخام الأبيض، وفيها غرف للدفن.

4- مقابر على شكل المعابد لها مدخل، وبنيت على مستوى مرتفع عن منسوب سطح الأرض.

5- مقابر بشكل مبانٍ تذكارية على شكل تابوت مزخرف بالتماثيل والزخارف المنحوتة.

ثانياً: المباني السكنية:

تعددت أشكال المباني السكنية:

1- منزل بحوش Atrium House

يتألف المنزل الروماني من قسمين مربعين تقريباً؛ الأول يسمى آتريوم، فيه ممر وفناء حوله غرف الاستقبال والمكتب. والثاني يسمى بيريستيليوم، فيه غرف النوم والطعام والغرف الخاصة.

2- مساكن ذات قيمة إيجارية :Insula

أقيمت مساكن للإيجار، وكانت تتجمع حول حوش، وتوجد في الطابق الأرضي محال تجارية مطلة على الشارع، وارتفاع المبنى 3 طوابق.

3- الفيلا :Villa

تتكون من ثلاثة أجنحة بشكل مستطيل، توجد الغرف السكنية في الجناح الشمالي وهي بارتفاع طابقين، أما الجناحان الشرقي والغربي، فتوجد فيهما المخازن ومعاصر الزيت.

وفي المباني الخاصة بكبار الأثرياء، فقد انفصل جناح السكن عن المخازن.

ويوجد نموذج آخر يعرف باسم (بورتيكو - فيلا)، يتكون من جسم طويل مع جناحين، يحتوي على غرف تنفتح على أحواش داخلية وحدائق، ويلاحظ في هذه الفيلات التكامل بين المبنى والطبيعة المحيطة به.

4- القصور: بنيت في العصر الإمبراطوري قصور فخمة في روما، وبعد حريق روما، بنى الإمبراطور نيرون قصراً فخماً، وأحاطه بالحدائق والبحيرات والغابات، ولكنه تهدم بفعل عوامل الزمن، وبني مكانه قصوراً صغيرة عدة.

ثالثاً: المباني العامة:

1- البازيليكا Basiliques (دار العدل):

هي كلمة إغريقية تعني صالة الملك، وتمثل حلقة الوصل بين العمارة الرومانية والعمارة المسيحية، ولم تكن البازيليكا الرومانية معدة لتكون كنيسة، وإنما استعملت كمقر لرجال الأعمال والتجارة والقضاء والتشريع، وهي بناء مستطيل مقسم إلى ثلاثة أجنحة، ينتهي كل جناح بمحراب سقفه على شكل نصف كرة لجلوس هيئة التحكيم، وفيما بعد استعملت ككنيسة في العمارة المسيحية.

مثال: بازيليكا قسطنطين بنيت في عهد يوليوس قيصر.

وأقدمها بازيليكا يور شا، ثم بازيليكا جوليا وإيميليا تعودان لعصر الجمهورية، وبازيليكا تراجان في عصر الإمبراطورية.

2- الحمامات العامة: تسمى Thermes

كثر وجود الحمامات العامة في الإمبراطورية الرومانية، حيث كانت تستخدم كمكان للمقابلات، ومكان ترفيهي، حيث احتوت على مكتبة وحديقة ومسبح وصالات رياضية. وصالة تدليك وأماكن للاستحمام بالماء والبخار، ومحال تجارية ومطاعم ومحال حلاقة ومكتبة وغيرها.. حيث كان الرومان في العهد الإمبراطوري يقضون فترة ما بعد الظهيرة في الحمامات، يتبادلون الحديث والمناقشات السياسية وغيرها. وكانت الحمامات تتسع لآلاف المترددين عليها في وقت واحد.

ويتألف الحمام من: فراغ خارجي يحيط بالمبنى، فيه حدائق ونافورات وتماثيل.

2- المحيط الخارجي: هو عبارة عن حاجز حول المبنى، يوجد فيه مبنى من طابقين، فيه حجرات تعليمية وصالات للشعراء والفلاسفة، وأيضاً توجد خزانات للمياه ومحال تجارية ومساكن للخدم، ويوجد قبو تحت الأرض يحوي خزانات لتسخين المياه وتوصيلات الهواء الساخن لتدفئة الحمام.

3- المبنى الرئيس: هو مبنى الحمام، ويقسم إلى 3 أقسام:

القسم الحار - القسم الفاتر - القسم البارد.

أنشأ القياصرة 12 حماماً تقريباً، إلا أنها زالت بسبب عوامل الزمن والحروب، ولم يبق منها غير اثنين هما:

* حمام كاراكالا في روما Caracalla.

* حمام ديوكليسيان: وهو أقل أهمية من حمام كاراكالا.

وفي سورية توجد حمامات شهبا.

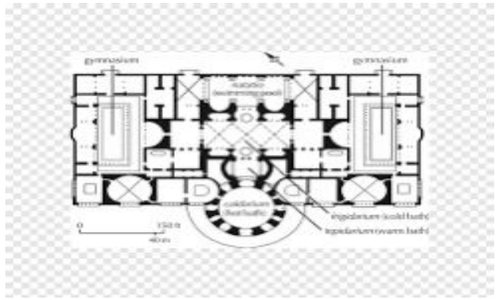

3- المسارح والمدرجات والملاعب:

شيّد الرومان المسارح والملاعب بكثرة، واقتبسوا فكرتها من الإغريق، تم تصميم المسارح الرومانية على شكل نصف دائرة، مثل المسارح الإغريقية، وهي عبارة عن المدرج والأقواس والأعمدة.

ومن المسارح: مسرح ماشيلو الذي شيد بأمر من يوليوس قيصر، وهو عبارة عن:

المدرج Cavia.

الحلبة – الأوركيسترا Orchestra.

المسرح Theater.

ومثاله: مسرح بصرى في سورية، ومسرح مرسيلوس في روما.

مسرح بصرى.

أما المدرجات، فهي رومانية الأصل، ولم تكن معروفة عند الإغريق، وكانت تعبيراً واضحاً عن حياة الرومان، وأعدت لحفلات المصارعين والوحوش، والتي تمثل القوة والقسوة والوحشية، كالمصارعة بالسيوف بين أسرى الحروب والوحوش المفترسة حتى الموت؛ لتسلية المشاهدين.

ومن أشهر المدرجات:

مدرج روما الكولوسيوم Coleseum

وهو عبارة عن بناء مستدير، مسقطه بيضوي الشكل، تتوسطه حلبة المصارعة، وكانت أعمدة الدور الأول من الطراز الدوري، أما أعمدة الطابق الثاني فكانت من الطراز الأيوني، والطابق الثالث كانت الأعمدة الكورنثية. يتسع المدرج لـ90000 متفرج، ويعدّ واحداً من أعظم الاعمال المعمارية والهندسية الرومانية.

تعرض المدرج خلال العصور الوسطى لأضرار كبيرة، نتيجة لهزة أرضية أدت إلى انهيار جزء كبير منه. وفي القرن الـ18 أعطي المبنى أهمية دينية أسهمت في الحفاظ عليه؛ لأن الكنيسة الكاثولوكية زعمت أن مسيحيي روما الأوائل تم تعذيبهم وقتلهم داخل حلبة الكولوسيوم، وفي وقت لاحق تحول إلى مزار مسيحي ساعد على حمايته من السلب والنهب، وضمان صيانته، وحالياً أصبح أكثر الآثار جذباً للسياح في روما.

من أشهر الملاعب ملعب ماسيمو في روما.

4- الجسور والأقنية: هي عبارة عن جسور على قناطر ذات طابقين، تنقل عليها المياه إلى أماكن مرتفعة، ومن أشهرها جسور وأقنية سيقونيا التي أنشئت في عهد تراجان. أما في سوريا فتوجد الجسور في مدينة حماة بجانب النواعير. وأشهر الجسور هي التي أنشأها المعمار الدمشقي أبولودورس هو جسر دوبروجا على نهر الدانوب في هنغاريا.

رابعاً- المباني التجارية:

وجدت المحال التجارية في العديد من المباني السكنية في الطوابق الأرضية المطلة على الشوارع.

كما بنيت الأسواق حول الفوروم، وكانت هناك أسواق مخصصة كأسواق المأكولات والملابس... كما وجدت في بعض الموانئ محال متعددة الطوابق، خصصت للبيع والإدارة والتخزين.

ينفتح المبنى التجاري على حوش داخلي، مع وجود محال مطلة على الشوارع، بنيت جميعها من الطوب، من أشهرها سوق تراجان الذي كان أكبر المباني التجارية. يحتوي على محال تجارية ومكاتب وورش، وهو مكون من 6 طوابق.

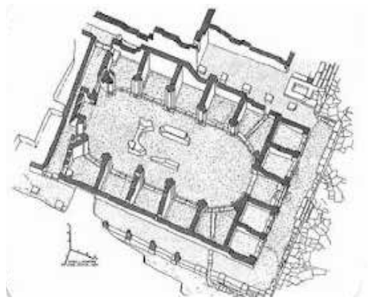

خامساً- المباني التذكارية:

1- أقـواس النـصر: اهتـم الرومـان بتشـييد أقـواس النـصر تخليـداً لعـودة الإمبراطـور المنتـصر مـن حروبـه. وهـو عبـارة عـن بنـاء حجـري ضخـم، لـه بـاب واحـد، ثـم أصبحـت لـه ثلاثـة أبـواب، وفيـما بعـد زودت الأقـواس بعنـاصر تزيينية كالأعمدة الرخامية والأفاريز المزخرفة، والكتابات، وخصصـت الفتحـة الكبـيرة لمـرور العربـات والخيـول، بينـما الفتحتان الجانبيتان الصغيرتان فقد خصصتا لمرور المشاة. وفي عـصر الجمهوريـة الرومانيـة بنـي عـدد قليـل مـن أقـواس النـصر، أمـا في عـصر الإمبراطوريـة، فقـدت شـهد ثـورة في إنشـاء هـذه الأقـواس، فقـد بنـي نحـو 36 قوساً.

- إن أقـدم قـوس معـروف هـو قـوس تيتـوس، وهـو مؤلـف مـن بـاب واحـد.

- ثـم تلتـه الأقـواس ذات الأبـواب الثلاثة: كقوس سـيبتموس سـيفيريسي في روما.

- ثم قوس قسطنطين، وهو مؤلف من ثلاثة مداخل.

- وقوس النصر في مدينة جرش بوابة هدريان.

كانـت تبنـى أقـواس النـصر في الغالـب عـلى امتـداد محاورالحركـة الرئيسـة، وارتبطـت أسـماؤها بأسـماء الأباطـرة الذيـن أمـروا بإنشـائها.

وهناك أقواس نادرة في فرنسا شيدت بمدخلين فقط.

* الأعمدة التذكارية

أقام الرومان الأعمـدة التذكاريـة تخليـداً لانتصاراتهـم في الحـروب، ومـن أشـهرها عمـود الإمبراطـور تراجـان في رومـا، الـذي يمثـل انتصـار الإمبراطـور تراجـان في حروبـه عـلى رومانيـا.

يتكـون العمـود مـن 18 جـزءاً، ويصـل ارتفاعـه إلى 43م، بداخلـه سـلم حلـزوني، وزخـرف مـن الخـارج بنقـوش بـارزة، عـبرت عـن دقـة المعـماري الدمشـقي السـوري أبولـودورس الـذي صمـم ونفـذ العمـود، ومـن الأعمـدة الأخـرى: عمـود مـارك أوريـل في رومـا بارتفـاع 44م.

سادساً- الفوروم Forome:

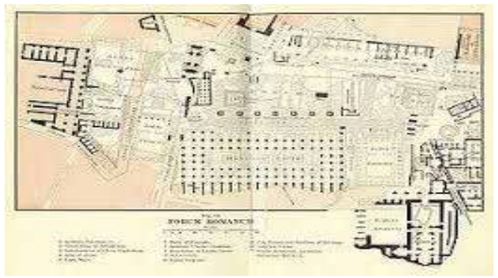

وهـو مـا يمثـل الأجـورا في المدينـة الإغريقيـة، وهـو عبارة عـن فـراغ مفتـوح غـير مغطـى (ميـدان، سـاحة) مركزي في وسـط المدينـة، نتج عن تقاطع الشـوارع الرئيسـة، يسـتعمل كمـكان للمقابـلات والمبـادلات التجاريـة والفعاليـات الاجتماعيـة، ويتكـون مـن فـراغ يحيـط بـه معابـد وأبنيـة رسـمية خاصـة بالأعـمال الاقتصاديـة والقانونيـة والدينيـة، وأهـم فعالياتـه هـي: السـوق والمعبـد المطـل عليـه.

مثـال ذلـك: فـوروم رومانيـوم هـو الأقـدم، وقـد اسـتعمل كميـدان للسـباق والمبـارزة محاطـاً بمبـان عـدة، ومـزوّد بنصـب تذكاريـة. وفـورم تراجـان في رومـا هـو أكبر وأشـهر الميادين عامـة، وفـورم جـرش في الأردن.

فوروم تراجان – روما

سورية والفن الروماني

إن للسـوريين أثـراً في الحضـارة الرومانيـة، ويتضـح ذلك من المنشـآت الفخمـة التـي أقامهـا المعماريـون والفنانـون السـوريون، مثـل فـورم تراجـان وحمامـات كاراكالا، عـلى يـد المعـمار الدمشـقي السـوري الشـهير أبـو لـودوروس. حيـث يتألـف فـوروم تراجـان مـن سـاحة كبـيرة، تحـوي قصر العـدل ومكتبتـين، وأسـواقاً مسـقوفة وعمـوداً تذكاريـاً، وبازيليـك أولبيـا.

أكبر جسر على نهر الدانوب وهو جسر دوبروجا.
- أما حمامات كاراكالا فهي من أعمال سلالة سورية حكمت روما بين عامي 211- 235م، وكانت تتسع لـ1600 مستحم، وهي مزينة بالمرمر والفسيفساء، تحيط بها الحدائق وأحواض المياه، وفيها قاعات للراحة والرياضة والمسابح والمكتبات والمتاحف. وفي عام 244 تبوأ الإمبراطور فيليب العربي الإمبراطورية الرومانية (نشأ فيليب في مدينة شهبا، وكان أبوه من شيوخ حوران). بنى فيها مباني ضخمة، مازالت موجودة حتى الآن، مثل: (مدفن فيليب – المسرح – النصب – الشوارع)، وجعل بصرى مدينة كبيرة (متروبول).
كما شيّد فيليب العربي في روما قصراً ضخماً بأيادي معماريين سوريين.
وتمتاز أكثر المعابد السورية في العهد الروماني بالطابع الزخرفي وبالرشاقة، ومن أشهرها معبد بل في تدمر، ومعبد جوبيتر في دمشق.
بالإضافة إلى انتشار المسارح العامة في سورية، ومن أهمها: مسرح تدمر، ومسارح جبلة، وأفاميا وشهبا. وحمامات شهبا وبازليك في القنوات وأفاميا

معبد بل في تدمر

معبد جوبيترفي دمشق

والخزانات في بصرى والطرقات مثل طريق الآثارب، والأسواق والأبواب كما في دمشق. أما مسرح بصرى فيعتبر أضخمها، حيث يتسع لـ15000 متفرج، وهو عبارة عن مدرج على شكل نصف دائري، يطوقه من الأعلى رواق بأعمدة توسكانية، وتحت الرواق تتوالى المدرجات لجلوس المشاهدين على 27 صفاً على شكل ثلاث مجاميع، تقطعها طولاً وعرضاً ممرات تؤدي إلى أبواب الدخول والخروج، أما المنصة فتقع تحت واجهة مرتفعة.

مدرج بصرى

أمر ببناء المدرج الإمبراطور تراجان بأيدي معماريين سوريون على رأسهم أبو لودوروس.

خصائص العمارة الرومانية:

1- استمد الرومان أصول تنظيم المدن وبعض أساليب العمارة من الآيتروسيك، ولكن استقر الطابع الإغريقي على عمارتهم.
2- كان تخطيط المدن شطرنجياً شبكياً، بوجود شارعين متقاطعين، نتج عن تقاطعهما الفوروم.
3- انتشرت العمارة الرومانية في جميع أنحاء الإمبراطورية، واعتمدت على قواعد ثابتة أطلق عليها القواعد الكلاسيكية.
4- مقياس المباني مهيب، ويعكس عظمة الرومان، فاستخدموا العقود والقناطر التي أخذوها عن الفن الرافدي عن طريق الآيتروسك. واستعاضوا عن السقف الخشبي الإغريقي بالقبوات والعقود الحجرية، وطوروا القبة لتسقيف المساحة الكبيرة المستديرة. أما الأعمدة فكانت كعنصر زخرفي، وليس كعنصر حامل، وحلت محلها الجدران الحاملة، كما استعملوا الأقواس للنوافذ والأبواب وكان للإسمنت شأن كبير في بناء العقود والقبوات.
5- استخدم الرومان الطراز الإغريقي نفسه في عمارتهم الدوري والأيوني والكورنثي، إلا أنهم أدخلوا عليها بعض التعديلات التي جعلتها أكثر امتشاقاً وجمالاً.
6- أقيمت العمارة الرومانية بالحجر المنحوت بدقة، ولم يستعملوا الملاط بالبداية لتثبيت الأحجار، بل استخدموا الفواصل المعدنية، كما استخدموا إلى جانب الحجارة في البناء الغضار المحروق.
7- ابتعدت عمارتهم عن التأثيرات الدينية، فظهرت المسارح والمدرجات وأقواس النصر والحمامات...
8- يقوم المنزل الروماني على الأسس الرافدية القديمة نفسها، حيث تفتح نوافذ الغرف وأبوابها على الفناء الداخلي، ولا توجد نوافذ خارجية.
9- تكسى الجدران الداخلية بقطع هندسية من الرخام الملون بزخارف منتظمة،تسمى في بلادنا(المشقف).
10- نتيجة اختراع مادة الخرسانة ظهر نظام الأقبية.

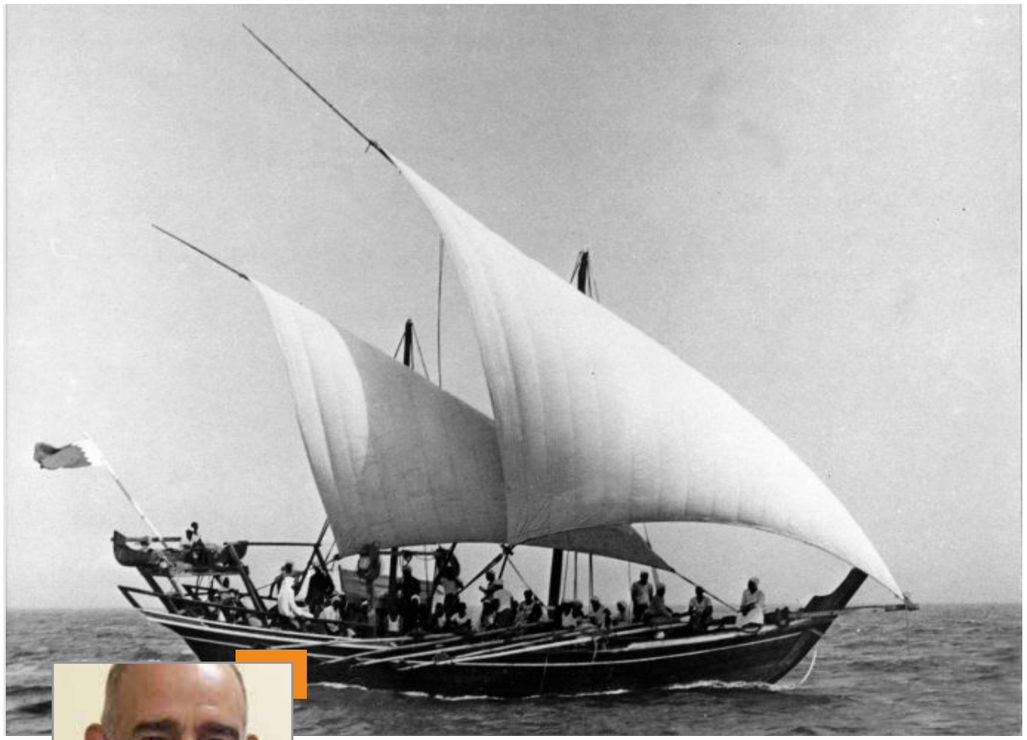

الغوص للؤلؤ
وأمثاله الشعبية

د. يوسف احمد النشابه
كاتب – البحرين

جلجامش في أرض الخلود

أطلق السومريون ثلاثة أسماء على الخليج العربي، هي:

البحر الأسفل، والبحر المر، والاسم الثالث هو البحر الذي تشرق منه الشمس، وقد تداولت النصوص السومرية والبابلية موقع دلمون، الوطن الأبدي للسلف الخالد لكل البشرية، وذلك ما استدعى الملك البابلي جلجامش للإبحار إلى دلمون؛ بحثاً عن زهرة الخلود، وذلك بتوصية من إله الماء العذب أنكي.

ملك بابل جلجامش عرف عن دلمون الكثير من المعلومات، كونها أرض الخلود، قبل أن يقرر التوجه مُبحراً إليها، وذلك من خلال ما ورد في أسطورة الإله أنكي؛ إله المياه العذبة، وعلى لسانه واصفاً إياها في مقطوعات شعرية سُجلت على ألواح طينية، كتبت بالخط المسماري.

«أيتها المدن المقدسة – قدموهم إليه

فإن أرض دلمون المقدسة يا سومر المقدس، قدمه إليه، فإن أرض دلمون، لمقدسة.

إن أرض دلمون المقدسة، إن أرض دلمون الطاهرة، إن أرض دلمون النقية، إن أرض دلمون لمقدسة.

إن دلمون مقدسة؛ لأن الوحش فيها لا يقوم بافتراس الوحش الآخر، ولا توجد فيها الأمراض، ولا الشيخوخة.

لا ينعب الغراب في دلمون، ولا تطلق الدجاجات البرية صيحاتها تلك، ولا يقوم الأسد بالافتراس، ولا يخطف الحمل».

آلام الملك البابلي جلجامش

لقد تألم الملك البابلي جلجامش من موت أخيه، وبعدها موت أعز الأصدقاء له، فقرر أن يبقى مخلداً؛ بالحصول على زهرة الخلود من بحر دلمون المقدسة الذي يمتاز بحره المالح بالمياه العذبة التي تنبع في قاع اللج.

قرر جلجامش الرحيل إلى دلمون في سفن؛ للحصول على زهرة الخلود (اللؤلؤة).

وإن زهرة الخلود تقبع في قاع البحر، قرب ينابيع المياه الحلوة، وهنا يتوجب على جلجامش أن يربط حجراً ثقيلاً يشده ليغطس نحو قاع البحر بسرعة؛ للبحث عن زهرة الخلود.

(البحث عن دلمون)1

الخليج للجميع

منذ عهد جلجامش الذي حكم بابل ما بين 2500-2800 قبل الميلاد، كانت دلمون مركزاً تجارياً لتجارة اللؤلؤ؛ لما تحتويه مياهها من ينابيع مياه عذبة، وسط البحر المالح، ما جعل ما يجمع من أصداف تتغذى على نوعين من المياه، ماء البحر المالح، ومياه الينابيع العذبة، وهذا ما جعل اللؤلؤ المستخرج من سطح قاعها مميزاً دون غيره من اللؤلؤ في مناطق أخرى.

كان الغوص للؤلؤ المصدر الرئيس لأبناء الخليج، فازدادت نسبة العاملين في صناعة الغوص، ما ترتبت عليه الزيادة في صناعة السفن في بلدان الخليج عامة، والبحرين بصفة خاصة.

وقد أصبحت مياه الخليج مناطق يكثر فيها المحار، فهو مشاع لجميع سفن الغوص الخليجية، والموانئ القريبة مفتوحة لكل السفن؛ للتزود بالمؤن، ومياه الشرب.

وتمتاز مياه الخليج بمياهها الدافئة التي تكاد تنعدم فيها التيارات المائية القوية التي تضر السفن، وأهم ما يميز قاع البحر هو تلك التربة الطينية والرملية التي تحتوي على الشعب المرجانية والعضوية، وكون الخليج له منفذ واحد، نجد أن ظاهرة المد والجزر متوافرة في

تلك المياه مع وجود ارتفاع نسبي في درجة الحرارة، فيما يطلق عليه أهالي الخليج «الهيرات»، وهي مناطق محددة لصيد اللؤلؤ. (الهيرات)2

وفي بحر الخليج العربي جميع مغاصات اللؤلؤ (الهيرات) والتي يقدر عددها بنحو 300 (هير) مشهورة بالغوص، وهي أكثر نفعاً، وأمكن وجوداً للطلب من سائر البحور مثل الهندية واليمنية والبحر الأحمر.

ورد في كتاب التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية – تاريخ البحرين

«أن حاصلات البحرين من اللؤلؤ، وجل شغلهم هو الغوص في البحر لاستخراج اللؤلؤ منه، ويبدأ زمن استخراجه في الربيع من أول برج الثور إلى نصف برج الميزان. وقد أجمع الجواهريون على أن لؤلؤ البحرين يفوق سائر الآلئ بهجة ونفاسة.

وقد قدر ثمن ما يخرج فيها سنوياً من اللؤلؤ بقيمة: ثلاثين ألف روبية».

(ألوان من تراثنا الشعبي) عبدالرحمن سعود مسامح

اللؤلؤ الطبيعي يمتاز ببياض باطنه، في الوقت الذي يكون باطن اللؤلؤ الصناعي أسود، ويمتاز لؤلؤ البحرين بسبع طبقات، وهذه ميزة تختلف عن بقية اللآلئ التي تتكون من ثلاث طبقات، وبعض يصل إلى خمس طبقات. وتكمن فائدة هذه الطبقات في أعمال صيانة اللؤلؤة حين يصيبها بعض الخدوش، فتتم إزالة الطبقة بالكامل، دون أن تفقد اللؤلؤة من قيمتها الفنية، وذلك من قبل الصناع المهرة من خارقي اللؤلؤ.

(أحمد فردان – تاجر لؤلؤ بحريني).

الغوص في البحرين

اشتهرت البحرين منذ أن كانت حضارة دلمون بصناعة الفخار، كما دلت على ذلك المكتشفات الأثرية في مناطق أثرية متعددة، وكذلك اشتهرت بصناعة النسيج الذي كان يصدر لدول الجوار، وكما اشتهرت بحياكة الأشرعة التي كانت تصدر هي أيضاً.

وصناعة السفن للسفر، وصيد الأسماك، ودخول الغوص في مواسمه المحددة أنتجت صناعاً مهرة، قد استفادت من خبرتهم العديد من دول الخليج.

الغوص للؤلؤ:

لو عدنا إلى تاريخ بلاد ما بين النهرين، لوجدنا هناك وثائق تاريخية تسجل علاقات تجارية بين دلمون (البحرين)، وبلاد ما بين النهرين (العراق)، ووثيقة تاريخية سجلت أن سفن دلمون في عهد الملك (أورناشا) ملك (لاجاش) في عام 2520 قبل الميلاد، وتذكر هذه الوثيقة أن «سفن دلمون قد جلبت الأخشاب من بلاد أجنبية»، (وقد يقصد بلاد الهند والسند).

ونص آخر وثائقي يرجع تاريخه إلى سنة 1800 قبل الميلاد، يذكر:

أن «بعثة من تجار بلاد ما بين النهرين أرسلت إلى دلمون لشراء النحاس، حيث كانت دلمون مركزاً لتجميعه ثم تصديره إلى دول أخرى».

(من تراث البحرين)3

يوم الدشة

يتم الإعلان رسمياً عن يوم الدشة؛ وهو يوم تغادر فيه سفن الغوص إلى عرض البحر، حيث الهيرات، وهذا هو موسم الغوص الذي يستمر إلى ثلاثة أشهر، ويمتد إلى الشهر الرابع.

أهمية الأمثال الشعبية

إن الأمثال الشعبية وقبلها الأمثال العربية التي يرتبط بها المثقفون والأدباء لتعزيز أفكارهم وتوضيحها بأقل الكلمات.

وقد وردت الأمثال في سور القرآن الكريم، وذلك لما لها من أهمية لتوضيح فكرة ما بأقل الكلمات والشرح المفصل.

والغوص حاله حال كل جوانب الحياة العملية، فقد وردت العديد من الأمثال الخاصة بمجريات الحياة المتعلقة بمهنة الغوص، وهي تُعد سجلاً تاريخياً لما كابده الأجداد من شقاء على ظهر سفن الغوص وفي قيعان البحار.

والأمثال شملت حياة الأهل اليومية، لمن هم ينتظرون عودة أحبتهم بعد غياب لا يطاق.

أمثال الغوص

1- إما جاور بحر، أو جاور غني

إن البحر بالنسبة لأهالي البحرين كنز لا ينضب؛ ففيه كل الخيرات التي تغني العائلة عن الحاجة، فقد شبه البحر بالغني الذي يمتلك من نعم الله الخير الكثير، فوجه الشبه بين البحر والغني هو ما يجودان به من خيرات.

2- اندب رجال، ولا تندب دراهم

يقال هذا المثل لتوضيح ضرورة الاعتماد على الرجال ذوي الهمة، والعزيمة، والمرجلة، ويقصد بهم الغواصون.

3- إذا كان هذا حظك غوص

يضرب هذا المثل لسعداء الحظ الذين تتحقق أمنياتهم، ومن هذا تبرز أهمية الغوص؛ فالمحظوظ هو من يحصل على لؤلؤة ثمينة.

4- البحر الداش فيه مفقود، والخارج منه مولود.

إنه حدث تاريخي في البحرين، حيث تخرج مئات السفن من جميع قرى السواحل في جزيرة المنامة، ومئات السفن من جزيرتي المحرق، وجزيرة سترة.

ويقود هذه السفن سفينة السردال إلى مغاصات اللؤلؤ، ومن هناك تجوب كل سفينة مغاصات اللؤلؤ، والتي يطلق عليها الهيرات، والمفرد منها الهير.

تخرج كل فئات المجتمع من شيوخ، ورجال دين، وكبار، وصغار، وحتى النسوة وأطفالهن كلهم يخرجون لتوديع رجال الغوص.

5- هبت هبايب يا ربي تعود اللي غايب

وهذا الدعاء الذي غدا مثلاً كانت ترددده النسوة حين يجدف البحارة مبتعدين عن السيف إلى عرض البحر، وبعدها يتم رفع الشراع، آملات أن يعود ذويهن من الغوص سالمين غانمين.

الغوص وأمثاله

وما أن ترفع الأشرعة لتعانق الريح متجهة بعيداً عن أعين المودعين التي تلمع بلوعة الفراق؛ لفراق الزوج، أو الابن، أو الحبيب، وأيديهم ترتفع بالدعاء أن يكون موسماً آمناً، وبه صيد وفير، وخير وبركة.

تخلو الديرة من الرجال؛ كونهم في الغوص، ولا تجد إلا رجال الدين، وبعض الصناع المهرة في صناعة السفن، والنسيج، والفخار، وصناعة الحدادة؛ كونها مهناً لا

يتوقف الطلب عليها، وبما أن غالبية الناس في البحرين، وخصوصاً في جزيرتي المنامة، وقرى جزيرة سترة، يعملون في الزراعة، نجد المثل التالي يوضح ذلك:

6- الغوص يهبوب والجازرة مده.

ويقصد به قصر مدة فترة الغوص، وطول مدة العمل في الجازرة التي هي إحدى أنواع طرق الري القديمة.

7- البحر الداش فيه مفقود والخارج منه مولود.

نظراً للمخاطر في قاع البحر؛ بسبب مهاجمة أسماك القرش (الجرجور)، والأمراض، والبعد عن الأهل، يقال هذا المثل لمن يواجه الصعاب.

8- البحر ما له أمان

يقال للرجل المخادع الكذاب في تعامله، فحاله كحال البحر الذي قد تعصف فيه الرياح، وتتحول أمواجه إلى أمواج عاتية.

9- بارز أبرز من دراهم الغوص.

وقبل دخول الغوص يقدم النوخذة مبلغاً كسلفة للغواصين؛ لمساعدة أهاليهم أثناء غياب عائلهم، ويطلق عليها (سلفة) دون تأخير، ويقال المثل لكل من هو مستعد حين يطلب منه إنجاز عمل ما.

10- راحت رجال الترقع الدروازة، وجات صبيان المطنزة والعازة.

هذا المثل يقال للوضع الذي تختفي فيه الرجال ذات القبضة القوية، حين تضرب الباب الخارجي الذي يطلق عليه دروازة، وهي كلمة فارسية، ولم يبق إلا الصبيان فاقدي الرجولة.

ومن الفئات التي لا تدخل الغوص هم البحارة الذين لم تعد لهم القدرة على دخول الغوص، ويكتفون بصيد الأسماك ولسان حالهم يمثله المثل:

11- شلك بالبحر وأهواله ورزق الله على السيف

حكاية تعزز هذا المثل: نزل الغيص عيسى الدلال لقاع البحر، وما هي إلا لحظات وإذا بلخمة تجلس على ظهره، وتحك صدره بقاع البحر، وهو ينزف دماً، ويشد الحبل كي يخرجه السيب.

عرف السيب على ظهر السفينة بالأمر، فطلب من أحد البحارة - وهو المرحوم جاسم مهنا، وكان رجلاً قوي البنية - كي يغوص، لينقذ عيسى الدلال، فما أن رأى منظر اللخمة حتى تقدم لها يلاعبها بأصبعه تحت بطنها، فأخذت ترتفع عن ظهر الغيص عيسى الدلال، ليرتفع عن قاع البحر، والدماء تتساقط من صدره.

هذه واحدة من أهوال البحر.

(الراوي المرحوم عيسى الدلال)

بحارة سفن الغوص

النوخذة

هو ربان السفين (أمير البحر)، وهو المسؤول عن كل ما يتعلق بالسفن وإبحارها من بداية إبحارها حتى (القفال) العودة من الغوص. والنوخذة على دراية بالبحار، وإدارة شؤون البحارة، دون أي منافس له في قراراته.

12- نوخدايين في سفينة طبعوها

وحين تصل السفن للهيرات يطلب النوخذة من أحد البحارة أن يقيس عمق البحر؛ لمعرفة اسم الهير من عمق قاعه.

13- قيس قبل تغيص

وهذا المثل يوضح عدم وجود أكثر من نوخذة على ظهر السفينة، والمثل يحذر النوخذة بأن يقيس عمق البحر قبل أن يطلب من بحارته الغوص.

الغيص

عندما يبدأ العمل نجد كل سيب يضع المجاديف التي تكون رابطاً بينه وبين الغيص الذي يغوص بحبلين؛ أحدهما يسمى (الزيبل)، وبه حجر ثقيل، ينزل بسرعة إلى قاع البحر، وما أن يصل حتى يتركه ليسحبه السيب، كون مهمته قد انتهت.

والآخر يسمى (الجدا)، يكون معه، وما أن يشعر بالخطر حتى ينبر (يهز) هذا الحبل؛ كي يسحبه السيب إلى خارج قاع البحر.

14- أصبر والحجر اوديك

وبعد أن يجمع الغيص ما يتمكن من جمعه من المحار يقوم بنبر الحبل؛ ليشده السيب إلى أعلى من على ظهر السفينة، فيقوم بسحبه بسرعة، ليخرجه من البحر.

15- السكران ينبر براسه

والسكران تقال للشخص الذي يغطس في البحر، وينقطع نفسه، وينبر أي يحرك الحبل المتصل بالسيب.

16- إذا صكت الحلكة لفطام كال يمه الحقيني

المثل يوضح حالة الغيص، وانقطاع نفسه، ولفطام هو ما يجعله الغواص على أنفه إذا نزل البحر؛ ليلتقط المحار، ولفطام يصنع من عظام السلاحف، أو ظلف الغنم.

السيب

هو البحار المسؤول عن إنزال الغيص إلى قاع البحر، وإخراجه حينما ينبر الغيص.

الرضيف

هو الرديف أي المساعد في عمر المراهقة؛ حتى يتعلم مهنة الغوص في عمر مبكر، ويعتاد البحر، والقيام بالمهام الخفيفة.

التباب

هو صبي عمره ما يقارب العشر سنوات؛ ومهمته صب القهوة والشاي، وخدمة البحارة.

النهام

هو المغني أو المنشد الذي يخفف من آلام لوعة الفراق، وهو من يرفع من الهمم عند البحارة في أوقات رفع الشراع، أو التجديف، أو حين السمر، حيث تكون الأغاني شبه رومانسية.

وهناك من البحارة لمجدمي، والطباخ، وكل له دوره.

موسم الغوص يكون في الصيف، حيث حرارة الشمس مرتفعة، وكذلك حرارة البحر؛ وهذا ما يجعل البحارة يعطشون، ويكثرون من شرب الماء، وقدح الماء هو نصف قشرة جوز ثمرة النارجيل، وتسمى قبعة، وقد دخلت في الأمثال الشعبية:

17- البحر سبعة والعتاد سبعة

يقال هذا المثل في عدم الحصول على نتيجة مثمرة في حال تساوي الضدين.

البحر سبعة يعني عمقه أبوع؛ والباع طول قامة الرجل المعتدل، والعتاد هو الحبل الذي في نهايته حجر، يطلق عليه (سن)، ليثبت السفينة في مكانها أثناء الغوص، وهنا لا تتحقق النتيجة لتساوي عمق البحر وطول الحبل (العتاد).

18- قبعة خلصت الفنطاس (تانكي الماء)

وكما هو الماء يشرب، والصراصير تسبح في خزان الماء، نجد أن التمر غير الملقح يطلق عليه (شيص)، ولا أحد يشتريه لعدم وجود طعم فيه مستساغ، ولكن الغواصين يأكلونه من الجوع، وقلة المأكولات والتمر الجيد.

19- الشيص في الغبة حلو و(الغبة هي البحر العميق)

وحين تصل السفينة إلى إحدى المغاصات يتم إنزال الباورة في البحر؛ كي لا تتحرك السفينة من الأمواج الخفيفة، أو قد يحركها الهواء من موقعها، وهذا يجعل الغواصين في قاع البحر بعيدين عن المرساة (الباورة أو البيوار).

وهنا يقال المثل الشعبي:

20- البار على البيوار

يقال لمن قوته من غيره مثل الغواص اعتماده على السيب في خروجه من قاع البحر، وكلمة بار تعني الحمل، أو الثقل، وهي كلمة فارسية، والبيوار هو ما يعرفه الناس (الباورة)، وهي المرساة، والمعنى هنا أن السفينة تعتمد الباورة.

21- صمخ النواخدة

إن بحارة السفينة الكبيرة يصل عددهم إلى نحو الأربعين بحاراً، وهذا مؤشر على أن الخلافات واردة بينهم، وقد تعلو أصواتهم وسبابهم على بعض، إلا أن النوخدة يتجاهل كل ما يدور من خلافات، وكأنه أصمخ؛ أي فاقد حاسة السمع.

ويقال المثل لمن لا يهتم بما يدور حوله من خلافات.

خلافات وتآمر

يبلغ عدد البحارة نحو الأربعين، فلا تخلو حياتهم من مشكلات، ومن هذه المشكلات أن الغيص الجديد يكون مكانه في مقدمة السفينة، وغالباً هذا الموقع يرفضه الغواصون؛ لأن الغواص حين يخرج من قاع البحر غالباً ما يصطدم بجسم السفينة، خلاف من يكون في المؤخرة.

(الراوي المرحوم حجي إبراهيم الوادي)

22- قال ما أطوف قال انسع له

هذا المثل يبرز قوة شخصية النوخذة في اتخاذ القرارات دون مقاطعة، ويضرب المثل لاستحالة أو صعوبة عمل ما، وفي المثل يعني خشبة الدستور التي يربط فيها طرف الشراع، فيدفع البحارة الدستور إلى الأمام؛ ليستقيم الشراع، وهي عملية صعبة، لكن النوخذة يصر بقوله: انسع؛ أي ادفع بقوة.

23- قلبه صور

وهنا يشبه النوخذة أو أي شخص يقال له هذا المثل، إن قلبه (بفتح القاف) ميلان الصُّوَر (بتشديد حرف الصاد، وضم الواو) والصور خشبة مهمة جداً في السفينة، وهي يعتمد عليها في إمساك سطح السفينة.

24- الباز ما يتحاجه.

وهناك بعض الغواصة من يعتدّ بنفسه، ويتفاخر كونه يبقى مدة أطول في قاع البحر، أو أنه حصل على لؤلؤة مميزة، فيضرب به هذا المثل، والباز هو طائر جارح من فصيلة الصقور.

25- أخذنا بشراع ومجداف

وحين يشتد النقاش والجدال تكون الغلبة للذي لا يتوقف عن الكلام، ويواصل في توجيه التهم لمن يجادله، أو يختلف معه، والمثل طرح أهم وسيلتين للإبحار بسرعة؛ وهما التجديف، معتمداً على القوة العضلية للبحارة، والشراع الذي يعتمد على شدة الرياح.

26- دفعة مردي والهواء شرقي.

هذه واحدة من دعاوى الغاصة على بعضهم والآخرين: المردي هي خطرة طويلة تستخدم لدفع السفينة عن السفن الأخرى، أو مبنى الفرضة (الميناء)، وتستخدم لتسيير القوارب الصغيرة في المياه الضحلة، والدعوة تضاف إلى خشبة المردي كأداة ضرب في الصدر، الهواء الشرقي المشبع بالرطوبة.

27- جامعة وفرمن

الجامعة هي البكرة الكبيرة التي يمر فيها حبل الدقل، والفرمن هي خشبة مستطيلة تحمل الشراع، وكلا الجامعة والفرمن لا يلتقيان، فعندما يرفع الفرمن تنزل الجامعة، والعكس صحيح.

28- سدرة والسيف

يتوجه البحارة إلى أقرب ميناء؛ للتزود بالمؤن، مثل الرز، والدهن للطبخ، والأهم هو التزود بالماء، وأن سدر السفينة، هو مقدمتها، والسّيف (بتشديد حرف السين مع كسرها) هو ساحل البحر، ويضرب هذا المثل على البندر الذي يتوجهون له.

أمثال حكايات الغوص

العديد من الأمثال قيلت نتيجة حدث ما، أو حكاية جرت أحداثها في مكان ما، وله شخصيات. وهناك العديد من الأمثال العربية أخذت مكانتها في الأدب العربي هي في الأساس قصة.

وكذلك في الغوص للؤلؤ، كانت هناك العديد من الحكايات التي أنتجت أمثالاً يرددها الناس؛ لما بها من حكمة.

29- الطينة طينة ريا، والبحر بحر شتيه

النوخذة الشروقي هو من نواخذة الحد المميزين، وأهم ما كان يميزه أنه كان أعمى العينين، وهذا لم يمنعه أن يكون نوخذة يشار له بالبنان؛ لدرايته بعلوم البحر، والهيرات، وإدارة العمل على سطح السفينة. كانت له طريقته الخاصة بمعرفة مواقع الهيرات؛ فحين يصل إلى موقع الهير يطلب من أحد البحارة أن يغوص، ويجلب له من طينة القاع؛ وحين يتسلمها يشمها، ويتلمس حبيباتها، ويتذوق ملوحة ماء الطينة المشبعة به.

وقد قرر البحارة يوماً اختبار نوخذتهم الشروقي؛ بتقديم طينة من ساحل ريا، وهو ساحل في قرية الدير، وحين يطلب من أحدهم الغوص يقدمون له تلك الطينة، بعد أن تغمر في مياه البحر.

تسلم النوخذة الشروقي كمية الطين، فتلمسها، وتذوق ما بها من مياه البحر، وقال مقولته التي غدت مثلاً:

الطين طين ريا والبحر بحر شتيه، وشتية هي إحدى المغاصات المشهورة في بحر البحرين.

30- يقوم حتى لو في الخدعة

قرر أحد النواخذة أن يكلف مملوكه - وكان العديد من المماليك يدخلون الغوص؛ لما يتمتعون به من قوة عضلية - وهنا وجد المملوك نفسه أمام تمرد البحارة، ورفض أوامره، لكنه أمرهم برفع الدقل بأوامر حازمة قائلاً لهم:

يقوم حتى لو في الخدعة، والخدعة هي مخزن صغير على طرفي السفينة، ومن الصعب أن يرفع الدقل منها.

فغدت مقولته مثلاً لتنفيذ ما يصعب تنفيذه.

31- السمبوك لمبروك، ومبروك والسمبوك لعمه

كان النوخذة المسلّم - وهو أحد طواويش ونواخذة مدينة الحد - عنده سمبوك، والسمبوك واحدة من سفن الغوص.

فطلب من مملوكه مبروك أن يكون نوخذة على ظهر سفينة السمبوك، فعلم البحارة بذلك، فطلبوا من مبروك بسخرية:

كيف توافق عمك لمسلم أن تكون نوخذة، وأنت لا تملك السمبوك؟

ذهب مبروك لعمه قائلاً: عمي عمي.. كيف لي أن أكون نوخذة والسمبوك ليس ملكي؟

عرف لمسلّم بمقلب البحارة، فكتب لمبروك العقد الآتي:

السمبوك لمبروك، ومبروك والسمبوك لعمه.

وغدت مثلاً. الراوي (المرحوم أحمد بن ماجد النشابة)

من التراث: وسائط الإنذار الاستباقي عند المسلمين

الحسام محيي الدين
كاتب – لبنان

وعى المسلمون منذ فجر الرسالة النبوية أهمية قيام دولة قوية، تركن إليها الرعية بثقة، وتحفظ البلاد والعباد، مع ما يقتضي ذلك من تهيئة أسباب تلك القوة بأنواعها، لا سيما الجانب الاستخباري منها، لما له من أهمية بالغة في الحفاظ على أمنها العام بمعناه القومي الكبير، الذي يمسك زمام المبادرة في الدفاع عن حدودها المترامية الأطراف. أدرك المسلمون مع تطور واتّساع دولتهم، أنّ المسألة ليست فقط في وضع الخُطط لمواجهة العدو فحسب، بل في تنفيذها بدقةٍ عالية، بوسائل وأساليب شكّلتْ إنذاراً مُبكراً يأخذُ بالحسبان أوّلاً وأخيراً استباقَ وقوع العمل العدوانيّ من أي جهة يأتي ضدهم لصَدِّه وإفشاله أو تجنبه، وتوزّعت على مستوياتٍ ثلاثة كما يلي:

• البريد السّريع. • الحمام الزاجل. • المنائِر أو المناظِر.

فقد رصدَ المسلمون الأخبار، وتبادلوا المعلومات الخطرة والبالغة الأهمية بين السلطة المركزية والأقاليم التابعة لها، وفي الاتّجاهَين، بل سخّروا طرائقهم الأمنية أحياناً في التّشاور والتماس الرأي بين المراكز البعيدة أو القريبة؛ لأجل اتخاذ القرار المناسب، لا سيما في حالتَي الحرب والسلم، فكان البريد العاجل، بهذا المعنى، من أهم وسائل التواصل والإنذار المُبكر بين أركان الدولة الإسلامية على اختلاف عهودها، وبنسب متفاوتة، ارتبطت بطبيعة الحال بتكريس واستقرار تنظيم المؤسسات في الدولة، وتدرجَتْ باتجاه الأفضل منذ عهد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسل عيونه من خيرة الخيّالة إلى ديار الأعداء؛ ليجمع المعلومات عنهم، كيما يتقن تجهيز قواته وتحريكها من مكان إلى مكان، قبل وأثناء وبعد كل معركة، عطفاً على إيفاده الفرسان وهم يسعون بالكُتُب إلى الحكام وقادة القبائل للدّعوة والهداية، ممّا سارَ على نهجه الخلفاء الراشدون لاحقاً في فترات توطيد أركان الدولة، وبداية الفتوحات وتحرّيهم أخبار عُمّالهم في الولايات التابعة لهم، ومحاسبتهم عليها وتقويمها بعدلٍ وحزم. بهذا المستوى يُعدُّ الخليفة معاوية بن أبي سفيان أول من وعى أهمية استخدام البريد السريع في عهده، كما يشير ابنُ فضل الله العمري (700-749هـ) في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، فاستثمره في المهام الدّبلوماسية والأمنية مع حكّام الولايات، فيما عمّقَ الخليفة عبدالملك بن مروان من بعده في إحكام تنظيمه والاهتمامَ به، وكان يقول «ربما أفسدَ على القوم سَنَة، حبسُهُم البريدَ ساعة»، كما سار العباسيون على خُطا أسلافهم الأمويين، لا سيما في مواجهاتهم الكثيرة ضدّ الروم، حيث أنشؤوا فِرَقاً من البرّد (مفردها بريد)؛ أي خيل البريد السريعة، واستثمروا طاقة فرسانها القصوى ليل نهار، تغدو وتروح على امتداد الرقعة الجغرافية للدولة، وبين أقاليمها لتقصّي أخبار الأعداء في سبيل مواجهتهم. لم تتأخّر الممالك الإسلامية التي أعقبتْ انهيار دولة العباسيين، من السلاجقة فالزّنكيين إلى الأيوبيين فالمماليك (العصور الوسطى) عن الاعتناء بالبريد، فجعلوا منه ركناً فاعلاً في المنظومة اللوجستية للدولة، ومؤسسةً قائمةً بذاتها، متطورة، بما أضافوا إليها من مراكز ومحطات مُعتلَمَة على طول خطوط سيرها، كان محورُ نجاحها الأفراس النّشطة جداً، التي كان يتم تبديلها واحدةً بأُخرى للحفاظ على دقة المهام ولتضليل العدو وإيهامه وخداعه، ما لعبَ دوراً كبيراً في نقل المعلومات الأمنية وحفظها لدرء الكثير من الاعتداءات الخارجية، وإمداد حكام الولايات البعيدة بالجيوش والإمدادات اللوجستية اللازمة في وقتها المناسب، عطفاً على إخماد الثورات والفتن في الداخل. إلى ذلك كان الحمام الزاجل من وسائل الاتصال والتحذير الناجحة جداً التي أثبت المسلمون أنهم سريعو التعلُّم في التعامل معها، منذُ فجر الدولة الإسلامية، والزاجل بالمناسبة هو الدافع أو الراسل مِنْ زَجَلَ الحَمَام؛ أي أرسله بالرسائل، فكان بمثابة البريد الجويّ في نقله الأوامر والمعلومات بين القيادات الأمنية والسياسية للسلطة، وعلى اختلاف مستوياتها، فهو لم يكن الأسرع فحسب بين كل وسائل الإنذار المُبكر، بل الأجدى كذلك في ضمان سريةِ ما يحمله من كلمات مُختصرَة وعباراتٍ مُرمّزة، حذقوا في ترتيبها ونقلها وتبادلها، كما يذكُرُ القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر (620-692هـ) في كتابه «تمائم الحمائم»، فكانوا يُدخِلون الخبر المُراد إرساله داخل لُفافة من الورق المُذهّب الذي يجمع بين الخفّة في الوزن ومقاومة تقلبات الطّقس، ثمّ يعلقونها في عُنُق الحمامة، حتى إنهم كانوا يدونون تاريخ انطلاق الحمامة من مركزها الرئيس. ولكي يخدموا مهمتهم بنجاح، بنى المسلمون أبراج الحمام، وكانت تسمى المزاجل، ونشروها في الثغور الشامية والمصرية والحجاز وغزة في مواجهة

ما تعرضوا له من اعتداءات الصليبيين والمغول، فكانت بُرُجَ مراقبةٍ من جهة، ومركزاً لتدريب وانطلاق الحمام من جهةٍ ثانية، لا يزال كثير منها قائماً حتى اليوم، ووصل عدد ما يطير بينها إلى نحو الألفَي طائر، تنقل الرسائل وأوامر العمليات المُشفّرة التي تلمّحُ ولا تُصرّح، وكان يُطلق على المسؤول عنها اسم «برّاج»، كما يذكُرُ القلقشندي (756-821هـ) في «صبح الأعشى». أمّا المنائِر، أو المناظر، وتُسمّى المشاعل أيضاً، فهي ممّا يمكن تعريفه اليوم بالاتصال اللاسلكي، كأداةٍ استقصائية استباقية فاعلة، تقوم على إضرام النيران بأساليب عسكرية خاصّة، يُستفاد من نورها البعيد ليلاً، ومن دُخانها الكثيف نهاراً، لغاية الإنذار والتبليغ عن أيّ تحرّكٍ ما لأعداء الدولة. وهي في الواقع كانت ذات فاعلية كبيرة، لا سيما في ظل توحيد إشارات المراقبة ودلالاتها بين المراكز، على اختلاف أهميتها، وعلى مدار الساعة، وكانت تُسمى نار الحرب، وتُوقَدُ على جبال أو أماكن مُرتفعة، ما تسمح به طبيعة الأرض ليبلغ الخبر من يهمه الأمرُ سريعاً. توسّعَ المؤرخون

العرب في حديث المنائِر، فأكّد البلاذري (190-279هـ) في «فتوح البلدان»، أنّ المسلمين من عهد الخليفة عمر بن الخطاب لجؤوا إلى هذه الوسيلة العملية في التحذير من الأعداء، وأنّ الأخير أمَرَ معاوية خلال ولايته على الشّام، أنْ يتّخذ المواقد (المنائِر) لهذه الغاية على مداخل وأبواب المدينة، في حين أورد أبو زيد السيرافي (ت 330هـ) في كتابه «أخبار الصين والهند» أنه نحو منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، كانت المياه ضحلة عند مدخل الخليج العربي، فأقيمت قواعد وأبراج توقد فيها النيران تلافياً لتحطُّم المراكب، ولإرشادها إلى المسالك الآمنة، أما ياقوت الحموي (574-626هـ) فقد سمّاها المناظِر في مُصنّفه «معجم البلدان»، وذكرَ أنّ الحجاج بن يوسف استخدمها مُتسلسلةً بين مدينة «واسط» وأبواب بحر قزوين التي كانت من ثغور المسلمين وقتئذٍ. وفي الصدد نفسه، فإن المقريزي (764-845هـ) في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، تناول منائر الثغور، أو الرباطات، بالعرض والبحث كوسائط إنذار أمنية استُخدِمتْ في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) على طول الساحل الإفريقي، مُتّصلة بمناراتٍ في الدّاخل، وفق التنسيب الموضوع لاتصال كل ثغر (ساحل) بالقصبة أو المدينة المولَجَة بالدفاع عنه، وأنها كانت تعطي الشعور بالأمان لسالكي الطرق من القوافل والتجار، منوّهاً بمنارة الإسكندرية الشهيرة التي استُعملتْ لهذا الغرض، إذ كان فيها رجال مختصون بإشعال النيران خلال الليل من جهة البحر؛ لأجل هداية الملاحين وركّاب السُّفن، أو من جهة المدينة إذا ارتابوا من تحركاتٍ عدوَّة، لإنذار الناس ليهبّوا دفاعاً عن مدينتهم ضد العدو. إنّ استحضار هذه الوسائل الأمنية الاستباقية من التُّراث يؤكّدُ أنّ بلاد المسلمين كانت دائماً عرضةً لمطامح المُحتلّين والأعداء الطامعين؛ بسبب موقعها الجغرافي ومقدراتها البشرية والطبيعية، ممّا لا بد من الاستعداد دائماً لمواجهته في سبيل الحفاظ على مقدساتنا وديارنا وهويتنا العربية الإسلامية.

غفة نخي

ميسون يوسف الأنصاري
كاتبة – الإمارات

تشتهر إمارة الشارقة بجودة النخي العالية، فتتوافد عليها الناس من كل الإمارات الأخرى لتشتريه، وتلك الشهرة لم تكتسبها من فراغ، بل لجودة النخي المقرمش والذي لا يمكن الحصول عليه إلا في الشارقة، والسر في ذلك ما سأسرده لكم من خلال هذه السطور، فقد حضرت شخصياً طريقة تحضيره، وتعلمت أسرار جودته.
كلمة النخي معروفة لدى دول الخليج بالحمص ذي الحبة كبيرة الحجم، والمطبوخ، ولكنها في دولة الإمارات تعني الحمص ذا الحبة الصغيرة والمحمص، وكأنه لآلئ تبحث عن مشترين ومتذوقين للطعم الأصيل.

كان شغفي بأكل النخي الذي هو بمثابة المكسرات عند الناس، ففي الماضي لم يكونوا يعرفون الفستق أو الكاجو، لعدم توافره، أو لزيادة سعره بالنسبة للناس البسطاء؛ لذلك كان النخي أكثر شهرة، ففي يوم من الأيام عندما كنت في السابعة من عمري والناس نيام، خرجت من بيتي حافية في عزّ صيف 1974، وقت القيلولة؛ أي في الساعة الثالثة ظهراً، إلى بيت حلوم في طرف الفريج، وعندما وصلت بالقرب من عريشها المتواضع، بدأت قدميّ تغوصان في الرمال الحارقة وأنا أتلظى من شدة حرارة الرمال، وأزيد من سرعة المشي الذي ازداد في صعوبته، والرمال وصلت إلى ركبتي الصغيرتين، إلى أن وصلت إلى العريش بعد جهد كبير، فوجدت حلوم مستغرقة في نومها، ولم أشأ إيقاظها، ولكنها شعرت بوجودي، فقالت لي:
- بعده وقت أمي.. بعدني ما قليت النخي..
فقلت لها:
- ما عليه.. أنا بفازعج عليه.
فنهضت وأحضرت المقلاة السوداء، ووضعت فيها رملاً أحمر (كانوا يأتون به من مدينة العين أو الذيد)، ثم أوقدت الحطب، وأجلست المقلاة على قواعد النار حتى يسخن الرمل، وأثناء ذلك ذهبت لتحضر كيس النخي، وأفرغت كمية لا بأس بها على الرمل في المقلاة، وطلبت مني أن أحضر الماء من الحب في وسط عريشها، وهي تقلب النخي بطريقة بارعة، دون أن تستعمل أي شيء لتقليبه، إنما تهز المقلاة وعجبت لعدم التصاق النخي بالرمل، فأخذت الماء، وسكبت فيه كمية كبيرة من الملح، ووضعته جانباً، وعند نضوج النخي نخلته من الرمل، وصار محمصاً، سكبت عليه الماء المملح، وبسرعة البرق تبخر ذلك الماء، وظلت حبيبات الملح على النخي، وتطايرت منه تلك الرائحة اللاذيذة والشهية، فعرفت حينها سر قرمشة النخي، ومن الصعب أن تجد طعماً يضاهي نخي حلوم في أي مكان آخر.
حملت حلوم الجفير، وفيه النخي وأكياس الورق، وفنجان فارغ، والذي يمثل المكيال الذي ستكيل به (وهو بمثابة غفة؛ أي ملء كف اليد الواحدة)، ولبست عباءتها، وأنا وراءها إلى ناحية مسجد المناعي، حيث تفترش على دكة بجانب المسجد، تبيع للمارة في فريج المريجة.
أخرجت أربع آنات (أي خمسة وعشرون فلساً في وقتنا الحالي)، من جيبي؛ لتعطيني فنجان نخي، ولكنها رفضت، وأعطتني النخي نظير مساعدتها في إعداد النخي وتحضيره.
صرت أتردد على عريشها دائماً لمساعدتها في تحضير النخي، ولكن بعد أن توفاها الله بحادث سير - رحمها الله – افتقدتها كثيراً، ولم أجد ذلك الطعم في أي من النخي الذي يباع حالياً.
كادت غفة نخي أن تودي بحياتي يوماً، فقد ذهبت ناحية محال الكراني (مسرح الشارقة حالياً)، حيث يباع النخي المعد من قبل الهنود هناك في بداية السبعينيات، وبعد أن اشتريت النخي، وعند عودتي كان هناك ثور يقطع الطريق الضيق، فحاولت أن أتفاداه بجسمي الضعيف من خلفه، فشعر بحرارة جسمي، والتفت نحوي وحملني بين قرنيه للأعلى وأنا أصرخ، فسمعني أحد الساكنين هناك، وخرج من بيته ليمسك قرن الثور، ويخلصني منه، ويحثني على الهرب، وصرت أجري كالمجنونة وأحمد الله على نجاتي من ذلك الثور.
تعد مهنة بيع النخي مهنة مندثرة، لم يعد لها وجود في وقتنا الحالي، ربما لو تعاد بتحضيرها في المنزل من قبل الأمهات، ثم تباع عن طريق المحال للحفاظ على موروثنا الشعبي العريق، الذي لا يضاهيه أي شيء حديث، والذي تتوق إليه القلوب عند استذكاره.

الحكايات الشعبية..

قصص تحمل القيم والعِبر

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

مجموعة من الحكايات الشعبية والخيالية الموجهة للصغار، صاغتها وحرّرتها الكاتبة شيخة الجابري، تتمتع تلك السلسلة بألوانها الجذابة، التي تستحوذ على اهتمام الأطفال، وتحمل بين طياتها العديد من القيم، فهي تدعو إلى احترام الكبير واستئذانه، والمحافظة على الفروض الدينية، والاهتمام بالجار، وحقوق الوالدين، وحب الوطن والعائلة والأصدقاء، وتبرز المهن والأماكن والأطعمة التقليدية، والمصطلحات المحلية، وهي بذلك تقرب الأبناء من تراثهم، وتجمعهم به في شكل ترفيهي وتربوي وإطار قصصي.

السلسلة من إصدارات معهد الشارقة للتراث 2022م، الذي يأخذ على عاتقه نقل التراث للجيل الجديد بأبهى الوسائل التثقيفية، والقيم في أبسط صورها، تلك القيم يستشفها أطفال القصة وأبطالها، تارة على لسان الجدة، وأخرى من أحاديث مروية بينهم، وهو أسلوب يشجّع القرّاء من الصغار على الاقتداء بهم، فالصغير يأخذ من الصغير ويقلده، ويتلقى من الكبير، وهو ما اعتمدته قصص السلسلة التي نوعت بين أساليب الطرح القيمي، فمرة نجد القيم على لسان الأطفال، وأخرى على لسان الكبار، دون أن يكون الأسلوب المباشر الصريح طريقتها.

تبدأ الحكايات بقصة «الثعلب والغراب»، وتدعو إلى الاعتماد على النفس، والكد بالعمل دون تكاسل وتأجيل، فما بين الثعلب والغراب بون كبير، أحدهما زرع فحصد، والآخر اتكل على غيره فلم يجنِ شيئاً، وتعتبر من أكثر قصص السلسلة سلاسة وأبسطها، وتأتي على لسان الجدة التي لا تخلو حكايتها حتى قبل أن ترويها من الحكم والقيم.

تستمر الجدة في حكايتها، فتروي قصة «اللغز»، وبطلها شيخٌ عادلٌ عرفت بلاده بالأمان والازدهار، وحين مرضه حزنت الدنيا، ولم يبق فرد لم يدعُ له بالشفاء، أو يحاول أن يخلصه من مرضه بشتى الوسائل، وعلى رأسهم ولده الوحيد راشد، ولكن الأمور لم تسر كما رغبها الجميع، ففارق الشيخ العادل الحياة إثر مرضه، وقَبِل ولده تولي الحكم خلفاً له بشروط ثلاثة، أولها كان أغرب من آخرها، وهي عن ظاهرها شر وفي باطنها خير، فعمت الدهشة شعبه الذي لم يرض بها، واستشاروا فيها قاضيهم الذي فسرها لهم، وحينها لم يقبل الشعب بغيره حاكماً، وهنا دعوة لإعمال العقل والتفكر قبل اتخاذ القرار.

وفي «الحوض المسحور» قيمة وعبرة، ففيه وجوب طاعة الوالدين، واتخاذ القرار الصائب الذي يمكنه أن يجنب الفرد المتاعب في الحال والمستقبل، ورغم أن القصة خيالية، إلا أنها تميزت بسلاسة الحبكة، والقدرة على استخلاص العبر، فبطلا القصة الطفلان حمد وفطيم، أخطأا طريقهما، ولم يستمعا للمشورة، وتورطا في دربهما بجملة مشكلات، لكنهما لم يستغنيا عن بعضهما، وبقيا إلى جوار بعضهما بعضاً، رغم كل الظروف، ورغم تحول أحدهما (سحراً) إلى غزال، إلا أن تكاتفهما كان مخرجهما من مشكلاتهما بأقل الخسائر.

وفي «أم قرين» نجد الطمع ونقيضه، حيث الرجل يعين المحتاج، ويفعل الخير لأجل الخير، فيما كانت زوجته تتسم بالطمع، وحين رزقه الله تعالى الخير وعمّه به، أغدق به عليها، وألبسها من كل ثمين، فلم تشبع، ولم يسد عينيها إلا التراب، وتمادت في طمعها، حتى أرادت لزوجها الهلاك؛ كي تحقق مباغيها، وحينها عرف هو بسوئها، فتركها بما ترغب في حال سبيلها، واتخذ قراره الصائب في أن يعيش حياة لا يسودها إلا الخير.

وتختتم السلسلة بقصة «البديحة» التراثية المعروفة، وكما هي حال ما سبق من قصص تستمر السلسلة، والقيم والعبر تتدفق بين سطورها، ويستمر التشويق في السرد، وجاذبية الرسوم والألوان، لتهل علينا «البديحة» التي ترويها الطفلة موزة، وهي التي عاشت في كنف والدها الصياد وزوجة أبيها الظالمة التي فرقتها عن أختها عوشة في المعاملة، وفي الوقت التي تمارس فيه مهامها اليومية الموكلة لها من زوجة أبيها، فإذا بسمكة البحر تترجاها بألّا تؤذيها، وستحقق لها ما ترغب، وفعلاً ما كان حصاد الخير إلا الخير، ظلت البديحة تقدم كل الخير لموزة، من طعام وشراب وملبس، حتى حانت اللحظة التي تتمناها كل فتاة بارتداء الأجمل ولقاء الأمير وخيوله وقصره وحاشيته في حفل كبير بالمدينة، وفي الوقت الذي ظلت تكيد زوجة الأب لموزة، وتفضيل ابنتها عوشة وإبرازها، فإن الحق ظهر، وكان الخير من نصيب موزة التي انتفت عنها صفات الطمع والجشع والأنانية، وظلت حتى آخر لحظة صادقة وفية، وخيّرة مع من حولها.

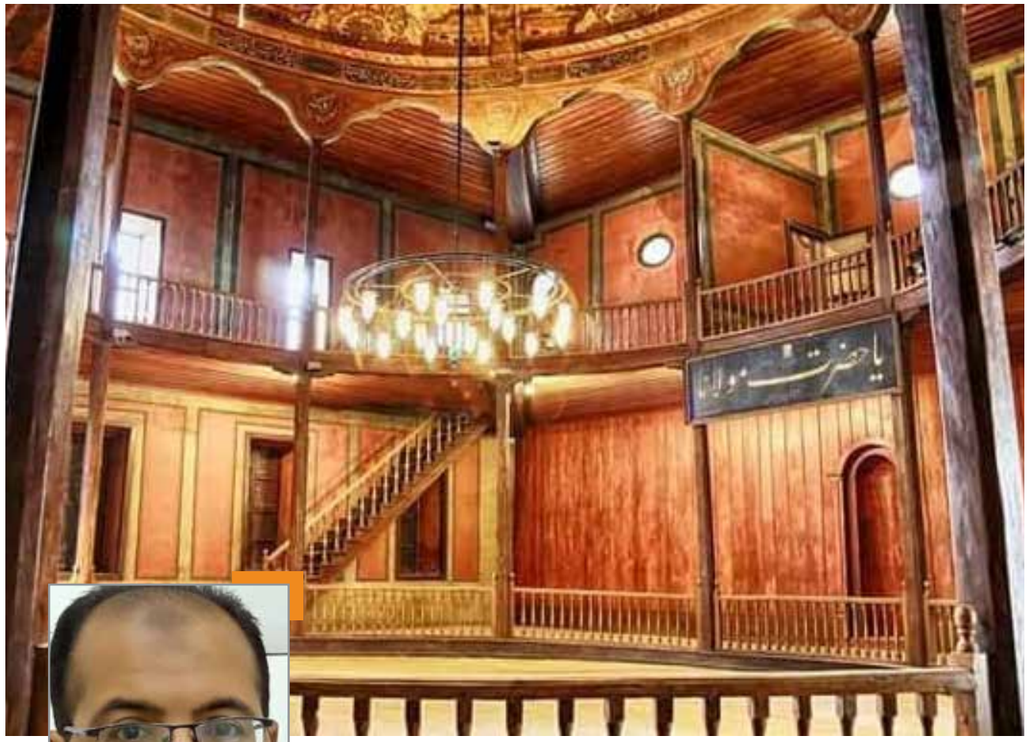

المولوية المصرية..

تراث متجدد بين الماضي والحاضر

أحمد سليم عوض
كاتب - مصر

في حي الحلمية بمدينة القاهرة القديمة، وبالتحديد في شارع السيوفية، تقبع «التكية المولوية». المكان الذي يجمع بين جنباته أهم تراث المولويين الذي يعد الوحيد من نوعه في مصر، وتجمع ما بين الطرازين العثماني والمملوكي، من حيث الغرف والقاعات حيث يوجد ثلاث قاعات: الأولى يطلق عليها مسمى «قاعة السمع خانة» أو «مسرح الدراويش»، والثانية هي مدرسة سنقر السعدي، أما الثالثة فعبارة عن أثر يطلق عليه «أثر يشبك».

قاعة السمع خانه أو «مسرح الدراويش» أول الأقسام التي دخلناها وهو مخصص لأذكار المولويين، ويتكون من منصة خشبية مستديرة تتوسطها دائرة بلون مغاير للون المنصة ويحيط بها «درابزين خشبي» له بابان لدخول الدراويش وخروجهم قبل وبعد تأديتهم الذكر المولوي. وأما الطابق الثاني منه فهو عبارة عن سلم خشبي يؤدي إلى مساحات غير منتظمة جرى تخصيصها لجلوس الجمهور والمشاهدين. أما باطن القبة فقد زخرف بمناظر طبيعية عبارة عن عمائر وأعلام تركية وزخارف نباتية وعدة رسوم معبرة عن الفلسفة الصوفية التي تقوم عليها الطريقة المولوية، ثم في الجنوب الشرقي من قبة «السمع خانة»، تقع حجرات التكية التي تنقسم بدورها إلى جزءين رئيسيين، الأول مكون من طابقين، يحتوي الطابق الأرضي منهما على ثماني غرف مربعة ذات أسقف خشبية، ويضم الطابق الثاني أيضا ثماني غرف شبه مربعة مختلفة من حيث

المساحات والأغراض. أما القسم الثاني، فهو مدرسة سنقر السعدي وهذه المدرسة التي ترتبط بها صفحات عديدة من التاريخ المولوي، أنشاها شمس الدين سنقر السعدي، نقيب المماليك السلطانية في عام 721هـ (1321م)، كما هو مُسجل بالشريط الكتابي الموجود في قبة المدفن الموجود في المكان. ولدى النظر في أنحاء المدرسة يلفت الزائر في وسطها الصحن المكشوف الذي لم يتبق منه سوى فسقية مياه (أي نافورة). وعلى جانبي الصحن من الجهة الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية توجد بقايا غرف مربعة صغيرة يعتقد أنها كانت مخصصة لإقامة الأرامل والمطلقات، بالإضافة إلى أربعة إيوانات، من أبرزها الإيوان الشمالي الغربي المنفتح على الصحن والمشيد على الطراز العثماني، وفي أرضية هذا الإيوان توجد تركيبة خشبية لآخر مشايخ المولوية وهو الشيخ محمد غالب درة المتوفى 1334هـ (1915م). ويعود تاريخ تشييد هذه التكية الذي اختلف حوله المؤرخون، إلى أكثر من 400 سنة، وفقا لوثيقة مؤرخة بعام 1005هـ (1596م)، عبارة عن وقفية خاصة بأجور بعض العاملين في التكية مثل أجور العازفين على الناي والدفوف.

تجربة كونية

صاحبها ومؤسسها هو جلال الدين الرومي، وهو شاعر وعالم وصاحب الطريقة المولوية، وهي من أولى الطرق التي أدخلت الموسيقى والرقص بالدوران في حلقات الذكر. ويحدثنا التاريخ عن جلال الدين فيرى أنه شاعر، اختار حياة التصوّف سبيلاً للوصول إلى الله. فكان تصوّفه مزيجاً من الحِكمة والروحانيَّة.

وتقوم الطريقة المولوية على عناصر ثلاثة أساسية هي الموسيقي والرّقص وإنشاد الشعر، وتحديداً شعر مؤسّسها مولانا جلال الدين. أما حلقات السماع، بما فيها من رقص، فهي تجربة كونية، وطريقة للوصول إلى الحقيقة أي الله. وهو ما عبّر عنه جلال الدين الرومي نفسه عندما قال: «هناك طرق عديدة تؤدّي إلى الله وقد اخترت طريق الرقّص والموسيقى».

وقد ترك جلال الدين الرومي عدداً من المؤلفات أشهرها:

1- "المثنوي": ويضم أكثر من 25 ألف بين من الشعر، تم جمعها في ستة مجلدات ضخمة، وهو ذو مكانة خاصة عند الصوفية.

ويعد كتاب "المثنوي" أثراً من الآثار الأدبية الخالدة، حيث يرتفع فيه الشعر إلى مستوى عالمي، وقد نال شهرة في شرق العالم الإسلاميّ، وانتشرت تعاليمه، وظهرت له شروح وترجمات. تدور موضوعات المثنوي في مجالات متنوعة، موضوعات عديدة في هذا الكتاب: الطبّ، الفلسفة، عِلم الكلام والفلك. حتّى إنّ لعبة الشطرنج وجدت طريقها إلى هذا المؤلّف العظيم. والقرآن وقصص الأنبياء حاضرة فيه إلى جانب الحديث والقصص الشعبيَّة.

2- ديوان شمس تبريز: وقد ترجمه إلى العربية د. محمد السعيد جمال الدين، والمقصود بديوان شمس تبريزي مجموعة الأشعار التي نظمها جلال الدين الرومي، تخليداً لذكرى صاحبه شمس الدين التبريزي، وقد صرح الرومي في أغلب القصائد باسمه وأشاد به وعدّه «الإنسان الكامل» وقد تجلت فيه مظاهر الإنسانية، فهو سلطان دولة العشق، وأمير قافلة الحب الإلهي في عصره.

يشتمل الديوان على 42 ألف بيت من الشعر، فقد

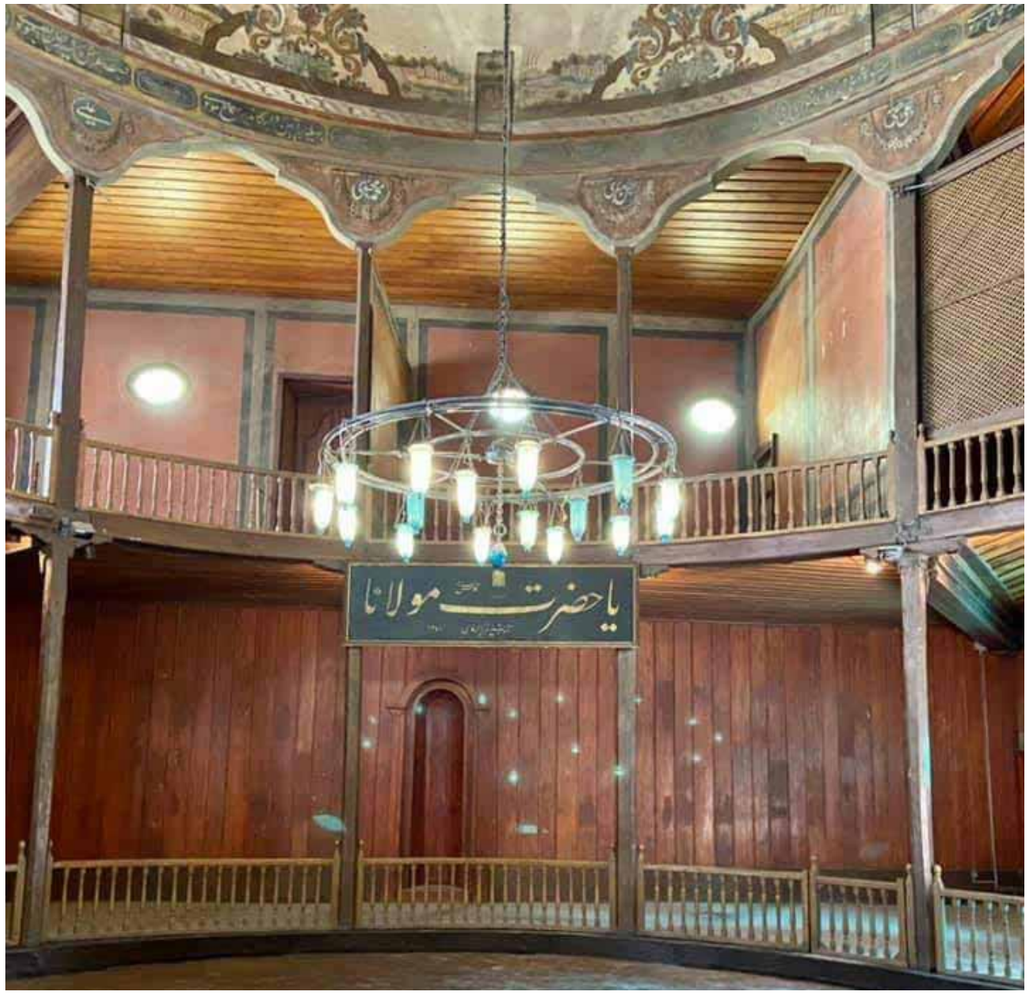

ترك سليل الفقهاء جلال الدين الرومي موقعه في الإفتاء وكعالم بفقه الحنفية وأنواع العلوم، ليتصوف ويكتب الشعر، وربح العالم شاعراً متصوفاً ذاعت شهرته، ويعتبر شمس الدين التبريزي الشاعر المتصوف الشهير بدوره المعلم الروحي لجلال الدين الرومي. كان لقاء شمس الدين التبريزي الأول بجلال الدين الرومي في عام 1244 ميلادية، وتكونت بهذا اللقاء الصداقة التي غيرت مجرى حياة الاثنين، اللذين اعتكفا لأربعين يوماً، وخرجا بقواعد العشق الأربعين الشهيرة، وهناك قصتان لرحيل التبريزي، فقد قيل إنه اختفى في ظروف غامضة، وقيل إنه قتل على يد بعض تلاميذ جلال الدين الرومي الغيارى، وأن له ضريحاً معروفاً، وفي الحالين حزن الرومي على رحيل أستاذه وصديقه التبريزي حزناً عميقاً، بعد أن بحث عنه طويلاً ولم يجده، وخلف هذا الحزن ديواناً أسماه الرومي «شمس الدين التبريزي» أو «الديوان الكبير». كان جلال الدين الرومي يجمع بين شخصية العالم الفقيه والشيخ الصوفي، وكان يختلف إلى دروس فقهه طلبة العلوم الدينية، كما كان يفيد من إرشاداته وتوجيهاته المريدون، الذين يسعون إلى كسب المعارف الروحية، ويبدأ التحول الكبير أو

الولادة الجديدة لجلال الدين الرومي، في اللحظة التي يلتقي فيها شمس الدين التبريزي.

3- كتاب "فيه ما فيه": وهو كتاب قصص وأمثال ومواعظ وذكريات.

4- المجالس السبعة: ويشمل سبع مواعظ دينية وخطب ألقاها أثناء اشتغاله بالتدريس.

متحف المولوية

من المتاحف الجميلة المرتبطة بحكاية وقصة الدراويش المولوية الذين ينسبون الى جلال الدين الرومي، والمتحف ملحق بتكية الدراويش، ويضم نماذج لأزياء وملابس الدراويش وكتاب المثنوي وكل ما يتعلق بطقوس ورقصات الدراويش المولوية.

المتحف جميل ويستحق الزيارة لمن أراد التعرف عن قرب عن حياة دراويش المولوية بالتكية المولوية.

الرقص الصوفي

المولوية في الوقت الحاضر لم يتبق منها غير الرقص الصوفي الذى يعتبر من الطقوس الفريدة في العالم التي تستقطب الوفود السياحية والحضور المحلي. نحن في حاجه إلى استرجاع قيم المولوية وخصوصا التسامح وتقبل الآخر، وإلا يقتصر دورها على الجذب السياحي أو على اعتبارها نوعا من الفلكلور الشعبي، بل تمتد تأثيرها ليشمل فنونا أخرى كالأدب والرّسم والخط.

كبرياء الملكة «أولغا»

شهرزاد العربي

في منطقة بأقصى الشمال، حيث الليل الطويل في فصل الشتاء يدوم مدة نصف عام، كانت هناك أميرة تدعى «أولغا»، هي الأكثر كِبراً مقارنة بأميرات البلاد الجنوبية وأكثرهنّ جمالاً.

كانت الأميرة أولغا تسكن قصراً فخماً بُنيَ على صخرة بجانب جبل، عند أسفلها تنكسر بهدوء موجات البحر في رحلة المد والجزر، وخدمها وحشمها مستعدون دائماً لتنفيذ رغباتها.

وصل صيت جمالها إلى كل المحيطين بإمارتها، فتمنى كثيرون الزواج منها، وكثيراً ما تقدم أمراء لطلب يدها، ودائماً يتم ذاك في أول أيام الصيف الجميلة، وكان سكان الإمارة يقولون:

- إنهم يحضرون الشمس معهم.

ولم يكن سكان الشمال ينعمون بيوم جميل ودافئ إلا عندما يأتي الأمراء لخطبة أولغا.

تعرف أولغا أن للمتقدمين لخطبتها قصوراً فخمة، وأرضاً ممتدة، وأنها إذا لم تتزوج أحداً منهم فلن تتزوج أبداً، لكن نظراً لكبريائها كانت ترفضهم جميعهم، فيعود كل واحد منهم إلى بلاده كئيباً حزيناً، فتحزن السماء معه، وتغيب الشمس، ويحل البرد والصقيع، وعندها يتذكر رعايا المملكة آخر يوم صيف لهم قبل أن تتولّى الأميرة أولغا المُلْكَ بعد أبيها، فيقولون:

- بسبب كبرياء ملكتنا تهب علينا الرياح المحملة بالبرد والصقيع.

وذات يوم أشرقت الشمس على مملكة الشمال، كما لم تشرق من قبل، وظهرت السماء زرقاء خالية من السحب، والجو دافئاً، والعصافير تزقزق وتغني، والفراشات تطير بين الأشجار، ولم يكن للرعية من أمنية سوى قبول ملكتهم الزواج من القادم، حتى لا يشعروا بالبرد مرة أخرى.

خرجت أولغا من القصر في الصباح، ورأت الجو بديعاً، تأكد لها أنها ستتلقى زيارة أحد الأمراء، فعادت إلى القصر، وصعدت إلى الأعلى، وأطلت من الشرفة، فرأت فارساً يمتطي جواداً أدهم مقبلاً نحو القصر، فقالت في نفسها:

- هذا أجمل من رأته عيناي، سأقبل بالزواج منه؛ لأنه من المؤكد أنه أكبر أمراء «ميدي»، الذي سمعت عنه.

نزلت الملكة، وأمرت الخدم بالتجهيز لاستقبال الضيف الزائر، وطلبت جميع من في القصر أن يشيعوا خبر أن الملكة ستقبل بالأمير الضيف زوجاً، وأن البرد سيغادر البلاد.

عندما أصبح كل شيء جاهزاً، جلست الملكة على كرسي عرشها، مستعدة لاستقبال ضيفها، لكن بدل أن يكون القادم أميراً، جاءها راعٍ متواضع، فصُدمت الملكة من الموقف، ولم تجد حيلة وقد أشاعت في المملكة خبر قبولها بالزواج من هذا المتقدم إليها.

سألت الملكة أولغا الراعي:

- ما الذي جاء بك إلى القصر؟

ردّ عليها الراعي:

- أيتها الملكة، عندما كنت أرعى غنمي بعيداً عن قصرك، وجدت خاتماً جميلاً، لم أرَ أنه يصلح لغيرك، فأحضرته لكِ.

ثم مدّ يده بالخاتم إلى الملكة.

عندما تسلمت الملكة الخاتم، تأملته، فأدركت أنها لم ترَ خاتماً قبله بهذا الجمال.. لقد كان من الذهب المرصع بالحجارة النادرة، التي لا توجد في مملكتها.

أعجبت الملكة بالخاتم، فعرضت على الراعي مبلغاً من المال مقابلاً له، فرفض، فضاعفت له المبلغ، فرفض أخذه أيضاً، واستمرت في مضاعفة المبلغ، وبقي الراعي رافضاً المال، وأمام دهشة كل الحضور، وبعد أن نفد صبر الملكة، سألته:

- كم تريد مقابل هذا الخاتم؟

رد الراعي قائلاً:

- أيتها الملكة، لا أطلب سوى أن تسمحي بأن أضع هذا الخاتم في أصبعك.

كان الراعي يعرف أنه إذا سمحت له الملكة أولغا بتمرير الخاتم في أصبعها، فلن ترفض زواجه منها؛ لأن الخاتم كان مسحوراً.

رأت الملكة في الخاتم تحفة فنية، وهمها الحصول عليه، وبما أنه يمكنها فعل ذلك ببساطة بعد عرض الراعي، فقد همّت بالموافقة، لكنها تذكرت أمراً، وهو أن يدها جميلة جداً، وإذا اقترب منها الراعي بحجة إلباسها الخاتم، فإنه سيرغب دون شك في تقبيل يدها، وهذا أمر مرفوض بالنسبة لها، عندها أخذها الغضب كل مأخذ، والتفت إلى الراعي، الذي لا يزال جاثياً أمام كرسيها، وقالت له:

- أتدري؟ لقد رفضت ملوكاً قبلك، وأنت بخاتم قبيح تريد نيل رضاي!

وهكذا طرد الراعي من القصر، وأدرك سكان المملكة أن رفضها الزواج منه سيجعل البلاد أكثر برداً.

صعدت الملكة أولغا إلى غرفتها، وأطلّت من النافذة باتجاه البحر، فرأت السماء ملبّدة بالغيوم، ثم بدأت الرياح تصفر وتزمجر عبر الغابات المظلمة المحيطة بقصرها، ثم ما لبثت الثلوج أن تساقطت بهدوء في البداية، ثم تسارعت وتيرتها حتى إن أولغا لم تعد ترى شيئاً، فعرفت أن هذا البرد القارس بسبب رفضها طلب الراعي، لكنها قالت في نفسها:

- كيف يمكنني أن أسمح لراعٍ بلمس يدي؟

تساقطت الثلوج لأيام دون توقف، وصارت الأرض بيضاء، والأشجار مغطاة بالثلوج، وتجمدت البحيرات والأنهار، وعم الجميع شعور بأن النهاية قد قربت، حيث لن يكون هناك قمح ولا فواكه، ولن تنجو الماشية أيضاً، إذا لم تعد الشمس والجو الدافئ.

عندها عزم السكان على الرحيل، وطلبوا الملكة أولغا

أن تذهـب معهـم إلى مـكان أكـثر دافئـاً ويصلـح للعيـش، لكنهـا رفضـت الرحيـل؛ لأنهـا سـتكون مجـرد امـرأة عاديـة مـن عامـة النـاس، ولـن تظـل ملكـة، أو حتـى أميـرة.

صعـدت الملكـة إلى شرفـة قصرهـا، فـرأت رعاياهـا يغـادرون مملكتهـا، وعندمـا رحـل آخـر فـرد مـن الرعيـة، قالـت:

- وليكن، فأنا هنا ملكة.

بعـد ذلـك بـدأت جبـال الثلـج في الظهـور، في البدايـة كان عددهـا قليـلاً، وكانـت بعيـدة عـن الشـاطئ، ثـم زادت بأعـداد كثـيرة، وأخـذت في الزحـف نحـو الأرض، حتـى بـدت ضخمـة كأنهـا قصـور عاليـة مـن الجليـد تسـبح في المـاء، وكان كل جبـل منهـا يصطـدم بالآخـر، محدثـة صوتـاً كأنـه الرعـد، وذلـك طيلـة ليـالٍ.

كان سـكان القـصر يسـمعون الضجـة طـوال الليـل، وهـم معرضـون لريـاح الشـمال العاتيـة، ولم يكونـوا يـرون حولهـم غـير الثلـوج والجليـد.

في النهايـة، رأى سـكان القـصر أنْ لا طاقـة لهـم بالعيـش في مـكان بـارد كهـذا، فتجهـزوا للهجـرة نحـو بلـد دافـئ، وترجـوا ملكتهـم أن تتبعهـم، وأكـدوا لهـا أنهـا سـتموت مـن البـرد إن بقيـت هنـا، لكـن الملكـة أولغـا رفضـت ذلـك، وقالـت:

- أنـا هنـا ملكـة، وفي أي بـلاد أخـرى لـن أكـون سـوى واحـدة مـن عامـة النـاس.

وهكـذا بقيـت في مملكتهـا وحيـدة، وبعيـدة، لا تسـمع غـير صـوت الرعـد نتيجـة اصطـدام الجبـال الجليديـة، وصـوت الريـاح عـبر الغابـة المظلمـة، ولا تـرى إلا الثلـوج البيضـاء الممتـدة، وظلـت تقـول:

- أنا هنا الملكة.

ووجـدت عزاءهـا في هـذه العبـارة، وبـدا لهـا لأول مـرة الليـل المظلـم ـ الـذي يمتـد لسـتة أشـهر ـ هـذا الشـتاء طويـل.

رأت أولغـا الشـفق القطبـي، ثـم غابـت الشـمس وهـي تتبعهـا بعينيهـا، وأيقنـت أنهـا لـن تراهـا لمـدة طويلـة، وغـرق المـكان في الظـلام الدامـس، ولم تعـد تسـمع سـوى أنـين الريـاح، وصراخ الجبـال الجليديـة، وخلـدت أولغـا في نـوم عميـق.

أثنـاء نومهـا، رأت في أحلامهـا أنهـا في بـلاد أخـرى بعيـدة، وأحـد أمـراء «ميـدي»، وهـو الأمـير «يورين» قـد أحبَّهـا، وأراد أن يجعـل منهـا ملكتـه، وذهـب يسـتأذن والـده في الـزواج منهـا، فقـال لـه الملـك العجـوز:

- لـك الحـق في اختيـار أيّ مـن النسـاء، لكـن سـأطلب منكما أنتـما الاثنـان أن تذهبـا معـي في رحلـة، حتـى تتعرفـا جيّـداً عـلى المملكـة التي سـتحكمانها.

وذهـب ثلاثتهـم، وفي طريقهـم مـروا بمـدن جميلـة، شـوارعها وأرصفتهـا مزينـة بالأشـجار والأزهـار، وفيهـا حدائـق ونوافـير ميـاه، والنـاس يتبعـون الموكـب الملـكي، ويلقـون بالأزهـار عليهـم، وبعـد أن غـادروا المـدن ذهبـوا إلى الريـف، فوجـدوا كل شيء هنـاك سـاحراً.

أعجـب الأمـير يورين، والملكـة أولغـا بالبـلاد، التـي سـيحكمانها ذات يـوم، وذهبـا إلى الملـك لتحيتـه، فسـأ لهما :

- ماذا لاحظتما أثناء سفركما عبر البلاد؟

ردّ الاثنان:

- لاحظنـا الربـاط والتقـارب بينـك وبـين رعايـاك، وكذلـك جـمال البـلاد ورفاهيتهـا.

فقال لهما الملك:

- اعلـما أنـني أحـبُّ رعيتـي، وأفكـر فيهـم، وفيـما يحتاجـون إليـه، ولهـذا كانـت الأرض خصبـة وغنيـة ومعطـاءة.

هنـا اسـتيقظت الملكـة أولغـا، وبـدل أن تكـون في بـلاد «ميـدي» الدافئـة، وجـدت نفسـها وحيـدة بـين ثلـوج الشـمال، وهـي ترتعـد مـن البـرد، وعـادت إلى سـماع أنـين الثلـوج ورعـود جبـال الثلـوج الضخمـة، ولا أحـد معهـا إلا سـكون القـصر الواسـع، لكـن لا صـوت يمـزق السـكون المطبـق عـلى القـصر.

تذكـرت الحلـم الجميـل الـذي رأتـه، وتذكـرت أيضـاً قـول الملـك لهـا، وأدركـت أنهـا بكبريائهـا جلبـت الخـراب والظـلام والعزلـة لبلادهـا، وهنـا عرفـت كـم هـي وحيـدة، فعـزّ عليهـا ذلـك، وانفجـرت باكيـة.

وبينـما كانـت تبـكي، أشرقـت شـمس ذلـك اليـوم في الأفـق، ودون أن تعلـم الملكـة أولغـا أنهـا نامـت لسـتة أشـهر كاملـة، وعـبر الضـوء الرمـادي المنبعـث مـن بـين الضبـاب ودموعهـا، رأت الراعـي واقفـاً أمامهـا، يحمـل الخاتـم، ويريـد أن يلبسـه لهـا، لكـن الملكـة لم تعـد لديهـا قـوة غرورهـا، فقالـت لـه:

- خذني، وسأساعدك في رعاية الغنم.

وضـع الراعـي الخاتـم في أصبعهـا، ثـم جثـا عـلى ركبتيـه، وقبّـل يدهـا، وقـال لهـا:

- هل تريدين أن تتبعيني إلى قصر والدي؟

هنـا أدركـت الملكـة أولغـا أن الشـاب الراعـي، مـا هـو إلا الأمـير يورين، الـذي رأتـه في أحلامهـا.

غـادر الاثنـان بـلاد الشـمال البـارد بثلوجهـا وجليدهـا وظلماتهـا؛ لـكي يذهبـا إلى ميـدي، حيـث وجـدت الملكـة كل رعاياهـا هنـاك، وبمـا أن قلوبهـم كانـت طيبـة ومحبـة، فقـد ظلّـت الشـمس تـشرق، وجـاء الحصـاد جيّـداً.

بقـي الجليـد هنـاك في الشـمال إلى يومنـا هـذا، وظـل قـصر الملكـة أولغـا واقفـاً هنـاك، متحدّيـاً بـرد المحيـط، وبسـبب الجليـد الـذي تسـببت فيـه الملكـة أولغـا، لم يجـرؤ أحـد عـلى اكتشـاف المـكان لمـدة طويلـة مـن الزمـان.

أرشيفية

الأمير كمال فرج
كاتب ـ مصر

ابتكارات تدمج الحرف التقليدية في الحياة العصرية

يقدر كثيرون التراث، ويحافظون عليه لأسباب مختلفة، من بينها أنه مخزن للقيم والعادات والتقاليد، وأيضاً الحنين، ولكن يغفل كثيرون أن هذا التراث يمكن أن يقدم حلولاً للعديد من مشكلات الحياة العاصرة، إذا خضع للبحث والتفكير.

أحد الأدلة على ذلك تجربتان يابانيتان، الأولى استفادت صاحبتها من فن الأوريغامي ـ وهي حرفة تقليدية يابانية ـ في الهندسة، والثانية استخدمت نسيجاً تقليدياً لرفع جودة الأقمشة.

ذكر تقرير نشرته مجلة Forbes «هل يجب الحفاظ على التقاليد كما هي، أم تحديثها لتناسب الوقت الحاضر؟ على مر العصور، لجأ الناس إلى التكنولوجيا الجديدة لحل المشكلات، لكن مبتكرتين يابانيتين قدمتا قيماً جديدة مستوحاة من حكمة الماضي».

لم تكتف المرأتان بتقدير التراث، ولكنهما حرصتا على توظيف الحرف القديمة لتقديم حلول إبداعية للمشكلات الحديثة، ففي جامعة ميجي بطوكيو، طبقت الأستاذة المشاركة إيشيدا ساشيكو، مبادئ طي الأوريغامي التقليدي على تكنولوجيا الهندسة، فابتكرت إطار سيارات ذا مواصفات عالية، وبنية معقدة قادرة على الحد من الاهتزازات الزلزالية.

أما زميلتها آيكا أوكوشي، فعملت على تطوير الحرف اليدوية مثل نيشيجين أوري Nishijin-ori ، وهو نسيج تقليدي ينتج في مدينة كيوتو اليابانية ـ والتي تتعرض لخطر الضياع لإنشاء مادة متينة وعالية الجودة.

هندسة أوريغامي

مثل العديد من الأطفال، لدى إيشيدا ساشيكو ذكريات جميلة عن بناء أشكال لا تعد ولا تحصى من أوراق الأوريغامي، لكنها أدركت الإمكانات اللانهائية لهذه الحرفة أثناء عملها كمطورة لمنتج إطارات.

بعد أن تعثرت محاولاتها لإيجاد اختراق في تكنولوجيا الإطارات، استشارت ساشيكو أستاذها السابق في هندسة الطيران في جامعة كيوتو، الذي فتح عينيها على إمكانات هندسة الأوريغامي، فكانت مفتونة باكتشاف أن ثني المواد بطرق معينة يمكن أن يؤثر في خصائصها الهيكلية، فصممت على العودة إلى الجامعة كباحثة للتعمق في الموضوع، على الرغم من معارضة زملائها.

والأُركامي أو الأوريغامي هو فن طي الورق، والذي

أوكوشي في زيارة لمدينتها كيوتو

إيشيدا ساتشيكو تستعرض فكرتها في صناعة إطارات قوية من الورق

كثيراً ما يرتبط بالثقافة اليابانية. الاستخدام الحديث لكلمة «أوريغامي» هو كمصطلح شامل لجميع ممارسات الطي بغض النظر عن ثقافتها الأصلية، الهدف منها هو تحويل ورقة مسطحة إلى الشكل النهائي من خلال تقنيات النحت والطي.

تشتهر هندسة الأوريغامي بتطبيقاتها في طية ميورا Miura fold، وهي طريقة لطي سطح مستو مثل ورقة من الورق في منطقة أصغر، وهو نمط فعال قابل للطي، يستخدم في الأقمار الصناعية والأجهزة الأخرى. بفضل دوره في إنشاء الروبوتات في سلسلة أفلام المتحولون (Transformers)، أصبح مجالاً شائعاً للدراسة الأكاديمية.

ركزت ساشيكو بحثها على كيفية تأثير التغييرات في الشكل في الخصائص الهيكلية، وأدى شغفها إلى الحصول على العديد من الجوائز: حصلت على جائزة العلماء الشباب لمدح العلوم والتكنولوجيا من قبل وزير التعليم والثقافة والرياضة والعلوم والتكنولوجيا، وجائزة رائدة في قسم الميكانيكا والتحكم من الجمعية اليابانية للمهندسين الميكانيكيين.

من أجل فهم آلية بنية قرص العسل - التي يتميز بقوة ملحوظة - صنعت ساشيكو إطارات من الورق بناءً على هذه الفكرة. في إحدى التجارب، اختبرت إطارات السيارة بنجاح، لكنها لم تتوقف عند هذا الحد. تقول إيشيدا «لم أكن أعد مجرد بحث عن الأوريغامي. كنت أحاول معرفة كيفية استخدام الآلية بطرق قد تكون مفيدة للمجتمع».

طوّرت ساشيكو بنية نابضة معقدة قادرة على الحد من أضرار الزلازل، مستوحاة من المبادئ المستخدمة في الأوريغامي لإنشاء أشكال مثلثة ملتوية.

تقول ساشيكو: «تتغير قوة المواد اللينة وخصائصها الأخرى اعتماداً على كيفية ثنيها، وهذه الفكرة تولدت لي من الأوريغامي، لكنني لن أكون راضية ما لم أجد تطبيقات عملية لها في التكنولوجيا الهندسية».

وأضافت أن «هيكل قرص العسل الذي استخدمته في بناء النموذج يعزز قوة الإطار الورقي، حيث تتكون الشبكة من خلايا سداسية تتلاءم معاً دون أي فجوات. هذا التكوين يضفي على بنية قرص العسل خصائص ممتازة، مثل الوزن الخفيف والقوة العالية والصلابة العالية ومساحة السطح الكبيرة، والقدرة القوية على امتصاص الصدمات، والتوصيل الحراري المنخفض».

قيمة الأشياء القديمة

من كان يتخيل أن التسلية المتواضعة ستؤدي إلى تكنولوجيا متطورة؟ وأن الحفاظ على الحرف اليدوية التقليدية سينتهي بتصميم أزياء مستدامة؟

لطالما رأت أوكوشي آيكا قيمة في الأشياء القديمة. تقول إن «المجتمع الإيطالي يعتز بأشياء من الماضي. على سبيل المثال، تم بناء الشقة التي عشت فيها قبل 200 عام. إن فكرة أن قيمة شيء ما تزداد مع الاستخدام المستمر جزء من الثقافة الإيطالية، وهذا المفهوم أوحى إليّ عملي الأخير».

ولدت آيكا في يوكوهاما، وانتقلت مع عائلتها إلى ميلانو، حيث نشأت معجبة بأسلوب الحياة الإيطالية، ومع ذلك، عندما سمعت نبأ كارثة زلزال شرق اليابان العظيم، عندما كانت طالبة في المدرسة الثانوية، أدركت أنها كانت الشخص الياباني الوحيد في المدرسة الذي يمكنه شرح الموقف للآخرين.

تشرح آيكا قائلة «لقد اكتسبت وعياً جديداً بهويتي اليابانية». «أدركت أنه توجد في داخلي ثقافتان - الجانب الإيطالي البسيط والواضح، والجانب الياباني التعاوني والعاطفي. اعتقدت أنه يجب أن أكون قادرة على فعل شيء يمزج بين الثقافتين».

علامة Renacnatta تدور حول توصيل الأفكار أكثر من الموضة

في وقت لاحق، خطرت لي فكرة العمل على الحرير الإيطالي والكيمونو الياباني، باستخدام مخزون غير مباع لصنع التنانير التي تجمع بين نوعي القماش - وكذلك الثقافتين.

جاءت نقطة التحول عندما انتقلت إلى مدينة كيوتو، حيث تقليد زي الكيمونو التقليدي لازال قوياً. هناك، التقت آيكا بالحرفيين من الجيل الثاني الذين يصنعون الأقمشة والملابس التقليدية والحرفيين الذين يقومون بتذهيب المنتجات، والذين كانوا يكافحون من أجل البقاء.

تستفيد علامتها التجارية Renacnatta من الأقمشة التي لم تعد تُلبس من أجل إنقاذ الصناعات المعرضة لخطر التوقف عن العمل (اسم العلامة التجارية عبارة عن تلاعب بالكلمات اليابانية المتعلقة بالخسارة والتقادم).

وجدت آيكا نفسها محاطة بفناني النسيج الذين يستخدمون التقنيات التقليدية في اليابان، وتساءلت عما إذا كان بإمكانها استخدام المواد الخام، وإنتاج أقمشة جديدة لمساعدة الصناعة بشكل مباشر.

تقول آيكا «كنت أرغب في دعم الأشخاص الذين يدعمون الصناعات التقليدية، ومع ذلك، في هذه الأيام، لم تكن هذه الفكرة مقبولة على نطاق واسع - خاصة بين الشباب».

تصميم فستان زفافها الفريد هو مثال على كيفية استخدام الحرف التقليدية بطريقة جديدة. يفترض معظم الناس أن فساتين الزفاف يجب أن تُلبس مرة واحدة فقط - في الحفل. في وقت قريب من حفل زفافها، بدأت أوكوشي في التشكيك في هذه الفكرة التقليدية.

تقول آيكا «استخدمنا تقنية النسيج Nishijin-ori ـ وهو نسيج تقليدي يتم إنتاجه في منطقة نيشيجين في كاميجيو كو في كيوتو ـ لإنشاء مادة متينة وعالية الجودة. من خلال فصل الجزء العلوي عن الجزء السفلي، تمكنا من تحويل الثوب المكون من قطعة واحدة إلى قطعتين، يمكن ارتداؤهما مع الملابس الأخرى المناسبة للاستخدام اليومي».

من خلال تغيير طريقة استخدام النسيج التقليدي، تحافظ أوكوشي على أهمية الحرفة في العصر الحديث. لقد كان نهجها المبتكر بمثابة تغيير لقواعد اللعبة في عالم الموضة.

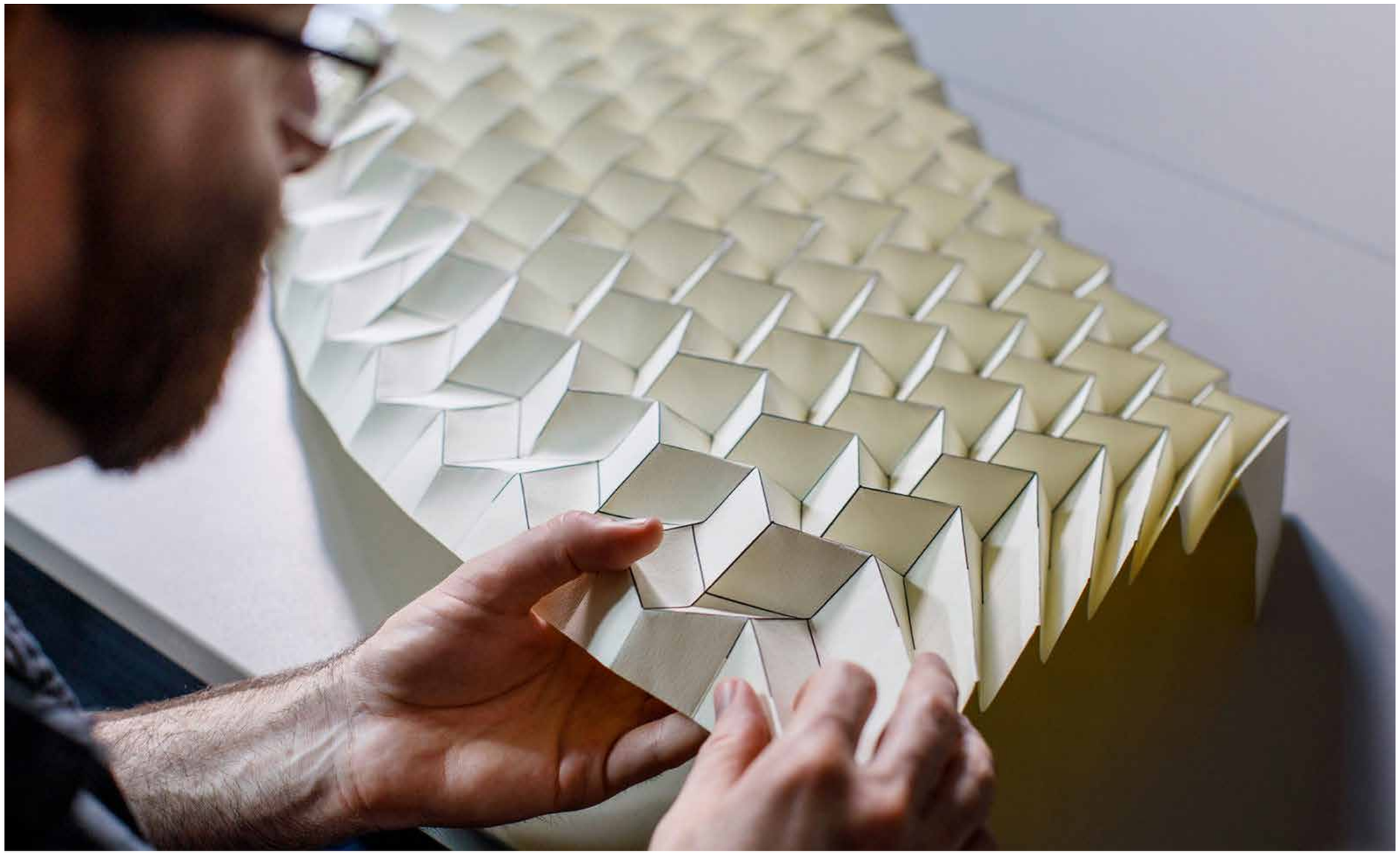

ثني المواد بطرق معينة يمكن أن يؤثر على خصائصها الهيكلية

البناء على التقاليد

تثبت كلتا المرأتين أنه من أجل الاستفادة القصوى من الحكمة القديمة في الأزمنة المعاصرة، يجب ألا نخاف من التغيير. إلى جانب إعادة اكتشاف قيمة التقاليد الماضية، يجب علينا إعادة اختراعها والتفكير في كيفية استخدامها لحل المشكلات الحديثة.

تقول ساشيكو «لا يتعلق الأمر باستخدام أشياء من الماضي كما هي؛ يجب علينا إعادة تكوينها بحيث يمكن استخدامها من قبل الناس اليوم، على سبيل المثال عملي مع أنظمة العزل الزلزالي ربما لايزال يعتبر غير تقليدي في مجال هندسة الأوريغامي، ولكن يمكن أن يكون حلاً فعالاً».

تقول آيكا إن «علامتي التجارية تدور حول توصيل الأفكار أكثر من الموضة. أريد أن يكون هناك المزيد من المستهلكين الذين يدركون الوضع الحالي للحرف التقليدية، ويفهمون قيمة معرفة وجوه المنتجين. مشاريعي لا تقتصر على مدينة كيوتو. لدي خطط لتنشيط صناعة الشال الحريري المصنوع يدوياً في مسقط رأسي في يوكوهاما، من خلال العمل مع الحرفيين لصنع الطرحة أو الوشاح».

قد يكون من المفيد التفكير في التراث على أنه شيء يمكن أن يشكل أساس الابتكار، وليس شيئاً ثابتاً. في الواقع، قد تعيد جهود هاتين المرأتين تعريف قيمة التقاليد نفسها.

جياوتسي الصينية

الكاتبة: زينب تشيان يو تشانغ
المترجم: عبدالمجيد شنغو ون يو
المراجع: جمال بن علي آل سرحان

جياوتسي (عجينة محشوة صينية)، هي طبق المعكرونة التقليدية الصينية لقومية الهان، التي يرجع تاريخها إلى أكثر من 1800 سنة. اخترعها تشانغ تشونغ جينغ من أسرة هان الشرقية (25م-220م)، وكانت تُستخدم في الأصل للأغراض الطبية. الجياوتسي محبوبة جداً بشدة من قبل الشعب الصيني، وهي أيضاً غذاء أساسي، ووجبة خفيفة محلية في شمال الصين.

الغلاف الخارجي للجياوتسي في العادة يكون مصنوعاً من البيض أو دقيق الأرز، والحشوة يمكن أن تكون لحماً أو من النبات، ويمكن أن تكون حلوةً أو مالحة، ويمكن أيضاً طهي الجياوتسي على البخار، أو قلياً بالزيت، أو بغليان الماء... وإلخ. وتشمل الحشوة لحم الجمبري ولحم الخنزير ولحم البقر ولحم الضأن وما إلى ذلك، وتتميز الجياوتسي بغلاف رقيق وحشوة طرية وطعم لذيذ وشكل فريد. عند عمل الجياوتسي، عادة ما يخلط الناس الطحين والماء معاً، ثم يعجنونها في عجينة خشنة سميكة وكبيرة، ويغطونها بشاش مبلل أو منشفة، ثم يتركونها مدة ساعة تقريباً. بعد ذلك، وبوساطة سكين يتم تقطيع العجين إلى قطعٍ صغيرةٍ، ومن ثم يتم ترقيق غلاف الجياوتسي المستدير بوساطة دبوسٍ متداول، ثم تلف الحشوات وتشكل على شكل هلال، وفي الأخير توضع في القدر، وتُطهى حتى تطفو الجياوتسي على السطح.

عند صنع الجياوتسي، غالباً ما يلف الناس السكر البني والفول السوداني والتمر الأحمر والعملات المعدنية في الحشوة، ومن يأكل هذه الجياوتسي سيكون له حظٌّ سعيدٌ.

الجياوتسي هي نوع من الأطعمة الشعبية الصينية ذات التاريخ الطويل، وتناول الجياوتسي هو أيضاً تقليد شعبي فريد من نوعه للشعب الصيني، خلال أعياد الربيع. ففي كل عام صيني جديد، تصبح الجياوتسي طعاماً شهياً لا غنى عنه. من بين العادات الشعبية في العديد من مناطق قومية الهان، يعد تناول «الجياوتسي» عشية رأس السنة الجديدة، هو وليمة مهمة لا يمكن لأي طعام شهي أن يحل محله.
في شمال الصين، وفي ليلة رأس السنة الجديدة،

يتمثل النشاط الأكثر أهمية هي صنع الجياوتسي مع جميع أفراد الأسرة. هناك تقليد لتناول الجياوتسي في عشاء ليلة رأس السنة الجديدة، ولكن عادات تناول الجياوتسي تختلف من مكان إلى آخر. بالنسبة للصينيين الذين يدافعون عن المودة الأسرية، ففي ليلة رأس السنة الصينية الجديدة، يتساقط الثلج بهدوء خارج النافذة، ويتم تشغيل الأضواء الدافئة في المنزل، وتغلى الجياوتسي بالبخار في القدر. يضع الناس كل تمنياتهم وبركاتهم على غلاف الجياوتسي الرقيق. النيران الحمراء والماء المغلي تجعلها لذيذة، أكثر كلما طهيت أكثر، إن تقديم الجياوتسي يمثل أيضاً وضع التمنيات والتوقعات للسنة الجديدة.
الجياوتسي ليست نوعاً من الطعام اللذيذ في الصين فحسب، بل تمثل أيضاً الثقافة الوطنية الصينية، وتعبر عن تطلع الناس وجاذبيتهم لحياة أفضل. من المستحيل تماماً الاستغناء عن تناول الجياوتسي خلال أعياد السنة الصينية الجديدة، فمع تاريخ يزيد على 1400 عام، ترسخت الجياوتسي وضربت جذوراً ثابتاً في قلوب الناس العاديين، وأصبحت تدريجياً تمثل الطعام الصيني الرائع واللذيذ.

worked on restoring, maintaining and reviving these markets so that they can continue playing their role again.
Because of the historical and heritage importance of those markets, they have become leading destinations that attract visitors and tourists from everywhere, as they returned alive and active once again. Many people from different cultures like to visit them. Therefore, they are worth highlighting in this issue of «Marawed» magazine to introduce their cultural, social and economic role, position and value, as they were public places, where people gather and meet to buy and sell goods and commodities. There, cultures of peoples and civilizations of nations were meeting. Our valued readers will also find a further review of the various commercial and economic activities, their places and centers, in order to provide a comprehensive and integrated perception of what life was like in the past.
In the issue, we are providing various articles and detailed studies that explore the features of the Arab and Emirati cultural heritage, bringing the readers to new worlds and horizons that mix meaning and structure, and reflect the cultural heritage in various places and locations.

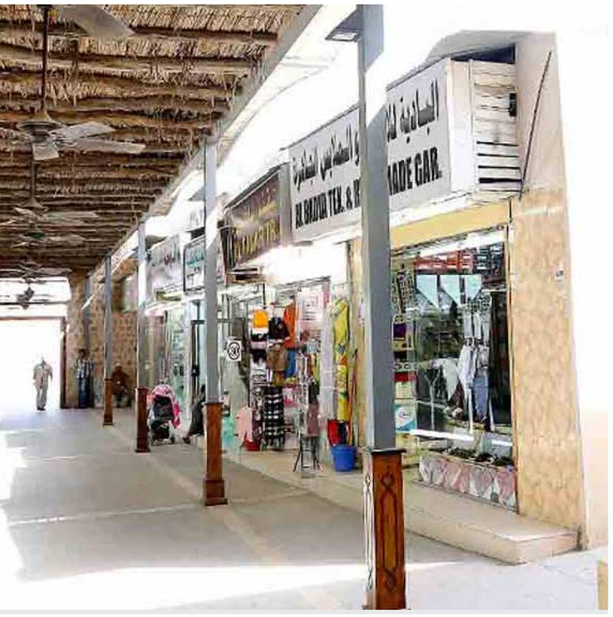

شرفة

أسواقٌ لها تاريخ

د. منّي بونعامة
مدير التحرير

تحتل الأسواق مكانة مهمة في تاريخ الحركة التجارية والاقتصادية بإمارة الشارقة، وظهرت سلسلة من الأسواق التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ الإمارة، منها: سوق العرصة، سوق الشناصية، سوق صقر، سوق التمر...
وكان السوق الرئيس للمدينة القديمة طولي الشكل، وممتداً على طول الشاطئ الجنوبي للخور لمسافة كيلومترين، وذلك لسهولة تنزيل البضائع من السفن وتحميلها، والتي تأتي إلى الميناء محملة بالبضائع المتنوعة، وكانت الأسواق في السابق تسقف بانحدار بسعف النخيل، وكانت عالية، وفيها فتحات مربعة عدة للتهوية، ثم تطورت إلى دكاكين مبنية بحجارة البحر والجص، وكانت توجد غرف مبنية فوق المتاجر، تستخدم سكناً للعمال، ويؤم هذه الأسواق كثير من التجار والحرفيين والباعة المتجولين، كما يؤمها كثير من الوافدين من البلاد المجاورة. كما كان موقع السوق متداخلاً مع النسيج المعماري للمباني الأخرى كالبيوت والمجالس، ولقربه من خور الشارقة، وراحة التجار، والأمان على بضائعهم، جعل السوق مركزاً لتجمع تجار البحر (أصحاب السفن)، وكذلك جعل ساحة الضخمان في جانبه الجنوبي محاطة من بيت النابودة ومجلسه ومدرسة الإصلاح وقربها من المسجد الجامع.
وقد أسهم الموقع الاستراتيجي الذي تبوّأته المدينة في جعلها مركزاً اقتصادياً حيوياً، ولا أدلّ على ذلك في الماضي من تفرّع سوقها الرئيس القديم، وتشعّبه إلى أسواق فرعيّةٍ عدّة، لكلٍّ منها اختصاصه بمقياس ذلك الزمان، وكانت تلك الأسواق من السّعة والتمركز، بحيث استغنى بها أهالي المناطق الأخرى، التابعة للشارقة، عن إقامة أسواق كبيرة خاصة بتلك المناطق، فكان كلّ من سكان الذيد والحميريّة والحيرة والفشت وفريج الشرق والخان والليّة وغيرها من المناطق التابعة للشارقة، أو المحيطة بها، يأتون إلى هذه الأسواق للبيع أو الشراء، أو قضاء وقت ممتع في لقاء الناس. ويحيلنا الرحالة البريطاني وليم بلجريف إلى هذا المعنى، من خلال ما دوّنه في رحلته عن الشارقة وأسواقها والحركة التجارية فيها خلال القرن التاسع عشر الميلادي، والتي حوّلت المدينة إلى مركز تجاري، فكثرت أسواقها، وتطورت وازدهرت وتنوّعت، «حيث صارت هذه المدينة بالنسبة لغربي عمان، على الوضع نفسه الذي أصبحت عليه مدينة لنجة في السنوات الأخيرة بالنسبة إلى الساحل الفارسي المقابل، وهي مركز للاستيراد والتصدير، أو إن شئت فقل نقطة تمر بها وتلتقي عندها كثير من خطوط التجارة البرية والبحرية، ثم تتفرع منها في اتجاهات مختلفة، والمنطقة من البدع إلى رأس مسندم، بل حتى إلى ما وراء رأس مسندم، لا يوجد فيها أي ميناء آخر ذي أهمية تذكر، كما لا توجد فيها أي أسواق أخرى تستحق الذكر».

mini.abdelkader@yahoo.com

Our Traditional Markets

A living memory

Sharjah was a pivotal commercial hub that played a major role in the economic history of the emirate through the trade exchange between Sharjah and the other cities and regions that used to be a destination attracting merchants and sellers from everywhere. This made the markets in Sharjah teeming with goods and commodities of various types and shapes. Among the old markets established in the heart of Sharjah were Souq Al Arsah, Souq Al Shanasiyah, Dates Souq, and Saqr Souq. The Sharjah Institute for Heritage, under the directives of His Highness Sheikh Dr. Sultan Bin Muhammad Al Qasimi, Supreme Council Member and Ruler of Sharjah, has